

حنافینا



الکالج یانی سے فی النافذہ

روایت

دارالآداب

حنا مينه

الثلج يأتي من النافذة

رواية

دار الآداب - بيروت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية
تشرين الاول ١٩٧٧

اللاهعراء

الى الدكتور نبیه رشیدات

م.ع

القسم الأول

- ١ -

حين رآته مقبلاً صاحت :

- ألم يوقفوك بعد ؟ ..

فقال في نفسه : « يالك من حمقاء ! » ، واكتفى بتحياتها من بعيد ، مشيحاً عنها بوجهه ، متجاهلاً مؤالها الأهوج . ثم داف الى البيت حيث نهاوى على مقعد قديم ، وأغمض عينيه ناشداً الراحة والدفء .

ولحقت به وطفلها على ذراعها ، تاركة جاراتها على مدخل الحديقة الصغيرة ، وقالت مرحة :

- أهلاً وسهلاً .. أهلاً .. أمس كنا في سيرتك ، بل نحن منذ شهر في سيرتك .. كنا نتساءل : هل أفلت فياض ؟ وكان عمي يقول : مستحيل ، لو أفلت لجاء إلينا . ويقول خليل : ربما كان مختبأ حتى تسنح الفرصة .. أما امرأة عمي فلا تزال تضرب على صدرها وتبكي كلما ذكروك .. لم ينسوك ليلة . شربوا كأسك ..

- ٧ -

انزلوا صورتك وسقوها .. صلت امرأة عمي لأهلك ، ولم يخطر
لأحد انك ستكون عندنا اليوم .. أهلاً وسهلاً .. أهلاً ... ماذا ؟
هل بك شيء ؟ ..

حرق فياض في وجه المرأة والطفل بصعوبة .. كان يرتجف
من البرد والتعب ، والمقعد نحته تبلل .. وكان شعره مشعثاً ، وصفرة
تكسو وجهه .. صفرة عميقة الى درجة ان المرأة أجفلت حين
تفرست فيه وصاحت :

— يارب ! هل أنت جريح ؟ أين كنت ؟ ماذا حدث ؟
هل أحضر الطبيب ؟

أشار إليها ألا تفعل . كان عاجزاً عن الإجابة على سبيل
أسئلتها . وقد فوجيء هو نفسه ان تكون سخنته فاضحة إلى هذا
الحد . شعر فوراً بخطيئته ، وحاول ان يتناسك ، وابتسم ، ويخفي
تبلل ثيابه التي خوض بها في النهر .. وعادت المرأة تقول : « يا إلهي ! »
فقال في نفسه : « أفضل شيء أن أنام » .

وفي هذه اللحظة تاهت إليه من الخارج أصوات أطفال
يتراكضون وراء جدتهم وهي تصيح :

— أهلاً .. يا أهلاً .. يا حبيبي يا فياض .. يا عيوني .. كيف
صار ؟ كيف خلصت ؟ . فقال في نفسه : « أفضل شيء أن أنام » .
وبلا حماسة نهض لتحتيتها ، فعانقته وقبلته ، وبكت لأنها اعتادت ان

تفعل ذلك ، وشمه من عنقه كأنها لاتصدق انه هو ، وزادت في
البكاء حتى دهش الأطفال ، ثم ابتسمت مظهره الوجوه الآخر
لشعورها الطيب .. ولأنها كانت تحت وطأة إندفاع الفرح ، لم
تلاحظ صفرة فياض ولا إرتعاش عضلات فكيه ، فعادت هي ايضاً
إلى طرح أسئلة لاجامع بينها سوى الرغبة في ان تعرف كل شيء
بأسرع ما يمكن .

كانت تتكلم بصوت مرتفع لا يتناسب مع ثقل الجو وقرب
المسافة بينهما ، وفجأة استدارت لمخاطبة جاراتها الواقفات عند باب
الحديقة .. وطار الأولاد لا يدري إلى أين ، وإنقلب هدوء المنزل
إلى صخب غير متوقع .

كان يحسب ان وصوله سيظل سرّاً ، وهما هي العجوز
تستقبله بزفة ، والصغار يتطوعون لنشر الخبر ، والجارات يصحن
من الخارج : « الحمد لله على سلامته » فتجيب ام خليل : « الله يحمد
شأنكن » .. تفضلي يأم أنيس .. وأنت يأم عازار ، وأنت يأم
نسب .. القهوة على النار ، تقولها وتلتفت إليه لإكمال الترحيب .

وظهر ، في غمرة هذا الجيشان العاطفي ، أبو خليل على الباب ..
كان يطلق ، هو الآخر ، رصاصات التأهيل من باب الحديقة ..
وللتعبير عن فرحته ، ظل يصيح حتى وصل إليه وأخذه بين أحضانه ،

ثم راح يطرح الأسئلة الي سبقتة اليها كنته وزوجه ، غير ملاحظ
نظرات الشاب المتوسلة .

وأخيراً تطوعت الكنة لشرح الموقف فقالت :

— فياض مريض ، مجروح ، لأدري مابه .. انظروا ..

اغلقوا الباب !

قالتها وخطت نحو الباب لتغلقه ، بينما مضى فياض الى
الغرفة الداخلية ، فجلس على السرير قائلاً لأبي خليل : « اشعل لي
سيكارة ، أرجوك ، واعطني غياراً من ثيابك ، وقل لأم خليل
لاتصرخ ، لاتقولوا لأحد أنا هنا ، والذين عرفوا قولوا لهم اني
مريض ، اسرع يا ابو خليل . أرجوك ، أريد الوصول الى الفراش ،
وبعد ذلك أقول لكم كل شيء .. »

ودخلت ام خليل الغرفة وهي تلطم خديها .. كانت مستعدة
للقيام بمناحة هذه المرة .. وراحت تسأل زوجها ، بالهمس والإشارة ،
وقد غاضت فرحتها ، ولم تعد تدري ماتفعل .. ثم وجدت من
واجبها ان تنصح فياض فقالت :

.. شف يا فياض . غسل .. واشرب قدح عرق ، وكل ،

وصلي ..

قاطعها ابو خليل :

— اخرجني من الغرفة .. اتركي فياض يبدل ثيابه .

— شف يا فياض الصلاة ...

- قلت لك انخرجي من الغرفة .
- أنت لا تدخل .. الصلاة ..
- ليس هذا وقت الصلاة ..
- الصلاة مفيدة في كل الأوقات .. عند أم أنيس طاسة للربعة ..

فأمسك بها أبو خليل بقسوة وصاح :

- دينك على دين أم أنيس !

- يارب !

- ولا كلمة .

قالها ودفعها نحو الباب الذي فتح في هذه اللحظة ، وظهرت على عتبة اختها أم بشير ضاحكة تقول :

- أهلا ، أهلا .. الغائب لكم ، والرمغان لنا ^(١) .

نهض فياض لتحيتهما مضطراً ، قائلاً في ذاته : « الأولاد أدوا الأمانة ، .. وإنسلت في هذه اللحظة ، جارة شابة الى المطبخ تسأل كنة أم خليل :

- أهذا فياض الذي تقولون عنه ؟

- أي نعم ، هذا فياض .. هذا أستاذ !

(١) رمغان .. كلمة عامية تعني ما يحضره المسافر مما يؤكل .

فقلبت الجارة الشابة شفتيها وقالت :

— بس طقمه ^(١) عتيق •

— هذا طقم السفر •

— وماذا أحضر معه ؟

— لا شيء ..

فانمط أبو خليل باتجاه المطبخ وقال :

— محضر تحقيق ؟ لك .. دين النسوان • صار الظهر وكل

حرمة الى بيتها •

وقالت الجارة الشابة للكنة :

— ما حمض نفس عمك اليوم •

وغادرت البيت • فبدل فياض ثيابه وقال :

— إتركوني الآن • لأحد يدخل علي • سأنام ..

ونام •

— ٢ —

عند العصر ، كان العرق ينعقد كثيفاً على جبينه ..

وكانت وجوه شيطانية لرجال يعرفهم وآخرين لم يرههم قبلاً ، تكشر

من حوالبه .. وقال في نفسه : «يا للأسنان الكريمة !» كان الرجال

(١) أي بزته •

يحاولون القبض عليه وهو يهرب . دخل زقاقاً وتلفت : لا أحد .
حسناً .. ليسرع الآن .. هناك بيت يعرفه ، لكن البيت اختفى .
وفي آخر الزقاق رجل يضحك . انه هو .. الرجل الذي يطارده ..
رجع أدراجه ودخل منعطفاً لا يدري متى وجد ، وانقلب المنعطف
الى شارع ، وامتد الشارع .. ووجد بيتاً ، وفي البيت درج ،
وجرب الصعود عليه فلم يستطع .. كان الرجل هناك .. يقهقه على
رأس الدرج .. وأراد الرجوع فاخفى الدرج . اضطر الى القفز ،
فلما بلغ الأرض لم تكن أرض .. كان ماء عكر ، تحول فجأة الى
نهر جامح ، دفعه تياره بعنف في مسيله الهادر ، وقذفه على صخر ،
على طرف جبل ، فارتطم واستيقظ .

فتح عينيه وبقايا قشعريرة في جسده .. تفرس في الغرفة
خلل العتمة ليتحقق من وجوده ويقظته ، شيئاً فشيئاً استعاد كامل
وعيه .. تأكد أنه في بيروت ، في بيت أبي خليل ، وان الرحلة
الرهيبة ، الطويلة القصيرة ، قد صارت الى نهايتها أخيراً .

كان حلقه جافاً ، ونقف حنظل في فمه ، وصداع ، كذاك
الذي يستشعره مخمور عقب نوم قليل ، يدق في صدغيه .. لم يكن
أحد في البيت . النافذة الوحيدة مغلقة ، مسدلة الستارة ، وكذلك
الباب ، وليس من حركة في الغرفة المجاورة .. ثمة أصوات في
الحديقة ، لكنها لا تبلغ الضجة المعتادة ، فقال في نفسه : « هذا

كله من تدبير أبو خليل .. فرض الصمت على البيت لكي أنام طويلاً .
ونسأل : « لماذا استيقظت بهذه السرعة ؟ » .

أغمض عيني به باصرار .. وللتوكيد على ضرورة النوم غطيت
رأسي باللعاف وقال في نفسه : « النوم وحده يعيد الي نشاطي ..
يجب أن أنام .. مرة أخرى يجب أن أنام ، فتح عيني وأغمضها ،
ورفع رأسي وطمره ، ولاذ بالظلمة والسكون ، وفرض على مخيلته
الجمود للحظات ، وتقلب يميناً ويساراً دون جدوى . كان يستشعر
عذاباً داخلياً مؤلماً ، ويصارع في ذاته ضد ذاته ، معانياً من فقدان
السيطرة الناشئة عن تنبه الأعصاب .

بعد قليل ازدادت العتمة في الغرفة ، ومنها استدل أن
المساء حل .. سيان لديه الوقت .. ليس من عمل ينتظره ، إضافة
الى أن الاستلقاء على هذا النحو ، رغم امتناع النوم ، يجلب
بعض الراحة .

المضيفون مازالوا خارج البيت .. في الحديقة بغير شك ،
بدلالة أصوات الأطفال المتقطعة .. هذا صوت أم خليل ، ثم هذا
صوت الكنة ، وربما كانت هناك جارات أيضاً ، لكن أبو خليل
لا يسمع له صوت . ذهب الى المقهى كما اعتاد كل عصر ، ذهب بعد
أن أوصى الجميع بعدم الضجيج ودخول البيت . وقال في نفسه :
« انهم ينتظرون استيقاظي .. وسيأتي خليل بعد قليل ويستوضحني ..

هذا العامل له روح عجيبة في الدأب وعدم اللجاجة .. لكنه يبدو ،
أحياناً ، مثيراً للأعصاب لكثرة ما يراوده الشك ، من الأفضل
تأجيل الحديث معه الى الغد ، والبقاء في الفراش هذه الليلة .

اشعل سيكارة : التبغ طيب . أطيب من الطعام
والشراب .. دخانه الذي تمتصه الخلايا بنهم ، يخدر الأعصاب ،
يساعد على تصور الأشياء بهدوء أكثر ، ويجادل ، شأن الكأس ،
جايده الصامت .

- ٣ -

ها هو في بيروت الآن .. الطريق الطويل ليس طويلاً ،
وجدار المصائب ليس عصياً . كل شيء مضى ، مر سريعاً برغم بطء
الثواني - أمس - قال فياض في نفسه - كنت على نار .. عشرات
الأسئلة كانت تحفر دماغه ، ولم يكن الجواب عليها ممكناً ، أما
الآن فكل شيء في الضوء ، وفي وسعي أن أنظر الى الأشياء
بهدوء . وكان أول ما أحسه العتب والندم على ما بدر منه من
قلق واضطراب .. صار الآن يرى من بعيد ، يتأمل مجرى
الأحداث دون أن يرهقه دوران طاحونتها ، فهو خارج حبر
الطاحون .

- ١٥ -

وقال في نفسه : « من حقي أن أبتهج ، فالسلامة التي
نشأتها توفرت ، ومهما يكن الخطر هنا ، فهو أخف ، والشعور
بالحرية جميل » . كان يتوقع أن يملأه ذلك بالرضى وبسلامه الى نوم
عميق . وقد عجب لأنه لا ينام ! . شيء ما يحترق في صدره ، يذوب
كشمعة موقدة في معبد مغلق ، وظلمة المساء لا تنسكب في الغرفة
وحدها ، بل في رثتيه أيضاً ، والأطياف البعيدة تقترب كأن دنياه
القديمة تحيط به ويعيش فيها .

سبق له ان زار لبنان ، وزار بلدانا ابعد ، لكنه لم يحس
بالغربة بهذا الشكل . أيكون ذلك لأنه خرج من وطنه مرغماً
متوارياً ؟ فكر في نفسه : « انا منفي على نحو مـا » وتهد :
« اللعنة ! » راح يتصور آدم خارج اللجنة وقال : « قد كان اساي
مفهوماً لو انني طردت من اللجنة لخطيئة ارتكبتها ، أما وانني غادرتها
غير آثم ، فمن عجب ان تتابني الكتابة على هذا النحو . ثم ما خطيئة
آدم ؟ جدنا الأعلى ظلم مرتين .. طرد لأنه مارس حقه ، وصور على
انه مارسه بتحريض من غيره . . ممارسة الحق ممنوعة من زمان ،
من عهد آدم وحواء !

كان يستلقي وعيناه مطبقتان .. وخياله يزدحم بالرؤى ..
هو هو وليس هو .. انه النقيضان : الوطن والغربة ، القرب والبعد ،
الرجاء واليأس .. وقال في نفسه : « علي ان احمل صليبي .. علي

الجدول ان يصب في النهر العظيم . هذه العبارة تلخص قضيتي ..
قرأتها لادري اين عت كتب انا . أبي لم يكن يعيش في الكتب .
لحق امرأة الى مصر لأنها غمزته . يضع رأسه على قمة الجبل وينام ..
« وماذا فيها يأنزهة ؟ . وحوش ؟ ابن آدم تخافه حتى الوحوش .. هذا
الولد هش . كان علي ان أبصق في فمه يوم ولد .. بهذه الطريقة فقط
يطلع الولد على ابيه . مؤسف ! الولد طالع على امه وليس على ابيه ! »

استبعد فكرة النوم في شبه احتجاج على الاحاح في طلبه .
ليأت النوم حين يريد ان يأتي ، ذلك ادعى الى الراحة . فكر :
« ليس من شبه بين النوم والمرأة بسوى الدلال .. كلاهما تطلبه
فينأى وتتركه فيقبل ، فلأترك النوم حتى يأتي » . فتح عينيه وصدق
في السقف ، في المجلد الواسع : سطور ، صور ، امه جو كانه .
صورة بتول ينقصها اطار . وابوه فاسق « جنس وخمر وما احلى
ما يدبر الله . لا يموت الانسان الا في حينه . رأيت جبل المشنقة بعيني
يأنزهة ، « وكدت تيمم فياض بسبب امرأة مدير السكة ياسالم ! »
قلت لك كل شيء مقدر . الموت والحلب والسفر . المدير هو الذي
قال لي اذهب واشتغل عندنا في البيت . « ولكنه لم يقل لك اعشق
زوجتي » هي قالت . كل شيء مقدر . كانت جميلة . المانية وجميلة ،
والدنيا « سفربر » وبود .. وهي كانت في السرير .. كانت عارية
وكانت في السرير . راح الذي راح واكنها كانت في السرير . والمدفأة

حمراء ، والفلفل احمر ، والقطن الملفف بشياها احمر . « أنا لا أطلب منك
تفاصيل .. الف مرة اعدت القصة ، اعدتها لكي تصدقي ، لا غسل
ذمتي . « اغسلها وانت صاح ! ، عدنا الى الاتهام ؟ قلت لك امرأة
المدير .. « كفى ! ، امرأة المدير هي .. « فهمت .. كفى ! ،
ملعون يا عمري .. اقول لك امرأة المدير .. « صدقت ! ، واقول
لك الولد لا يشبهني « الحمد لله انه لا يشبهك ، ولكن دمه من دمي
« انت مجنون » وهذا الولد سيجن .. انتظري .. سيجن بشيء ما ..
« بأي شيء الا الحمر والنساء » لماذا تزوجت قديسة ياناس ؟ قطعت
البحور السبعة وعدت الى دير البلماند .. هذا الولد خاسر .. لا يهتم
بغير الكتب « يكفي انه عاقل » ومانفع العقل ؟ أتريدين بنتاً ؟
« اريده ان يبقى بقربي » لن يبقى بقربك .. انتظري وستري ..
هبطت الظلمة في الخارج ، فأذن أبو خليل لأهله بدخول
البيت ، وانصب الضوء في الحجرة المجاورة ومعه جلبة الاولاد ،
واتاه صوت أم خليل وهي تخاطب زوجها :

- شف الملعون .. مئة مرة قلت له يا خليل لا تتأخر .. آخ ،
ذنب ثور !

قال ابو خليل بلا مبالاة :

- لا ، ذنب كلب !

- ذنب شيطان .

وضحكت العجوز للنكتة فنسيت قصة خليل . . اتجهت
الى غرفة فياض ، وعندئذ صاح بها زوجها وهو يسحبها من يدها :
- تعالي .. المطبخ هناك .. اذهبي الى كنتك واتركي فياض
يستريح .. ماذا اوصيتك ؟

لكنها افلتت منه ودخلت الغرفة بهدوء فلما اضاءت النور
صاحت دهشة :

- افائق انت ، ونحن ننتظر؟

هز فياض رأسه وابتسم ، وقال ابو خليل الذي دخل وراءها :
- اقسم انه لم ينم .. انظري عينيه . . انظري حالته . .
قلت لكم اذهبوا من البيت .. اذهبوا من الحديقة كلها ، اذهبوا ..
وسكت كيلا يقول سوءاً ، او لعله لم يجد مايقول ؛ فاجابه
فياض مستغرباً :

- ولماذا يذهبون ؟ دعهم يأخذون راحتهم .. انا بنجـير
(وهو ينفض) سأغسل وجهي .

غادر فراشه كمن يغادر فراش المرض . كان يود لو ترك
وشأنه ، واكنها الليلة الاولى ، وهم بانتظار حديثه منذ وصل ، وهذا
اثقل شيء عليه .

بعد الاغتسال ، انتعش لوقع الماء البارد على رأسه ووجهه ،
فذهب الى طرف الحديقة يستنشق هواء المساء ، ثم دخل فسرّح
شعره وارقدى ثيابه .

اقترح ابو خليل كاساً ، فتدخلت ام خليل وقالت متوجهة الى فياض :

- لازم تأكل اولاً .. العرق مضر قبل الاكل .

قال ابو خليل :

- العرق يفتح الشهية للاكل . . سنشرب كاساً بانتظار

خليل .

- لا تنتظروه .. عنده « مجمع » لا يرجع قبل سهرة .

والتفتت الى كئنتها وقالت :

- لازوجك زوج ، ولانت امرأة . . لولم أكن في هذا

البيت .

فقاطعها ابو خليل :

- لانهم ووصلت أحجاره الى البحر .

- نعم الى البحر (وملفتة الى فياض) اسمع يا فياض ،

خليل صار صاحب بيت وأولاد ، ومع ذلك لا يترك الجامع . .

والانكى انه يرسل امرأته اليها .. يرسل امرأته الى « مجامع » ،

النسوان . . ماشاء الله . وماذا يقولون بالله عليك ؟ بر .. بر .. بر ..

قال ياسيدي هو سيأخذ حقوق العمال ، وامرأته ستأخذ حقوق

المرأة . . وامس رأني ابو انيس فقال : اوصي ابنك بام خليل . .

اضراب عمال الهاتف خطر ، وابنك يلعب بالنار ..

- هه (صاح ابو خليل) اذ كرى الديب وحضري القضيب ،
جاء خليل فقولى هذا الكلام فى وجهه .
- اقوله ولا اخاف . .

وهتف خليل منذ ان صار فى الداخل :
- فياض .. ياهلا .. كيف صار ؟

وتعانقا .. قبل احدهما الآخر ، وزاد خليل فى تقييل
صديقه . راح يضمه غير مصدق انه بين احضانه ، وهم ان يسأله :
متى وصلت ؟ وكيف ؟ فاندفعت امه قائلة :

- لو عينك شافته حين وصل يا خليل .. وجهه اصفر ،
وشعره ملبد ، وفمه يابس .. انا كنت مع ام انيس ، ولما سمعت
اسمه طار عقلى .. رأيتـه يدخل البيت ولم اصدق .. ركضت ،
قلت فى نفسى : هذا فياض ؟ مستحيل ، واقتربت .. فياض بعينه ،
وأردت الزغردة ، لكنه دخل البيت ولم يلتفت الينا .. لم يسلم على
ام انيس . تصور .. أي ام انيس غريبة ؟ هذه واحدة من البيت ،
انا والله خجلت . لم ادر ما أقول تركنها ودخلت ، فوجدته
يرتجف من البرد . صاحت زوجتك : فياض مريض ! ودخل ابوك
فى هذه اللحظة ، ولحقناه الى الغرفة الداخلية .. طلب سيكارة ،
وبدل ثيابه ونام . . لم يأكل ولم يشرب ، ولم يقل لنا كلمة ..
وام انيس ..

زحجر ابو خليل :

- دين ام انيس .. لا تفلقينا بأم انيس هه .. كأسك فياض !
بيعينا سكوتك يا حرمة !

- ٤ -

عقب الطعام انفرد خليل بفياض . طلب اليه ان يحدثه
بتفصيل عن كل ماجرى معه فقال فياض :

- وكيف الحال هنا ، في لبنان ؟

- من ناحية اللاجئين امثالك ؟ صعبة .

- يلاحقونهم ؟

- بشدة .

- ولماذا ؟

- هكذا .. لا يريدونهم .. احسب ان هناك ضغطاً بشأنهم .

- والحرية التي يقولون عنها ؟

- الحرية ؟ ليست لنا على كل حال ، لاصحابها ..

ثم استدرك :

- ولكن لبنان يظل لبنان .. وفي وسع الجميع ان يجدوا

مخرجاً فيه .

- وهذا ما اريد . .

- ولكن عليك ، في هذه الفترة على الاقل ، ان تظل مختبئاً . .
ابق مختبئاً حتى ابحت أمرك وأجد وسيلة لمساعدتك . . لا تغادر
البيت .

وقال فياض في نفسه : « اذا كنت سأختبئ فلماذا جئت
اذن ؟ » . وقال خليل :

- سندبر الامر . . لا تقلق . . حدثني اولاً عنك .

حدثه بكل شيء . . قال له ان الرجعية الحاكمة في سورية
قد فتحت المعركة ضد الشعب تمهيداً « للدفاع المشترك » وهي تطارد
التقدميين لتمرير هذا الحلف ولكنها لن تنجح . . وقد لوحق هو
لانه يساري وكاتب معارض . فاضطر الى الانقطاع عن التدريس
واختبأ فترة ، فلما اشتدت الملاحقة نصح بمغادرة البلاد لمواصلة المعركة
وقد التجأ الى لبنان وفي ظنه انه سيتمتع بالحرية . . ثم حدثه عن الذين
في السجن ، والذين يعيشون مختبئين او مشردين . وعن جوال الارهاب . . .
قال له كل ما يمكن ان يقال . . وظل خليل مطرقاً يفكر . كان
جم الاهتمام بما يسمع . . سادراً على غير عادته ، ومن حين لآخر
يبدى ملاحظة عابرة ، او يستعيد مقطعاً من الحديث ، او يطرح
سؤالاً مفاجئاً ، فاذا كان الجواب غير مقنع ، كرر السؤال بشكل
آخر ، وهز برأسه شاكاً ، او ارسل عبارته التي تتخذ سمة حسم مزعج :

- كان يجب الا تفعل هذا .

او قال حازما :

- كان عليك ان تصمد اكثر .

وعندئذ كان فياض ينكس رأسه ، او ينظر اليه باحشا عن
الرقعة التي كانت له قبل لحظات ، دون ان يعترض او يبور سلوكه .
انه يعرفه ، خليل غزالة هذا .. يعرف قلبه ونفسه وما يدور في
رأسه ، فاذا توقف عند نقطة ، او تشبث برأي ، غدا من الصعب
زحزحته قبل ان يقتنع . وغالبا ما كان اقتناعه متأنيا ، لا يتأني الا
على اساس خبرته ... وكل الاعتذارات او التبريرات تصطدم
باغضائه الشاك .. انه عملي ، تجريبي الى درجة مثيرة .

* * *

طال انفراد خليل وفياض حتى ظهر الضيق على وجه العجوز ...
كان كلامها ممسا لم تتمكن من التقاط شيء منه ، فنهضت لتدخل
عليها ، لكن زوجها انتهرها قائلاً :
- مكانك !

ولما خرجا بادرت الى التنفيس عن كبتها فقالت موجهة
كلامها الى فياض وهي تلوح بيدها العجفاء :

- ماذا قلت له ؟ يا حرام على شبابك . قلت لك لا تلحق
هذا الرأس اليابس ... حذرتك فما سمعت .. ضيع نفسه وراح

يضيعك .. من ثلاثين سنة وهو مشغول بهذه المجامع ، ونحن لا نشبع الحبز .. لم يتوظف مع ان قلته ينقط سم .

قال ابو خليل :

— لا ، عمل !

— بلوط ! هكذا قالوا .. يقرأ ويكتب ولم يتوظف ..

الذي كان يتهبأ في زمانه صار و باش كاتب ، .

— وابنك صار باش سانديكا !^(١)

— تشرقنا ! تشرقنا ! وماذا تفيدهم السنديكا ؟ قلت لهم

ما دتم بلا سند فالمسألة فالصو .. لو كان وراءهم رأس .. وزير ،

نائب ، قلنا فيها وما فيها ، لكن الجماعة بدون سند ، بدون رأس ،

يركضون على الفاضي .. يعملون بدون فائدة ، والمصيبة انهم

يدفعون من جيوبهم .. اسمع يا فياض ...

قال ابو خليل :

— لا تسمع .. سد اذنيك بقطنة ..

— كلامي لا يبخش اذن احد .. اكذب ؟ الا يدفع كل

شهر ؟ وفوق الدفع مصروف الكهرباء ... يظل يقرأ الجريدة

حتى نصف الليل ، ويوم الاحد .. الناس يستريحون وهو يكتب

العرائض ، او يأتي عـمال الهاتف الى منزلنا ، يغلغون الباب

ويتحدثون .. ماذا يقولون بالله عليك ؟ بر .. بر .. قال يطالبون

(١) نقابة .

بمحقوق العمال قال . شف . . . جماعة بدون رأس . . لو كانت
فيهم رأس ، لو كان لهم وزير ، لو عندهم شخص له كلمة في الحكومة ،
يقول كلمتين وتنتهي الحكاية . . آخ . . كيف افعل ؟ هذا الشيطان
اذوب عافيتي . .

قال خليل :

— انا لم اذوب عافيتك .

وقال فياض في نفسه « كان المفروض ان تذوب هي
عافيتك » .

وقالت ام خليل :

— اسمع يا فياض ! زوجته وقلت : ينفذ يده من « الجامع »
ويقعد في بيته . . صار له اولاد فقلت : « يترك السياسة ! » .
اصبحنا انا ووالده عاجزين ، فقلت : يشفق علينا ويخزي الشيطان .
الخلاصة (وضربت على صدرها) رأس من حطب ، لا يصلح
الا للكسر .

قال ابو خليل :

— كسروه وانجبر . .

— لم يكسروه بعد . . ضربه ولم يكسروه . . واذا

كسروه غدا فماذا يبقى ؟

— قال ابو خليل :

- يبقى غيره .

- وما الفائدة اذا كسروا رأس ابنك وبقي غيره ؟

- ابني ما احسن من غيره .

صاحت ام خليل :

- عال . عال . صرت مع ابنك .. اي اب انت ؟

- انا مع الحق .. اسألي فياض .

ضحك . ص لتلطيف الجو ، فقالت ام خليل :

- تضحك . ؟ آخ .. رأسك مثل رأسه .. الله يساعد

امك .. الله يساعدك يانزهة ، أين أنت الآن يانزهة ؟

(نزهة هناك .. في بلد بعيد . نصحته الانحاطر بنفسه ،

ولما خاطر تركته وسافرت الى ابنتها . لا العين ترى ولا القلب يوجع) ..

هربت من وجع القلب فلحقها .. وهي تبكي الآن « فياض اختفى

ياسالم ، انقطعت اخباره ! » لا تخافي عليه يانزهة ، ياما انقطعت

اخباري وعدت « ولكنك كنت تلحق هواك » كله واحد ..

الهوى هوى دائماً .. لا احد يموت قبل يومه « وقد كرني بالموت ؟ »

وماذا فيها ؟ سنخلد ؟ الموت حق .. مقدر .. « انت بدون قلب »

وهذا أحسن .. كنا صرنا امرأتين في بيت واحد .. ثم فياض ابني

ايضاً .. وحيدتي ، بعد ثلاث بنات جاء .. ويوم ولد اقمنا الحيا

واقعدته .. كنا في البحر نفرغ باخرة . وجاءتني البشارة . فقلت

للشغيلة : اسمعوا يا شباب ، من الباخرة الى الخمار . وهناك افرغت
زناري . كنت ادخر نقودي في زناري ، ادخرتها منذ قالت لي
الغجرية متفرح بصبي .. وشربنا .. انفقت كل مالي واستدنت .
وفي البيت قبلتك من جبينك يانزهة ، وقبلت البنات ايضاً . نعم ،
قبلت البنات ، ووزعت الحلوى ، ثلاث صواني من الحلوى ،
وجئت بطبل وزمر .. انه وحيدي ، فياض وحيدي ، وكنت
انظر اليه ولا اصدق عيوني ، لم اصدق ان عرق النعناع هذا سيصير
رجلاً . كان ، هزيراً ، خجولاً مثل البنات ، ومثل البنات يظل في
البيت وقلت في نفسي : « فعلتها نزهة مع غيري ! ؟ » لعن الله
الشيطان .. هذا ابني ، اخلاقه ليست اخلاقي ولكنه يشبهني بسمرته ..
الامانية قالت لي انت أسمر ، وهذا فياض أسمر ، وهو عصبي .. هذا
الضعف سببه العصبية ، وهكذا انا .. الكتب وحدها لم تعجبني ،
وقلت لك يانزهة ابعدني الولد عن الكتب « ولماذا ؟ تريده
مثلك لايفك الحرف ؟ » وما نفع الحرف ؟ نحن لم نخلق
للحرف .. الذي ولد في البحر يموت فيه .. البحارة يعشقون النساء ،
يشربون الخمر ، يصارعون الموج ، رابني ، ابني انا ، وحيدي يدفن
نفسه في الكتب ! مصيبة ! « المصيبة لايتعلم .. دعه . يقرأ ..
يقولون أنه فلتة .. المعلمة قبلته وقالت « لااعرف ماذا سيكون ،
ولكنك سيكون .. » المعلمة بنبت كاب يانزهة .. متنزعة لنا هذا

الولد .. اسمعي مني .. ابعديه عن الكتب « ولكن المعلمة .. »
المعلمة قحبة ! « ياويلاه .. استغفر الله » استغفريه ، ولكن ابعدى
الولد عن الكتب ، ابعديه عن الكتب يا نزهة !)

وعادت ام خليل تقول : مسكينة يا نزهة .. ماذا تقول الآن ؟
- لاشيء ، قال ابو خليل ، نزهة لالت وتعبجن مثلك .. تحترم نفسها .
- وانا ؟

- انت فونوغراف .

فضحك فياض برغمه ، وقالت ام خليل :
- انظروا .. يضحك أيضاً .

فقال ابو خليل :

- لاتضحك يا فياض .. ابك .

وقال فياض في نفسه : « متى يتكلم خليل ؟ » واكتفى
هذا بالابتسام ، ونهض قائلاً :

- سأغيب قليلاً واعدود ..

وفتح الباب وتوارى .

- ٥ -

ظهر اليوم التالي ، حملت ام انيس خبراً اثار القلق في
البيت .. قالت انها كانت في الحانوت الذي على الناصية ، حين جاء

شخص غريب ، نزل من سيارة وقفت بعيدا ، وسأل في الشارع
عن بيت خليل غزالة .. فدلّه الفران ، وارادت هي ايصاله اليهم ،
لكن الشخص عبر الطريق الى سيارته ومضى .. وقياما بحق الجيرة ،
. عادت من الدكان الى بيت ابي خليل رأسا ، وندهت من الخارج :
- يا خليل !

ردت الام ، ودعتها الى الدخول ، والحت عليها رغم تحذير
ابي خليل ، فاعتذرت ام انيس بسبب اشغالها ، واكتفت بابلاغ
النبا ، دون ان تعطي اي تعليق من عندها . وقد اقلق الخبر
جميع من في البيت ، ماعدا اثنين ، هما فياض الذي كتموه عنه ،
والكنة التي غاب عنها سبب القلق في خبر كهذا .

وانتظر الجميع حتى المساء فلم يأت الزائر .. عندئذ قال
ابو خليل :

- المسألة مشبوهة .. يجب تدبير مخابر آخر لفياض .

ولطمت ام خليل خديها وسألت :

- عرفوا بوصول فياض الى بيروت ؟

فرد عليها خليل :

- لا تستعجلي ..

وقال الاب :

- اذا كانوا قد عرفوا ، فالسبب هو لسانك .

وقالت ام خليل :

- لساني ؟ انا لم اخرج من البيت .

ولكي يتأكدوا من الخبر ، ذهب ابو خليل الى الفران ،
ثم لحق به خليل ، وقامت الام في اثرهما ، وبدأ الثلاثة نحريراتهم ..
فأفاد الفران ان شخصا يركب سيارة ويضع على عينيه نظارات
سود ، (وهذه الملاحظة رد على استيضاح الاب) سأل فعلا عن
خليل . واقسمت ام انيس انها رآته بعينها الاثنتين ، واعطت
اوصافه جازمة انه غريب لم تره قبل الآن .

وقال خليل وهم في طريق العودة :

- ربما سأل عني لتصلح الهاتف .

واضاف موصيا امه :

- اذا سألتك ام انيس عن فياض ، قولي لها جاء للمعالجة .

فقال ابو خليل :

- بل قولي لها سافر .

- وكيف اقول لها سافر وهو في البيت ، وستراه كل يوم؟

- لن تراه بعد اليوم .. سيظل فياض في الغرفة الداخلية ،

ولن نفتح مجالس عندنا .. اغلقنا المقهى ، ... فهمت ؟

- كما تريد .

ولاحظ خليل :

- ليس الى هذا الحد .. المهم ألا يعرف الغرباء .

- لا بد أن يعرفوا مع الايام .

- فياض لن يبقى عندنا .. اتركوا هذا الحديث الآن .

دخلوا البيت في وجوم . لم تقل أم خليل شيئاً على المائدة . كان واضحاً لفياض انهم ينصتون لكل حركة في الخارج ، ولكنه لم يسأل عن شيء ، بل عاد الى غرفته الداخلية ، حيث وافاه خليل ، وابلغه انه ذاهب في شغل ، وغادره وهو في حيرة من أمره . ظل فياض واقفاً وسط الغرفة ، لا يدري ماذا يفعل .. فهم من تلميح صديقه خطورة وضعه ، واذا كان خليل لم يتكلم كثيراً في الموضوع ، فلأن المسألة واضحة ، ومن المفروض ان يعرف انه في مخبأ ، وان يقدر الظروف .

«بليتك يا فياض انك من جماعة الكتب . ليس للقلم خطر في مجتمع لا يقرأ الا قليلا ، ولكن للقلم ضجّة ، انك في بيروت ، وأنت كاتب ، وستعزى كتابات كثيرة اليك ، وهذه الكتابات ستضايق الذين في بلدك ، وسيحتجون ، وفي لبنان يقبلون الاحتجاجات على امثالك . أنت في « كرم الزيتون » وليس في شارع الحمرا ، وغمامة الحرية ، لا تفيء على الحين بنفس المقدار . مفهوم الحرية لا يشملك ، بل حق اللجوء لا يشملك . أنت مطارد ، هنا وهناك

وفي كل مكان مطارد . « ستكونون ملعونين من جميع الأمم لأجلي ، الترجمة خطأ ؟ حسناً ، من جميع .. مفهوم .. ولكن هذا لا يبدل من وضعك شيئاً . أنت مطارد .. اسمك في اللائحة وأنت مطارد .. قل ما شئت ، يبقى الامر واحداً : أنت مطارد .. اللوائح ، لا تتبدل بالنسبة لأمثالك ، يضاف اليها ولا يشطب منها ، اسمك لن يشطب ، وحتى لو كنت تنام وتنظر في السقف لن يشطب ، واللوائح تنام ، ولكنها تستيقظ أحياناً .. تستخرج من الأدراج ، للهوثة ، للتلميع . وحظك - إلعن حظك - جاء بك في وقت تلميع اللوائح ، وعلى اسمك أشير بالقلم الأحمر ، وأنت لا قبالي ، ربما لا قبالي ، ولكن اصدقاءك يبالون ، لا يريدونك صيداً لسنارة الضجة فيما لو بلغت طعم المظاهر .. انتظر .. لو كنت في شارع الحمرا لضع ، في والغرف تضيع ، في المصاعد تضيع ، وبين الطوابق تخرج وتنزه ، لكنك في كرم الزيتون ، وفي بيت أبي خليل ، في غرفة مكشوفة الزوار ، ولعجائز الحبي ، وللمارين في الشارع » .

خلع ثيابه واندس في الفراش .. عليه أن يستلقي وينام ، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يستطيعه الآن ، ولكن النوم لا يأتي .. هو يعرف انه لا يأتي ، فأعصابه متبهة ، ولن ينفعه اغماض العينين ما دام عقله متيقظاً .

ومن حوله آوى الجميع الى مضاجعهم . نامت الكنة وصغارها

في الغرفة الخارجية ، وابو خليل وأم خليل وبعض الاولاد في
الغرفة الداخلية ، وصلت العجوز قبل النوم ، فتظاهر هو بأنه اغفى ،
وغطى وجهه باللعاف .. لكن العجوز ، وكان فراشها الى جواره ،
لم تنم قبل القيام بآخر تفقد ، وحين جاء دوره اقتربت منه ، ورفعت
الغطاء عن وجهه وسأله :

- بماذا تفكر ؟

- لا أفكر بشيء .

- ولماذا لم تنم ؟

- سأنام ..

- نعم بسرعة .. لا تفكر بشيء ..

وبعد أن رسمت الصليب لآخر مرة عادت اليه وقالت :

- لا فائدة من التفكير .. الذي يضع يده في الماء الساخن

يحرقها .. المثل لا يكذب ، و ..

فصاح ابو خليل الذي رفع رأسه من تحت الغطاء :

- يا قديسة بربرة .. يا سيدة حريصا .. كفى مواءظ !

- مواءظ ؟

- اي نعم مواءظ ! .. ألا تتركين الولد ينام ؟ . أما

قلة حياء !

- انزعجت ؟ . نعم أنت .. لو كنت أما ..

- الحمد لله انني أب .. لو كنت أمّاً مثلك قتلت نفسي
(وجلس في فراشه وأضاف) :

- افهميني يا حرمة .. ألا يوجد في الدنيا امهات غيورك ؟
قولي .. كيف سيقضي فياض ايامه بيتنا ؟ لماذا لا تحلين عنه ؟ هل
تضطرينه الى تسليم نفسه ؟ مصيبة !

قالها وعاد الى النوم ، فتراجعت هي عن فياض ، ورسمت
الصليب مرة اضافية ، واطفأت النور فساد الظلام والصمت
البيت كله .

- ٦ -

اضطر فياض الى قضاء اسبوعين في هذا الجو المشبع بالقلق
ونقيق العجوز .

كان البيت يتألف من غرفتين ، او غرفة واحدة مستطيلة
جعلها قسمين جدار فيه فتحة كبيرة سدها خزانة ، اضافة الى مطبخ صغير
ومرحاض يستعمل كحمام ، وحديقة على امتداد الغرفتين تليها
الطريق مباشرة ، وكان على فياض ، لكي لا يراه احد من الخارج ،
ان يغلق النافذة الوحيدة في غرفته ، او يسدل الستارة نهارا ، ويظل
الباب الفاصل بين الغرفتين مغلقا بصورة دائمة ، لا يسمع لغريب
بولوجه .

وقد عرف فياض ، منذ وعى الضرورة لاختبائه ، ماذا
يعني العيش في ظروف الحياة السرية بالنسبة لانسان مثله .. كان
يتألم بصمت وعجز وشعور بالحياة . يذكر اخوانه الذين في السجن
والذين يعملون في الحفاء ، ويستعيد كلمات خليل « كان عليك ان
تصمد اكثر ، فيستشعر الندم والانكسار ، ويغضب لخروجه من
وطنه ونزوله ضيفا على هذه العائلة الفقيرة . واذ تمر الايام ، دون
خبر جديد ولا امل جديد ، يهبطه طول الانتظار ، فيصف نفسه
بالضيف الذي لا يعرف متى يرحل ، ويقول : « اتعس انسان ،
الضيف الذي لا يعرف متى يرحل ، فيبتسم خليل ويقول له : « اصبر ،
انت لا تستطيع الظهور في الوقت الحاضر .. يجب ان تعيش في
مخبا ، او تبشر عملا يبعد عنك الشبهة . »

وذات مساء ، وكان الضيق بفياض قد بلغ ذروته ، قال لخليل :
— انا مستعد لمباشرة اي عمل لا اظهر فيه على حقيقتي ولا
يعرفني احد .. لو كنت اعرف انني ساعيش متواريا ، متطفلا على
موائد الآخرين ، لما خرجت .

فقال خليل في نفسه : « انت لم تفكر بهذا لانك لم تجد
الوقت للتفكير .. كنت مستعجلا للخروج والنجاة بنفسك ..
وانا الذي كنت اقرأك واعجب .. كم تساوت هل يكتب ما

هو مستعد للتضحية في سبيله ، ام ان الكتابة لا تكلفه شيئاً في الوقت الحاضر ؟ ،

وقال له :

- انت لست متطفعلاً على مائدي .. انت صديقي .. وانفرض انك متطفل ، وان الظروف وضعتك في هذا المأزق ، فهل تبحث عن المخرج في مأزق آخر؟ أتريد أن تسلم نفسك؟ قل لي بصراحة .. تستطيع عندئذ ان تعود الى بلدك دون أن يزعجك احد .. ولكنك تتخلي عن قضيتك ، تخونها ..

فاحمر فياض وقال في نفسه : « لماذا يطرح المسألة بهذا الشكل ؟ لماذا هذه الافتراضات ؟ وكيف يبني عليها هذه الاستنتاجات ؟ ،

- لو كنت انوي تسليم نفسي والتفريط بقضيتي لما تركت عملي واختبات وتشردت .

قال خليل :

- تريد الصراحة ؟ أنت فعلت ذلك خوفاً من السجن .

فصاح فياض :

- لا تتمني بالجن . لا تتسرع . من يترك عمله ، ويتشرد في سبيل افكاره لا يفرط بقضيته .

فركز خليل نظاره عليه وقال صارماً :

- كل شيء يتوقف على الصمود .. بعد البطالة والتشرد ،
وحتى بعد السجن نفسه ، يبقى الصمود اساس الموقف .. اصمد ..
أتفهم ؟

وأخرج الباكي وقدم له سيكارة فاعتذر . « أواه يا فياض !
حتى شكائك لا تفهم . خروجك من وطنك يفسره صديقك بالجن ،
ورغبتك في العمل بالضعف ، وكل تصرفاتك بالطيش .. أكانت
خليل يقف هذا الموقف في غير هذا الوضع ؟ »

واضاف خليل دون ميل الى التلطف :

- لاتزعل مني .. تتعذب ؟ واضح .. كثيرون يتعذبون ..
كثيرون يتركون اعمالهم ويتشردون ، يدخلون السجن ويخرجون ،
وقد يدخلونه مرات ويخرجون .. ثم يفرطون بقضيتهم فما السبب ؟
فكر .. انهم يفتقرون الى روح المثابرة ، ينقصهم الصمود امام
المصاعب الصغيرة احياناً .. التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع
الناس مناضلون ، وربما ابطال !

لاذ فياض بالصمت منزعجاً من عموميات خليل وبدهياته
التي يعرفها ، وقال في نفسه « لا يريد ان يفهم دوافعي من الرحيل
عن هذا البيت ولا يثق بي .. انه لا يثق بالمتقنين ، »

- انا لا استطيع البقاء جيداً ، كسيحاً اكثر بما فعلت ..
علي ان اعمل .. ان ادخل تجربة المصاعب التي تحدث عنها ، ومستوى

بعدها .. ساعدني فقط في الحضور على عمل ، وليكن عملاً جسيماً ،
بعيداً عن الصحافة وجوها .. وسأكتب بعدئذ ، سأكتب مجاناً وباسم
مستعار .. سأحقق هدفي من خروجي من الوطن ، وأشعر بالراحة
والعافية . سأكون في هذه الحال ، مع اخواني ، وسأعيش افكاري .
اما هنا فانا بعيد عنهم ، معزول عن قضيتهم ، غريب عن مشاعرهم ..
ثم لا بد ، اليوم او غدا ، من الخروج .. فكر انت ايضا ، فكر
يا خليل ، لا تدبجني بمواعظك ! ،

قال خليل :

.. فكرت كثيرا ، ولكنك لا تقبل الاشياء الا من
وجهة نظرك .

— وسأقبلها من وجهة نظرك أيضا

— فاذا قلت لك ابق هنا في الوقت الحاضر ؟

اللعنة ! كان يحسب ان صديقه سيقترح عليه عملاً ، سينصحه
بالعودة الى وطنه والصمود كالأخرين ، ولو اقترح ذلك لنفذه .
السجن لا يخيفه الان .. الغربة اقسى من السجن ، واقسى منها البقاء
في بيت مكشوف كهذا ، لا يستطيع فيه حتى الذهاب الى المراحيض
نهاراً ، ولا يستطيع ان يكتب ، وليس معه من المال ما يضمن
نفقاته البسيطة .. وهاهو خليل يدعوه الى الاستمرار في هذا
الوضع ، مع علمه انه لا يحتمل .

وقال في نفسه وهو يتظاهر بالموافقة : « سأبقى بين هذه
الجدران ، ادور فيها كحيوان في قفص .. لماذا خلقت حساسا الى
هذا الحد ؟ يا نعمة البلادة اهبطي علي ، يا صبر خليل ، يا صبر
معلمي الذي فتح عيني على الحقيقة والشقاء ، واتمنى اني ايضا . »
لاحظ خليل :

— اراك غاضباً ؟

— وهل تريدني راضيا وانا اهدر وقتي بما لا يفيد ؟

— كل شيء مفيد .

— ليس كل شيء .

— بالطبع ولكن الذي نفعله مفيد .

— انا اتعذب دون فائدة .. دون طائل .

— انت تدفع الثمن !

— وما هو الثمن الذي ادفعه ؟ انا لا أدفع شيئا ..

انا طفيلي .

قال خليلي :

— دع عنك هذا .. لو كنت طفيليا ماشعرت انك طفيلي .

واضاف دون انجراف في تيار الملاحظات :

— انت تدفع ايضا .. تدفع من صبرك . تمرن على الصبر ،

هذا هو الألف باء .. كن سعيداً ، اكتب .

- جربت فلم انجح :

- جرب مرة اخرى .. العمل هو الدواء .

- وددت لو كنت اعمل .

- ستعمل .. لا تستعجل .

رنا اليه وقال :

- وطن نفسك على ما انت فيه .. انس الماضي قليلا .. لا

تقل كنت وكنت .. الذكريات الحائرة تزيدك سوءا .

صاح فياض :

- لا تقس علي .. لا استطيع .

وقال خليل :

- اعرف ، ومن اجل هذا تجنبت الحديث عن واقعك

قبل الآن .

- لكنك لا تقدر كم هو واقع مؤلم .. فكر بحالي

يا خليل .

قال خليل متأثرا :

- انحسب اني لا افعل ؟ اقدر وضعك تماما ، ولكنني لا

أجد عنه بديلا ..

واقترب منه و اضاف :

— لا تزعل .. انس كل ما قلته لك .. ولكن لا تنس
ان تتقبل واقعك وتتغلب عليه .. اذكر ان واقعك هذا جيد
بالنسبة لواقع امثالك .

ورق صوته وهو يضع يده على كتف صديقه قائلاً :

— يا فياض ، يا عزيزي ، هذا البيت ، على ضيقه ، واسع
جدا بالنسبة للبيوت التي عاش فيها أمثالك سنوات .. تذكر هذا ..
تذكره فقد يفيدك .

وخيم صمت ثقيل ، قطعه فياض قائلاً :

— اعرف ذلك ، اعرفه ، فانا ، على الاقل ، ارى الشمس ،
اما انت ..

— انا ماذا ؟

— انت من ذلك الجيل .

وقال خليل وهو ينهض :

— كفى ، كفى ، قلت لك لا تذكر الماضي كثيراً .

قالها وغادر الغرفة مسرعاً ، ليلحق باجتماع عمال الهاتف الذي
يبعث قضية الاضراب .. بينما ظل فياض يلاحقه حتى غاب ،
وعندئذ تمثله كيف كان قبل خمسة وعشرين عاماً .

كان خليل فتى جميلا في ذلك الحين .. كانت له دراجة ..
كانت عتيقة ، ولكن ماذا يهم ؟ لم يكن في الحي سواها ، ولم
يكن في الحي من يقرأ ويكتب سواه ، وكانت بنات الحي ترغب
فيه ، ولكنه لم يفكر بالزواج : امه قالت انه لا يفكر بالزواج ،
فاسفت لذلك البنات . وكانت ام خليل على بقية من ملاحه ، وابوه
كهلا وصاحب عربة يجرها حصان عجوز ، متهدم ، مثل العربة
ناقلة الحبوب والحجارة وكل ما تبصر . وكان فياض واترا به من
اولاد الحي ينتظرون في الاصبح ، خروج ابي خليل بعربته ،
ليتعلقوا بها ، او ليركبوا في صندوقها الحشبي ، وكانوا سعداء
بذلك ، رغم ارتجاج العربة ذات الدواليب الحديدية على الطرق
الحجرية ، وارتجاج اجسامهم الصغيرة كأنها مربوطه الى اسلاك
كهربائية . وكانوا يقولون في المدرسة :

- جئنا اليوم في عربة !

ولأن ابو خليل صاحب عربة ، و خليل وسعيد والديه ،
استغرب اهل الحي ، ذات صباح ، ان خليل اعتقل وارسل مع
بعض العمال الى حلب ، لانه - حسب تعبير أمه - « وضع يده في
النار » . ولما سأل فياض والده عن سبب اعتقال خليل قال :

- لانه سنديكاتو ! (١) .

ورسمت امه شارة الصليب ، وكفا عن الحديث .

ولم يفهم فياض شيئاً ، ولكن اخته الكبيرة ، بكث
بدموع غزيرة ذلك المساء ، لان فستانها الاحمر ، فستان العيد ،
اخذته البوليس من بيت « فدوكيا ، الحياطة ، كدليل جرمي على
ان عفيف - شقيق الحياطة - اشترك في تعليق الاعلام الاحمر على
اعمدة الهاتف في اول ايار .

وقال الناس ان البوليس سيكبس الحمي كله ، بحشاً عن
الفساتين الاحمر ، وعندئذ حدثت ضجة عامة ، واحترار الجميع في أمر
ثيابهم ذات اللون الاحمر ، ودون ان يتوقع احد ، نبقت ام بشير
وقالت :

- انا اخفيها عندي .

فصاحت بها اختها أم خليل :

- انقبري .

لكن ام بشير ، العاملة في ورشة توضيب عروق السوس ،
والارملة التي تعيل خمسة يتامى ، كانت جادة في قولها ، وهذا ما احق
اخذها عليها فوصفتها بالجنونة ، وانتهرتها ، ولم تأبه هي لذلك ، بل
زادت من تحديها ، فلبست فستانا احمر - وقيل انها فعلت ذلك نكابة

(١) اي له نشاط نقابي ، والسنديكاهي النقابة .

باختها - وتطوعت لا يصلح الطعام الى السجناء قبل نقلهم الى حلب ،
واختلفت النساء ، وربما بعض الرجال ، في أمر شجاعتها او جنونها .
اما فياض فقد اهتم باخفاء الكرايس التي اخذها من خليل
قبل مدة .. كان يعود من المدرسة ، فاعترضه خليل ، وسأله عن معنى
«اللامبالاة» وكان يلفظها موصولة ، ساكنة الميم ، مشبعة اللام الف ،
فارتبك فياض وخجل ، وسقط في أول امتحان له خارج المدرسة ،
فقال خليل « لانهم » ، هذه كلمة صعبة . هذه فلسفة ! « وود فياض
ان يعرف مامعنى الفلسفة ، لكن خليل لم يشرحها ، لأنه كان يفهم
الفلسفة على انها فلسفة والسلام . ثم جاءه بكراس ، فقرأه فياض
بسهولة ، دون ان يفهم اكثره ، فتطوع خليل لايضاح ما استطاع ،
واخبره انه هو والعمال يقرأون هذه الكرايس الممنوعة ، في مغارة
بعيدة في الجبل .

وقال فياض مدفوعاً بسحر اللوحة :

- في الجبل ؟ خذني معك لأقرأ لكم .

قال خليل :

- ليس الآن .. حتى تكبر .

واضاف :

- نحن نذهب الى هناك في الليل .

- وكيف تقرأون في الظلام ؟

فاخرج خليل ، باعتداد ومصرية ، شمعة من جيب ستروته

وقال :

- نقرأ على ضوء هذه . .

ومنذ ذلك اليوم ، غدت « المغارة والشمعة والعمال الذين يقرأون الكراريس في الجبل » لوحة منقوشة في ذهن فياض ، لوحة غريبة ومثيرة الى درجة انه كان يراها مرسومة على كتبه وجدران المدرسة والبيت .. فلما اعتقل خليل ، وشاع ان الفرنسيين عذبوا المعتقلين باقتلاع اظافرهم واجلاسهم على « الساج » المحمى ، خاف الناس على انفسهم ، وخشوا كبسة البوليس لمنازلهم ، فحمل فياض الكراريس ودفنها في الحديقة ، وجاء المطر قبلها ، وكان له ، من ثم ، شغل شاغل ، هو ان يصاح هذه الكراريس في الحفاء ويحفظها حتى يعود خليل فيسلمه اياها .

وعاد خليل بعد عام ونصف من حلب .. عاد اسطورة ابن منها اسطورة الفساقين الحمر « والمغارة والشمعة » و « السنديكاتو » التي لا يفهمها احد .. صار له شاربان ، وعلى يده وشم ، وفي نظراته رجولة ، وعلى لسانه كلمة جديدة :

- الاشتراكية !

فقال الناس بعضهم لبعض :

- وايش هي الاشتراكية ؟

- من يدري !

وتذكر فياض كلمة خليل ، وقال بصفته ابن مدرسة :

- هذه فلسفة !

- وايش هي الفلسفة ! ؟

فلم ينبس بحرف .

ولما امتعصى الجواب ، وكانوا يجلسون تحت التوتة ، قال رجل يعطي لحديثه صفة الحكمة :

- سبحان الذي يفتح قلوب الناس .. خليل كان مثلنا ، وبعد سنة ونصف في حبس حلب صار فيلسوف ..

فقال رجل آخر ، بنبرة تعظيم :

- .. وتعلم القراءة والكتابة !.

على ان الاعجاب بخليل ، لم يمنع الناس من تحاشيه ، لأنه مشموس ، وبسبب حاجتهم اليه ، لكتابة الرسائل أو قيد الحسابات والديون ، عادوا يختلطون به ، ثم انكسر ، شيئاً فشيئاً ، جو الرهبة . زال الحذر والتردد ، وازداد ، في المقابل ، انتشار الكلمات الصعبة ، وكان اصعبها ، على الاطلاق - حتى في نظر فياض - كلمة البروليتاريا ، فقال خليل محاولاً ايضاحها :

- تعني الحكام في بلاد المسكوب .

- ولماذا في بلاد المسكوب يا خليل ؟

- لأن العمال والفلاحين يحكمون هناك .. المعامل لهم ،
والأرض لهم .

- يارب ! .

- صدقوني .

- ومتى يصير عندنا مثلهم ؟

- حتى ينكسر فرانكو .

- ومن هو فرنكو ؟

- رئيس الفاشيست في اسبانيا .

- ومن هم الفاشيست ؟

ففكر خليل وقال :

- الفاشيست جماعة فرانكو .

فقال رجل للحاضرين :

- هل فهمت شيئاً ؟

واجابوا بصوت واحد :

- لا والله ..

وامتعض خليل لهذا الجواب ، ومال الى شتمهم ، لكنه

لاذ بالصمت ، وأرسل هذه الأمنية في ذات نفسه : « لو بقيت مدة

اطول في حبس حلب ؟ . »

كان يحسب ان سجنه هذا ، هو الأول والأخير ، وانه لن

يدخل السجن حتى تتحقق الاشتراكية بعد انكسار فرانكو ، ثم
جاءت الأيام تصحيح هذا الخطأ .

اصبح يدخل السجن في كل وقت ، وصار الاشتراك في
المظاهرات والاضرابات جزءاً من حياته ، وقد جرح في مظاهرة ضد
قتربك اللواء ، وفي النهاية دخلت تركيا اسكندرون فهاجر مع عائلته
الى بيروت ، وهناك تزوج ، وصار له اولاد ، وصارت أمه عجوزاً ،
وأبوه شيخاً ، وصار هو كهلاً ، وظلت صورته منطبعة في ذهن
فياض على نحو ما كانت عليه في لوحة « المغارة والشمعة والعمال
الذين يقرؤون الكراريس الممنوعة في الجبل » . وقد هتف ، وهو
يتذكر كل ذلك : « ايه خليل ، يا معلمي ، ألم تتعب بعد ؟ . »

— ٨ —

رجع خليل باكراً الليلة ، وقد حزر فياض ان وراء عودته
المبكرة خبراً ، وبعد العشاء سأله عن نتيجة اجتماع عمال الهاتف ،
فقال :

— لم يتقرر شيء ..

— وما رأيك أنت ؟

— الموقف دقيق .. ولكن العمال يشسوا ..

وأضاف في نبرة شكاة واحتجاج :

- أربع ايرات في اليوم ، وعطلة الأحد والأعياد محسومة ،
ولا ماذونية او طبابة .. ومنذ عام وهم يماطلون .. يرفضون تثبيتنا ..
يخدعوننا .. يقولون : غداً ، وبعد غد ، وبعد شهر .. والنتيجة !؟
- الاضراب ؟

- احسب ان هذا سيكون ، ولكن ليس الآن .. ليس الآن ..
لم نستنفد وسائلنا بعد .

وأضاف وهو يهد الخبره :

- على كل مستقراً ما يجد في الصحف .

- ولماذا في الصحف ؟

- لأنك ستغادرنا غداً .

قالها وصدق فيه ليرى وقع المفاجأة ، ثم اضاف :

- ابليت الاصدقاء انك في وضع صعب ، وان البيت

مراقب ، فاهتموا للأمر ، وأرادوا تأمين مكان آخر لك ، فقلت
انه يفضل أن يعمل ..

بان الارتياح في وجه فياض وسأل :

- وماذا قالوا ؟

- دهشوا ، ولكنني أكدت لهم رغبتك وتصميمك وضرورة

التجربة .

- وما هو العمل ؟

- ما رأيك بكاتب في أحد المطاعم ؟

- ولماذا كاتب ؟ أفضل أن أكون مستخدماً عادياً .. هذا أفضل في التمويه .

- كاتب من قبيل التغطية .. أما في الواقع فانك ستعيش في المطعم .. تأكل وتنام أيضاً .

- أفضل أن أكون مستخدماً ، ذلك اضمن للسلامة .

- تستطيع أن تتفق مع المسؤول هناك .. وهو صديق كما قيل لي .. قم الى النوم ، وغدا صباحاً أرافقك .

* * *

في الصباح رافقه الى ساحة الدباس ، وقال له :

- قف هنا يا فياض . لا تتحرك من مكانك ، وسيأتي شخص ويسألك « انت من عند خليل ؟ » فقل : نعم ، واسمي ميشيل ، وهو يعرف كل شيء .

تركه ومضى دون أن يضافحه أو يلتفت الى وراء .. بدا كأنه مارس مثل هذه المواعيد كثيراً ، فقال فياض في نفسه « لكم تبدو الاشياء طبيعية بالنسبة اليه ! » . وتابعه وهو يدور بين السيارات المنشالة الى ساحة البرج في خطوط طويلة ملونة وغير

مستقيمة . حتى اذا غاب تذكر انه لم يسأله عن شكل الشخص ،
وما اذا كان يعرفه ، واستنتج : « لو كان ذلك ضروريا لقاله بنفسه » .
جعل ينتظر متلهيا بالتفرج على انماط الناس المتقاطرين على
الساحة من كل المنافذ المؤدية اليها . كانوا يأتون مشيا ويقفزون من
الباصات والتاكسي والترام ، ويتراكمون في اتجاهات شتى ،
بعضهم الى اعمالهم ، وبعضهم الى وسائط نقل غير التي
جاؤوا بها .

وكانت الساحة كقرية نخل بشري ، والضجيج من حوله
على اشده ، والازياء تتكاثر وتبائن .. الطربوش والقبعة والملاية
اللف والديكولتي . فقال في نفسه : « باريس لا تسبق بيروت في
الموضة » وتساءل : « أيكون الشخص القادم الي بطربوش ام
قبعة ام حاسر الرأس ؟ وكيف سيعرفني وسط هذا الحليط من
الواقفين والدارجين على الرصيف ؟ »

ود لو كان في غير هذا الموقف ليستمتع بهذا المعرض ،
وتمنى لو كان حرا لينحدر الى ساحة البرج ، ويتوقف امام الواجهات ..
وعجب لماذا كان في الماضي يسير مسرعا ولا يتوقف امام الواجهات ،
ولماذا لم يكن يسير على الاوصفة متمهلا ، مدققا ، متأملا كل
شيء بمثل الفضول الذي هو عليه الآن .

ابصر شخصا سوريا فادار وجهه ، خيل اليه انه من دمشق

وانه يعرفه ، ثم رأى شخصاً لبنانياً من اصحابه فتظاهر بانه يقرأ الاعلان الملون الملصوق امامه على عمود الكهرباء ، حتى اذا مر الرجل عاد الى وقفته السابقة ، وفكر : « متى يأتي الشخص الموعد ولماذا لم اسأل خليل عن الموعد بالضبط ؟ »

قام في ذهنه ان هذا الشخص سيأتي فوراً ، وحسب أولاً انه سيكون في انتظاره ، ولم يسأل خليل خجلاً ، وها قد مضت عشرون دقيقة ولم يصل ، فماذا لو نسي الموعد ، قال في نفسه : « المكلفون بمواعيد من هذا النوع لا ينسونها » لكنه عاد فقال : « الانسان عرضة للنسيان » واردف : « الغائب عذره معه .. » وارجو الا يكون قد وقع له ما اخره .

و كراكب الطائرة لأول مرة ، اخذ مرور الوقت يبعث في نفسه الطمأنينة ، لكنه لم يستطع ، برغم يقظته ، ان يمنع ذهنه من الشرود في أثر هذه أو تلك .. تمثل يديه على خصر ، واحس بالظماً ورفع رأسه الى فوق .. كانت غيوم بينها فجوات زرق .. واشتهى ان تمطر ، ان يعصف شيء ما بهذا الكون ، ان يكون في غابة ، يسير ويسير ويقتات من الثمار البرية ، ورنّا الى البحر ، كم يكون جميلاً لو سار حافياً ، كمتشرد حقيقي ، فوق الرمال ، وماذا لو ركض والقى نفسه في الماء وبقي في احضانه طويلاً ؟ آه لو ينسى كل شيء ، ليوم واحد على الأقل .. تتم حاقداً « الدنيا واسعة

فلماذا تضيق في وجوه امثالي ؟ ، ثم صر باسنانه متوعداً شيئاً
غير منظور .

توقف اتوبيس على مقربة منه ونزل جميع من فيه . كانت
تلك هي المحطة الاخيرة ، فقد ر ان الشخص سيأتي من هذا الاتجاه ،
وراح يرصد الاتوبيسات . . . كان يبحث عنها من بعيد ، وتعلق
عيناه بها وهي تتقدم ، وما ان يقف اتوبيس حتى يقول هذا ، وينزل
الركاب ولا احد يتقدم منه ، فتعز اعصابه وتكهرب ، ويلاحظ
ذلك فيعمد الى الضغط الداخلي ، ويتسم في سره ويقول : « هل
هذه هي المصائب الصغيرة التي حدثني عنها خليل ؟ ،

تتابعت الاتوبيسات . . تأتي ، وتقف ، وتمضي ، ونظر
في ساعته : « ساعة كاملة ولم يأت احد ، فماذا افعل ؟ ابقى ام
أعود الى البيت ؟ خليل قال لا تتحرك . . وانا لم اتحرك . . منذ
ساعة وانا مصلوب على خشبة الانتظار ، فماذا يعني هذا ؟ وهل بقيس
خليل الناس كلهم بنفسه هو الذي يستطيع ان يقف وقفتي هذه على
رجل واحدة من الصباح الى المساء ؟ ،

في السماء ضاقت الرقع الزرقاء ، وامامه نبت فجأة رجل ،
فهتف في سره : هذا هو ! وقال الرجل : « معك ولاعة ؟ ، ورأى
السيكارة في فمه فمز رأسه نفياً ، واشاح بوجهه ليصرفه ، بيد ان
الرجل صعد الى الرصيف ووقف قربه ، فتزعزع فياض عن مكانه

قليلاً ، ليراقب الرجل ، وقال في نفسه مهتاجاً « ماذا يريد ابن الكلب ؟ » وسرعان ما جاء شخص آخر ، وذهب الاثنان ، فارتاح فياض وقال : « هذه هي المواعيد المضبوطة » ونظر في ساعته للمرة الخامسة ونفخ ، واستند على عمود الكهرباء .

وقع اصطدام في الطرف المقابل للساحة فهرع الناس وتوقف السير وتعرقل ، وجاءت على الاثر سيارة الشرطة وهي ترسل زعيقاً حاداً .. وراحت حبال السيارات تتشربك وتتعلقد ، وأصبح المرور متعذراً ، فطفق المارة يدورون حول السيارات ، ويتخطونها ، وتوقف الأوتوبيس على مرمى النظر منه فتعلقت انظاره به ، وانطلقت جوقة زمامير السيارات ، والشتائم ، وتعليقات الناس ، وتحرك كل من حوله ، وزحمة المارة فنزل عن الرصيف ، وصعد اليه ، والتحمت الغيوم تماماً في السماء ، ولكن المطر لم ينزل ، والغابة بعيدة والبحر بعيد ، وهو في قلب المدينة ، وعلى موعد مع مجهول ، وامواج السيارات تتدافع حتى اصبحت تلامس حافة الرصيف .

انحلت عقدة السير بعد قليل ، وشرعت الخطوط تستقيم ، والساحة تفرغ ، ووصل ثلاثة اوتوبيسات ، وبدأ الركاب يقذفون بأنفسهم ، وهو يراقبهم ، ومشى رجل باتجاهه ، ونظر اليه ، واقترب حتى دانه ، ثم تجاوزه ومضى ، فتركه وراح ينظر الى بقية الركاب ، لكن صوتاً نسائياً جاءه من الجهة الأخرى :

— صباح الخير استاذ !

التفت الى مصدر الصوت ، فرأى فتاة سمراء ، نحيلة ،
تقف الى يمينه ويدها حزمة ، فتعتم بالتحية دون وعي ، وتفرس فيها
متسائلا : « من تكون ، ؟ فقالت الفتاة :

— انت من عند خليل ؟

— نعم واسمي ميشيل .

فابتسمت له وقالت :

— المعذرة .. بيتي بعيد ، والمواصلات صعبة ..

تأخرت قليلا .

سار الى جانبها وهو يقول :

— لا يهم ..

— تضايقت ؟

— ابدأ (واحس بالجل)

— الحق علي . وابتسمت ، فعاد يقول :

— لا يهم .. شكراً على كل حال .

وقادته باتجاه البرج ثم باب ادريس ، وانقشع الغيم قليلا في

السماء ، ونظر الى الفتاة وقال في نفسه : « تعلم الصبر يا فياض ... »

كن هادئاً مثل هذه الحسناء ! » .

* * *

في « مطعم الجبل » عرفته على الميتر وانصرفت .

— انت ميشيل ؟

— نعم ..

فابتسم الميتر مشجعاً ، ودعاه الى مكتبه الأنيق وأغلق

الباب :

— انا صديق ، وقد كلفوني بمساعدتك ، فماذا بوسعي ان

أعمل لك ؟ ما العمل الذي تستطيعه ، وما هي اللغات الأجنبية

التي تعرفها ؟

شرد فياض عن الجواب مشغولاً بخاطر ملحاح سيطر عليه :

كيف يكون امثال هذا الميتر من الأصدقاء ؟ وامام البسمة الودية

المشجعة ، والانتظار المتأني ، اقلت فياض من إلحاح الحاطر الوافد ،

ورد بلهجة يمتزج فيها الرجاء بالرغبة في الاقناع :

— لا أعرف أية لغة .. اريد عملاً عادياً ، في المطبخ مثلاً .

قتل « الميتر » ، خريج معهد الفنادق والمطاعم في باريس ،

شاربه الاشقر الصغير ، وقد فطن فوراً الى ما يريد فياض فقال :

— العمل في المطبخ صعب .

— دعني أجرب ..

— ولا يوجد فيه الا عمل مارماتون .

— يوافقني .

– ولكن اتعرف ماذا يعني ؟

– أعرف .

ازدادت البسمة الودية انتشاراً ، وتحولت الى نهكم خفيف
في النظرات . واخيراً قال المتر :

– ما أظنك تعرف .

– بلى ، سبق لي ان عملت في المطبخ . .

قالها خائفاً ان يسأله أين وكيف ، وتحاشى النظر اليه ليغلق
باب الاستيضاحات ، فقال المتر بجسم :

– كما تريد .

– ٩ –

منذ وصوله الى مصلحة الهاتف قال خليل للعالم الذين
اجتمعوا به :

– رأيتم حول البناية . . . لسوف يراقبوننا ، وهذا
طبعي . .

– قد يعتقلون اعضاء اللجنة .

– لن يعرفوهم . . وأنا استبعد الاعتقال الآن . .
الامر لا يتعدى المراقبة والازعاج .
– وكيف نجتمع ؟

– ٥٨ –

- كما كنا نجتمع .

فقال رئيس اللجنة :

- بيتي مراقب .

- تعالوا الى بيتي .. نستطيع الاجتماع في بيتي (وبعد

وقفة) لا .. الأفضل أن نلتقي خلال العمل ، وفي حالات الضرورة
نجتمع في اتحاد النقابات .. نحن نقايمون وليس لدينا أشياء سرية .

وقال في نفسه : « بلى . لدينا اعمالنا التنظيمية ، وهذه يجب
أن تظل سرية ، والتفت الى الداخل وأسر : « انت يا صاحب
العين الحولاء ، يا زميلي في العمل ، يحسن ألا تطلع عليها » .

تفرق اصحابه كل الى عمله .. ورفع هو جريدة الصباح الى
مستوى عينيه وراح يقرأ دون أن تستغرقه الاخبار المثيرة ، ثم لم
يلبث ان نهض ومضى الى النافذة في الطابق الرابع ، ووقف بشكل
موارب وعينه على باب البناية . وعبر الطريق كان ظل يرتسم على
الاسفلت ، وفي الزاوية ، عند رأس المنعطف ، كان ظل آخر
لرجل الامن ، والتقى الظلان ، وغابا في المنعطف ، ثم افترقا وعاد
الظل الاول يعبر الطريق عائداً الى مبنى الهاتف ، فعاد خليل الى
مجلسه ، ورفع الجريدة الى عينيه وقال في نفسه : « يتسقطون
اخبارنا .. فهل كانت العين الحولاء هذه تراقبني من الصباح ؟ » ،

ودخل الرجل الأحول وقال لخليل :

— اشتريت قهوة طازة .

« وبعث « قهوة طازة » لابأس .. سنعطيك مقادير منها للتضليل .. ستظل عينا لهم وستارة لنا .. مؤسف . عامل وعدو . كم من الناس أعداء ؟ فقراء ضد الفقراء ، وعمال ضد العمال .. مظلون ؟ نعم ، ولكن بعضهم يعمل عن عمد .. يهوذا لا يزال حيا بيننا . »

— احسنت « القهوة الطازة » لذيدة .

وأعاد رفع الجريدة الى عينيه وراح يراقبه « ينبغي تحذير أعضاء اللجنة منه » قلب الصفحة فطالعتة المحليات . قرأ ما هو مكتوب بخط كبير : « تحريض خارجي لاحداث البلبلة والتخريب » ونحته مباشرة .. « اعتقال بعض السوريين وتسليمهم الى حكومتهم والبحث جار عن آخرين . وقرأ في المتن : « عمال الهاتف يهددون بالاضراب ، الدوائر الرسمية تراقب محرضين من الخارج اندسوا بين العمال » .

قدارة ! طوى الصحيفة وفرك عينيه : « أرجو ان يكون فياض قد وصل الى مكان عمله بسلام » . وأضاف وهو يتابع حركات زميله صاحب العين الحولاء : « لو أوقفوه لكان حدثا مهما بالنسبة اليهم .. يستغلونه للدعاية : « الكاتب الفلاني يعتقل في لبنان ! » ولا يهم ما اذا كان يقوم بنشاط أم لا ، المهم اعتقال تقدمي لاثبات النشاط الخارجي ، أما الرجعي فيسرح ويمرح على هواه .. القطة ، برغم ما هو شائع ، لاتأكل صغارها ، انها ذكية بما فيه الكفاية . »

نمض الى عمله وهو يقول : « ونحن اذكاء أيضاً ، وفياض
افلت من الفخ ، لقد ذهب ليعمل . » وتابع بنوع من التأكيد
الصارم على الضرورة :

- نعم ذهب ليعمل .. ليدخل التجربة كما أوصيته .

- ١٠ -

وهل تعرف التجربة التي أوصيته بها يا خليل ؟ انظر :
المدرس ، الكاتب ، الابن المدلل لعجوز طيبة وبجار عتيق ، يعمل
مارماتونا الآن .. انه في المطبخ ، حيث اسلمه الميتر لرئيس
الطباخين . ولم يسأله احد عن هويته وآرائه ، لانهم يحتاجون هنا
الى العمل لا الى الآراء .

ولقد قبل فياض عمل « المارماتون » دون أن يعرف أي بلاء
هو ، وحين توالى عليه ، ظهرا ومساء ، اكداس الاطباق وركام
الملاعق والشوكات والسكاكين ، وغرقت يداه ، حتى الكوعين ،
بالدهن والزيت ، وخرشت انفه رائحة المحلول الخاص بغسل هذه
الأدوات ، ايقن أن غسل الأطباق في مطعم كهذا ، عملية مختلفة
تماماً عن البيت .. هنا العملية شبه اونوماتيكية ، والانسان هو
الآلة العصرية المستخدمة ... الساعدان ينقلبان الى زنديين آليين
رشيقين ، والانامل الى ملاقط سريعة ودقيقة ، والظهر يتقوس في
وقفة صنمية .

كان عليه ان يتعلم مهنة الجلي بجد وانتباه ، حتى يتقن الحفة

البهلوانية في اليدين والمطاوعة اللازمة في الاصابع ، فصار مع الأيام يتناول حزمة من الملاعق والسكاكين ، ويضع منشفة على ركبته ، وتبدأ هذه الادوات بالتساقط في الطست الذي تحت الركبة وكأنها طلقات متتابعة ...

ومع هذا كانت الأدوات واطباق الطعام تتراكم على الجلي . كانت اكوامها كجبال صغيرة ، مشوهة ومقرقة ، لا طاقة له على رفعها ، ولا قدرة ولا قابلية على غسلها ، فاذا تقدم الليل حاول بشيء من التأوه ان ينصب ظهره . ومهما بذل من حركة او جهد ، يظل عموده الفقري يابساً، ومخززالالم يحفر في فقراته ، حتى ليتمنى أن يجد من يدوس عليها بقدم ثقيلة . وبعد ان يضرب صلبه بقبضته . ضربات مريجة ، ويتنفس بعمق ، يعاود حني ظهره ، ويروح بنقل جبل الصحون ، بهمة العجوز الذي راهن جيرانه على نقل جبل الحجارة .. واذا يتمثل ذاك العجوز كان يتسم ، ويقول في نفسه : « جبل الحجارة ينقص ولا يزيد ، أما هذا ، جبل الصحون ! ؟ » غير انه في الساعات الأولى من الصباح ، حين تتوقف روافد النبع ، وينقطع توارداطباق ، كان يتلهظ شعور الراحة المقبلة ، ويخرج منتصراً من معركة جبله الخاص ، ويغمدو عناق النوم لديه حلوا كعناق الجميلة التي يحلم بها في ليالي الحرمان .

ولم يتوصل برغم هذا الكد الى ارضاء صاحبة المطعم ،

فاصدرت اوامرها باخراجه من المطبخ ليستقبل الزبائن على الباب .
ألبس البدة الخاصة بالمطاعم الراقية ، ووضعت القبعة المقصبة على
رأسه ، وصار ينحني للزبائن ، مطمئنا الى ان احدا لا يعرفه بهذا
الزي ، ووثاقاً أن احداً لن يطاله كذلك .. ثم لم يلبث الميتر ان
نقله الى الداخل ، فصار يقدم الطلبات الخصوصية ، ويتعرف اكثر
فاكثر على اقسام المطعم وخفائيه .

بدأ يكتشف الوجه الآخر للحياة والحقيقة في هذا العالم
الصغير والرهيب معاً .. عرف ان صاحب المطعم وجيه كبير من
جبل لبنان ، وان امرأته هي المالكة الفعلية ، وهي التي تدير المطعم
وفروعه ، وتعقد الصفقات وتصدر الارامر .. وكانت اوامرها
صارمة ، ولديها رجال مخصوصون للضرب والقتل ، ولهؤلاء مكان
خاص في المطعم ، ولهم طاولة محجوزة ، ومسدسات ومسكاكين
وسيارات أيضاً .

كذلك كان لفياض وزملائه مهجعهم الخاص ، فورشة
المطعم الكبيرة مجهزة ، في أقيمتها وملاحقها ، بكل مايلزم المؤسسة ،
متعددة الخدمات . وفي مهجع المستخدمين ، قبيل النوم أو في الصباح ،
يتحدث كل مستخدم عن قسمه حديثاً يشير فياض ويهره .
وكان حديث الجنس والقمار الاكثر اثارة ، وحين يروح احدهم
يروى ماشاهده وما سمعه من حركات البنات وأصواتهن وأوضاعهن .

يتشجع زملاؤه ويهمهمون كحيوانات مستثارة ، ويتظاهرون
فياض بالنوم وهو مرهف الاذنين كآلة تسجيل شديدة الحساسية .
ومع الأيام ، وضعت طبيعة العمل امام اللوحات الحية التي
كان يتصورها عن طريق السمع . وقد شهد ، ذات مساء ، اول
معركة بين الزبائن . . كانوا عشرة او يزيدون ، وفي شجار نشب
دون توقع ، حطم المتشاجرون الأطباق والاقداح وزجاجات
المشروب وأتلفوا أشياء ثمينة ، دهش فياض لرؤيتها محطمة على هذا
النحو الاخرق . وازدادت دهشته حين ظلت سيدة المطعم لا مبالية ،
وظل رجالها الذين تعلقهم لهذه المناسبات بمعزل عن المعركة التي كانوا
بحاجة اليها لتريض أجسامهم . وكان المتر من جهته يراقبهم ببلا
مبالاة معلمته ذاتها ، مستنداً الى الجدار كأنه يشهد عراكاً في فيلم .
وقد قال له فيما بعد ان هذه المعارك تتكرر هنا دائماً ، ونصحه بعدم
التدخل فيها .

— والخسارة ؟

— لا توجد خسارة . . لا شيء يخسر عندنا . . دعهم
يحطمون ما يريدون ، وفي اليوم التالي نقدم فاتورة الى الزعيم الذين
هم رجاله ، فاذا لم يدفع حصلنا بطريقتنا المضمونة .
واكمل المتر ابتسامته قائلاً بلمحة وثوق وثأ كيد :
— ولكن الزعماء يدفعون . . عن طيب خاطر يدفعون ،
لهم مصالح مثلنا ، ولذلك يدفعون .

وقال له ، في مناسبة أخرى :

— نحن لانهم هنا بالزبائن الذين يتناولون وجباتهم على طريقة السياح العجائز .. زبوننا المفضل هو الذي ينزل الى تحت او يطلع الى فوق .

تحت .. وفوق ؟ إذن المطعم لا قيمة له .. المطعم ليس إلا واجهة جميلة ومثيرة للشهية ، وهي من النظافة بحيث لا تعطي العابر أية شكوك عن أدرانها الداخلية ، وكان على فياض ان يقضي زمناً حتى يتعرف بنفسه الى ما يجري تحت وما يجري فوق ..

كانت المقمرة في الطابق السفلي والبنات في الطابق العلوي ، وكان الأغنياء من أصحاب الإقطاع ورأس المال ومالكي البترول ينزلون الى تحت ويطلعون الى فوق .. وكثيراً ما كان أحدهم يدخل وجيوبه ملأى ، وبعد بضعة أيام يقدمون له بعض الوجبات مجاناً ، بانتظار المال الذي سيسحبه او يطلبه تلغرافياً .. فاذا لم يصل ، او إذا عربد واحتج ، صدرت الأوامر الى الرجال فآلقوه خارجاً ، بنفس السهولة التي يلقي بها المطعم نفاياته آخر الليل .

وكان ينخل الى فياض ، كلما أبصر زبوناً يفتح فيه ، انه يرى زبوناً آخر يفرغ جيوبه ، وزبوناً ثالثاً يخلع بنطاله ، طالما ان آلة العمل في الأقسام الثلاثة ، تدور في وقت واحد ، وبنظام واحد .

وكان قسم المطعم ، الذي يعمل فيه فياض ، لا يثير اهتمام أحد ،

باعتباره الوجه العلني ، الميت . فاذا طلب إليه أن يصعد الى فوق ، او
يهبط الى تحت ، أخذته رعشة خفيفة تنتظم جسمه كله ، فلا يدري
أهي فواق اشمزاز أم بقضة استشارة .

كان يسرع في قضاء ذلك العمل دون ان يأبه للموائيد
الحضراء والأجسام العارية . وتصرفه على هذا النحو لم يكن ناجحاً
كل مرة . كانت قدماء ، أحياناً ، تغرزان في الأرض ، بفعل
جذب من مشهد عنيف لمقامر ، أو منظر عري لفتاة .. عندئذ كانت
مشاعره الساكنة نتيجة خداع متبادل ، تتنبه ، وتعطي ردود فعل
تظهر في حركاته خلال اليوم كله .

وذات يوم رأى على طاولة « البكرة » مقامراً أغلق الطاولة
ونحى هيئة المقمرة وحرمة السيدة صاحبة المطعم . كان رجلاً رباعاً ،
صموتاً ، ناثى ، عظام الوجنتين ، قامى الملامح كأنه أضاع هدوءه
الانساني منذ زمن بعيد ... كان يلعب واقفاً ولا يدري فياض
لماذا .. وقد بدأ اللعب بألف ليرة ، فلما سحب ورقته الثانية جعلها ،
على قفا الأولى ، ورفعها حتى مستوى عينيه ، وراح يفرزها بيضاء
وعصبية .. وفي اللحظة التي بلغ فيها توتره أقصاه ، ضرب وجه الطاولة
بورقتي اللعب وصاح بانفعال :

— ثمانية !

فقال البانكيو : تربيع .

وقال المقامر بهدوء يشف عن حمى داخلية .

— بالألفين إذن !

وربع ، فقال البانكير : عوافي !

وعاد هو الى هدوئه المنفعل ، فقال بنفس كلماته القاسية

والحاسمة :

— بالأربعة آلاف !.

وربع كذلك .. وتوقف البانكير عن التعليق ، وسمعت

وسط الصمت نبرات المقامر ذاتها :

— بالثمانية آلاف !!.

وربع أيضاً ..

كان يكرر سحب الورق ، وفرزه ، وقذفه على المائدة ،

بنفس الطريقة العنيفة ، وبنفس الطريقة يضرب بجاصل الجمع كله ..

فلما ارتفع المبلغ الى اثنين وثلاثين ألفاً ، بدا ان المائدة الخضراء

تعطي وميضاً أحمر عاكسة الشرارات الحمر المتساقطة عليها من أعين

اللاعبين والمتفرجين على السواء .. أما هو فقد توترت عضلات وجهه ،

وشحب لونه تماماً ، وانتقدت عيناه فصاح وهو يضع يده على كومة

الأوراق النقدية :

— بالكل !!!

علا اللغط فوق مهمة اللاعبين العاجزة ، ونحوت نظراتهم من

التوقد الحاقدا الى الالتماع المتقطع بومضات كابية خائبة وحاسدة ،
بيننا صاح مقامر عتيق خسر كل مامعه وخرج لتوه من اللعبة :
- عظيم ! هذا هو اللعب !

وعاد المقامر يقول وكأنه مقاتل استبد به التعطش الى
الانتقام :

- بالكل !

لزم اللاعبون الصمت .. كان المبلغ كبيراً ، لا يملكون
جميعهم ما يمثله .. فقال واحد منهم :
- إذا ضربت بالنصف رأيتك .
فأجابه :

- بالكل او لاشيء .

قال آخر :

- هذه خمسة آلاف مني .

فرد بحسمه المعهود :

- قلت لكم بالكل ..

وتامل اللاعبون .. وتمدد الصمت والتوتر ، وقال لاعب :

- وهذه ثلاثة آلاف مني .

- ومني ألف ..

فند عن المقامر صوت أصم :

- قلت لكم بالاثنين وثلاثين ألفاً !

فقال البانكير :

- لأحد يراك بهذا المبلغ .

- وأنا لا أضرب إلا به .

فقال البانكير بلهجة فهمها الجميع :

- إذن نسكر الطاولة .

وفيا كان المقامر يدير في الجالسبن والواقفين عيوناً تفصح

عن سادية ذاتية ، وقد هم ان يجمع بيسديه الصفراوين المرتعشتين

ماعلى الطاولة من مال ، نزلت سيدة المطعم وصاحت من بعيد :

- قف ، لاتجمع المال ..

قالتا بنبرة آمرة لاتدع مجالاً للتراجع ، وقذفت وجـهـهـ

الطاولة بحزمة كبيرة من الأوراق النقدية .

غدا الموقف درامياً من الدرجة الأولى .. كان المقامر ،

الذي أوشك ان ينصرف غائماً ، قاهراً السفلة الذين طالما قهروه ، قد

أصبح مستطيلاً من قش على شكل إنسان ..

وكانت النار الكامنة في ذات القش قد بلغت الدرجة التي

تحقق فيها وجودها او تختفي .. والكلمة التي ستخرج من فمه هي

الحد بين الحالين ، وقد زاد التوتر والصمت من قابلية الاشتعال ،

وتركزت النظرات الفضولية على وجه المستطيل القشي .

وبذكاء السيدة المدربة على ترويض الوحوش المنفلتة ، غرزت

نظراتها في عينيه ، وقالت مستدرجة ومستفزة :

— آخذ ورقاً ؟ —

جاءه صوتها من بعيداً رغم القرب .. كان بمثابة الشحنة الحادة لصواتين ناريتين ، وقد شكل الصمت العميق ، الخائق ، القابلية المطلوبة للقبس ، فازداد شعوب الرجل حتى غدا امتقاعاً ، وهاجت أعصابه وأطماعه ، ولاحت عليه ارتعادة حاول إخفاءها بالاستناد الى الكرسي أمامه .

كان السؤال لا يزال معلقاً ، يتلوى كأفعى مربوطة من ذنبها في السقف . وكانت السيدة تنتظر ، والمقامرون ينتظرون ، والقاعة كلها تنتظر .. لم يعد المال موضوع المقامرة . بل السمعة الشخصية لمقامر عريق ، وسيدة تدير مقمرة بأعصاب رجل .. يربح الأربعة والستين ألفاً ، أو يخرج صفر اليدين .. يربح المال والسمعة ، أو يخرج بنصف المال وبدون سمعة .. خسر وجاء ليسترد خسارته .. وها قد استردها .. هاهي على المائدة .. فريسته بين فكيه ، وهاهو حيوان آخر ، جميل ولكنه مفترس ، يقول له : خذني مع الفريسة أو اتركها لي .. ضع ذنبك بين رجلك ، ككلب خائف مهزوم ، واهرب بغنيمتك ، أو ضاعفها واذهب مشرع الذنب ، فخوراً بصيدك ، تياها كما يذهب الذكر المنتصر الى أنثاه .

تنت المقامر حوله .. يا لكثرة العيون وقسوتها ونفاد الصبر البادي فيها !. لو لم تكن هذه العيون ، لو سعى ان يفكر على نحو

أهدأ .. ولو لم تكن التي أمامه امرأة لكان الانسحاب. وقد يكون الطمع ، او عدم القدرة على التوقف بعد الاندفاع ، هو الذي حدد كلمته النهائية .

نظر اليها للمرة الاخيرة بمقت ، بحقد يدفع الى الإجرام ، وصر بأسنانه ، وبحركة حاسمة من يده وصوت محموم قال :
- خذي !

وأخذت السيدة ورقة ، وأخذت أخرى ، وقبل أن يفتح ورقته الثانية كانت هي قد ألقت ورقتها على الطاولة وصاحت :
- تسعة !

وقف الجميع باستثناء « البانكيو » .. وجمدت الورقتان بيد المقامر .. كان ابطاً منها في معرفة ورقته الثانية ، ولم يعد من أمل الا في تسعة مقابلة ، فراح يفرز ورقتيه ببطء أشد ، برعدة ظاهرة في يديه ، ثم تراخت عضلاته ، وتراجع الى وراء كمن تلقى طعنة قاتلة .. ممد يده الى جيبه يريد أن ينهي حياته .. لكن رجال السيدة المدربين كانوا فطنين وسريعين بما فيه الكفاية ، فأمسكوا يده ، وانتزعوا المسدس منها ، وقال رئيسهم : زجراً ، ليسمع الجميع :

- عندنا يلعب الناس ولا ينتحرون .. أمامك « الروشة » ! (١)

وتقدمت السيدة منه ، مغضبة ومنهوكة ، كأنها تخرج من معركة ، ودوت فجأة صفعه شديدة ، وسمع صوتها الأمر يقول :

(١) صخرة الانتحار في بيروت .

— جروه الى الخارج . . لن أسمع لأحد بتسكير طاولة

عندي .

أصدرت هذا الأمر ، وصعدت الى مكتبها حتى دون أن
تجمع المال الذي على المائدة ، تاركة هذه المهمة لسواها .

أما الحادث الآخر ، الذي فوق ، فقد بعث في فياض شعوراً
أقل عنفاً ولكن أكثر إثارة . وقع في الطابق العلوي . هنا العطور
والخمر والأجساد هي العناصر الأساسية ، ليس في صنع الجو المثير
فقط ، بل أيضاً في تشكيل الوجبة الشبيهة لمخلوق محروم مثله . كان
شاب يجالس فتاة جميلة ، اتقنت ، بالاستعداد والتمرين ، كيف
تجعل الرجال يعودون الى طعامها ما ان يذوقوا الوجبة الاولى .
ولئن كان المطعم يتساهل في تقديم اطباق مجانية في المرحلة الأخيرة ،
عند الافلاس ، فهنا يجري العكس ، يقدم الطبق المجاني في البدء ،
ليكون طعاماً للسمكة المطلوبة . وكان الرجل ، برغم مظهره
الخارجي الوسيم ، قد توقف منذ فترة عن ان يكون الصيد المرغوب .

صار هيكلاً حسيكياً يضيق السنارة في عملها ، بتقديم التحذير
الحبي للأسماك الاخرى . وكانت الفتاة التي علموها كيف ترسم خطأ
فاصلاً بين عواطفها ومصالح المطعم ، مكلفة بحذف اسم الرجل من
قائمة المعجبين . ستحذفه عن طريق اقناعه ، ولو بالأسلوب الأكثر فظاظاً ،
انه لم يعد صالحاً او مقبولاً . ولا شك ان الرجل لاحظ ذلك ،

وربما اقتنع به ، لكنه كان يأمل أن يوقظ في أعماق المرأة ذكريات
الساعات الحلوة ، والكرم الذي سلف ، والموادات التي سبقت . وقد
تكون الفتاة ذاكرة شيئاً من ذلك ، فهي ، بعد ، انسانية ،
ولكن المطعم نسي ، واذن فالمطلوب منها أن تتسى ، وان تصرفه
عنها بالرضى او بالغضب .

شربت الكأس الاولى ، وتمنعت قليلا في الثانية ، ولكنها ،
تحت نظرة المسؤول عن الطـابق ، رفضت الكأس الثالثة . .
ونفضت وهي تتثنى وتتشاءب ، مظهرة المال والرغبة في الانصراف .
قبض الرجل على معصمها وقال لها برفق :
- اجلسي !

فقلت وهي تتشاءب مظهرة ابطيها عن عمد :

- لا أستطيع ، دعني .

- لا أدعك حتى تأخذي كأساً اخرى .

- ولا قطرة . . دعني (وسحبت يدها جادة)

- لدي معك حديث .

- قلد على الواقف .

- ألم اعد استحق خمس دقائق من وقتك ؟

- بلى (وهي ضاحكة) ولكني اسمعك على الواقف .

- أريد أن تجلسي .

قالها بنبرة أخذت تتسم بالتهديد ، فأجابته بنفس لهجته :

— قلت لك لا استطيع (وسحبت يدها بحركة مقاومة) .

فوقف وقد انعقد ما بين حاجبيه ، وقال لها مكفهرآ :

— اجلسي .. اريد الحديث معك .

— في وقت آخر .. دعني الآن .

— وماذا لديك الآن ؟

فنظرت اليه وقد عاودتها طبيعة المرأة التي لها ثأر في عنق آدم منذ خطيئة حواء الاولى ، وقالت وقد قلبت اسحنة الملاكم الذي يسدد الضربة القاضية :

— لدي شغل ! (وغمزت بعينها ضاحكة) .

قال في نفسه : « شغل !؟ وأنا إذن ؟ ألم يعد لي مكان في

دنيا شغلك يا عاهرة ؟ »

وقال لها :

— لن أتركك ..

ففكرت : « ألا يفهم ؟ » الليمونة التي عصرت لم يبق الا

أن تلقى في صندوق القمامة ، والمسألة الوحيدة الباقية هي كيف تلقى ، أفلا يفهم ؟

وكان يفهم .. مثلها يفهم ، والفارق الوحيد بينهما انه

لا يستطيع ان ينسى العالم الصغير المعطر ، المخمور ، والجسد الفتى

المورد تحت المصباح الاحمر ، والضحكة الشهاء ، والهمسة المبحوحة ،

وكل الحركات الباعثة على طلب المزيد او المجازفة بكل ما بقي . كان

يفهم مثلها ، ولكنه لا يريد أن يصدق ان زيتة ، دمه ، الذي سكب
في هذا القنديل ، قد جف .

تأملها ملياً ، وتذكر كلماتها ، وتساءل كمن يفيق من اثر
التخدير ايدى كـ الحركات التي سبقت غيبوبة الجراحة : « أكان باطلا
كل ذلك ؟ عيناها ، شفتاها ، دموعها ، أكان كل ذلك خداعاً ؟
أنت ! يا أنت ! يا صورة في ايقونة ، ابن تلك الوداعة ، وابن
ذلك الهيام ! ؟ »

صحا على صوتها الذي ترافق مع نثرة يدها .

— اتركني ..

وابتعدت عنه وهي تفرقع بضحكة عابثة تخيلها أظافر
تكشط عن أيقونة الماضي كل تهاويلها ، فليحق بها وسأله بدافع من
قوة غرائزه النائعة :

— الى أين ؟

فعادت الى ضحكتها العابثة حتى غابت عيناها ، ثم انثنت
اليه فاوسعت من فتحة جفניה ، وسمحت للأفعى الأولى ، المنهمجة
ظلماً ، ان تشار لنفسها ، وتطلق فحيحها السام ، الهادم المهدوم ،
فقالت :

— الا تعرف ؟ لا يليق بالرجل أن يسأل المرأة تفصيلات

من هذا النوع .. اذهب الى زوجتك .. وإن شئت تعال وانظر
من ثقب الباب !

ومضت تتثنى ، رافضة أن تلتفت الى وراء .. فصاح بها
مزجراً ، مجروح العاطفة :
— لاتذهبي ..

لكنها ذهبت وهي تشير الى غرفتها كأنها تمسك خرقه حمراء
لإهاجة ثور ذي قرنين طويلين .. وعندئذ اخرج مسدسه ، وسمع
في المطعم كله صوت اطلاق النار .

وقال المستخدمون لفياض قبيل النوم :
— انس ماشفت ..

وقال له زميل قديم ، وهو يشرح مزايا البضاعة التي فوق .
— البنات عندنا صغيرات وجماليات .. والموردون يتقيدون
بهذا الشرط .. وحين تدخل البنت يعاملونها كالزهرة .. . توضع في
أفضل إناء .. ولكن حين تذبل ..؟ هنا لا يبقون زهوراً ذابلة .. .
تأكل البنت وتنام وتقامر وتشترى الثياب والحلي بقدر ما تكسب ،
وتستطيع ان تكون ذات عشيق من غير فئة الزبائن ، أما أنت
تترك المحل دون أن تطرد منه فهذا مستحيل .. . اذا كانت مرغوبة
فهي بضاعة جيدة ، وهنا سوقها ، أما اذا عنتت فالمحل لا يتساهل
بالمستوى المطلوب ، يترك لها الخيار في التصرف ، وتصبح حرة في
أن تنتحر أو تذهب الى المبنى .

هذان الحادثان أثرا جداً في نفس فياض ، ثم لم يلبث حادث
آخر صغير ان وقع : فتبع رجل مطعماً قريباً ، فاصدرت السيدة

تعلينها باغلاقه . أصبح رجالها من زبائنه الدائنين ، يسهرون ويخلقون
المشاكل من كل لون .. ورغم جهود صاحب المطعم لارضائهم كانوا
يجدون أسباباً كثيرة للشغب والعراك . . . يأتيهم — ببطحة العرت
النظيفة المختومة فتستبدل ببطحة من نفس الماركة فيها ذبابة ، أو يأتيهم
بطبق الطعام فيضعون فيه شعرة . ومهما كان دفاعه فلا بد من تحطيم
المائدة . . ولما تشكى نصحوه بالتفاهم مع السيدة . . . فدفعت هذه
تعويضاً مناسباً ، وصار المطعم لها ، وصاحبه مديراً من قبلها .

وراح فياض المدهوش والناقم ، ينطوي في ذاته على شعور
بالسخط والحيرة امام هذا الفساد الداب في كل ما حوله : منظر المقامر
والفتاة ، وصاحب المطعم المجاور ، وكل المشاهد المائلة ، جعلته
يشعر بالقرف والغضب . إزداد اقتناعاً أن الفساد الذي يعبر عن
نفسه بهذه الظواهرات غدا عميق الجنور حتى صار هو الطبيعة ، وخلافه
الشدوذ . كان يتألم اذ يرى اصحاب هذا الفساد وضحاياهم على
السواء لا يجدون غرابة فيه ، كأنما تواضعوا على أن الحال لا بد ان
تكون كذلك ، وكل ما بقي هو تطويرها من خلال التسابق ليكون
لكل منهم الدور الاكبر والمنفعة الاكثر في هذا التطوير . . . وكان
فياض وهو يتصور ذلك ، يتساءل : « الى متى ؟ »

انه الان على يقين من شيء واحد : كل رذيلة ممكنة اذا
دفع ثمنها . . وفي رسع الانسان ، لا ان يبدل مهنته فقط ، بل هويته
وشخصيته وبيئته وماضيه كله اذا دفع . أما البناءات الكبيرة ذات الواجهات

الضخمة ، فان اعمالها تتواصل على مدى الاربع والعشرين ساعة ،
وتتنوع الى درجة ان المرء لو أراد وضع دليل لها لاضاف جديداً
كل يوم وأما اللوحات المثبتة على الأبواب فهي لا تشير الى كل
صنوف العمل ، وليس من أحد يهتم بلوحات الأبواب ، بل بما يجري
وراء الأبواب .

ويبدو ان فياض اهتم بما يجري وراءها اكثر مما هو مسموح
به . لم يكن في مقدوره ان يتزين بالافكار والحواطم الذهبية الثمينة
في وقت واحد كما يفعل الميتر ، ومهما بالغ في الاحتياط ، فان ملاحظاته
كانت تكشف منتهاه . وقد وجد معاناة يوم ! كشف ان بين
المستخدمين من يمت اليه بصلات فكرية ، وان (الميتر) يعرف كل
شيء ، ولكنه ينصح بالتروي ، وبقرض جبل السوء بصبر جرذي .
وكان المستخدمون يميلون الى وضع افكارهم موضع التطبيق من حين
لآخر . وهكذا رفضوا ، خلال عمل فياض ، طعاماً رديئاً قدم اليهم ،
ولم يقبلوا وساطة « الميتر » ، ولا هو اصر عليها ، فاضطرت السيدة ،
وكان الموسم في أوجه ، الى تحسين الطعام ، وبدأت شكوكها بفياض
تزداد وتتركز .

ربما كان هذا هو السبب ، وربما مجرد مصادفة ، إن جاء
المطعم ظهر أحد الأيام رجل قيل ان له نفوذاً وسيطرة على كل
« قبضات ، المطاعم والملاهي في العاصمة والجبل .
افردوا له طاولة ، وقدموا الويسكي والدجاج المحمر ،

وجاءت السيدة بنفسها فشربت كلماً ، وأوصت بتقديم افخر
المشروبات والاطعمة اليه ، وانتقت فياض لجمته . وقيل انصراف
الرجل طلب من فياض ملء ، فلما جاء به ، استوقفه وسأله :

— أنت لبناني ؟

— لا .

— ما أسمك ؟

— ميشيل .

— من أي بلد ؟

فاسمى له أول بلد جاء على لسانه .

— من أي عائلة ؟

— من بيت الحوري .

— ومن هو مطرانكم ؟

بهت فياض . هو ليس ميشيل ولا من بيت الحوري ، ولا
من البلد الذي ذكر ، ولم تسعفه مخيلته في تذكر امم المطران ،
فوجهم تاركاً للرجل أن يقول عنه ما شاء ، فصاح هذا به :

— من بيت الحوري ولا تعرف امم المطران ؟ حمار !

قالها وقذف ليرة فضية ارضاً ، وامر فياض :

— خذها . !

كانت الالهانة بالغة ، لم يلق فياض مثلها . . . لماذا الحياة
بعد يا فياض ؟ الموت ، الآن ، هو الحياة ، فافعلها وموت ، التقت

عيناه بعيني الميتر في نظرة خاطفة . كان لونه قد اصفر وعرق بارد يتندى به جبينه ، وكانت عينا الميتر تقول له : « احذر ! لن تكون وحدك الضحية .. فكر بامثالك من المستخدمين » . وتذكر ما اوصوه به من ضبط أعصابه مهما حدث .. تذكر انه صاحب قضية وعليه ان يتحمل ، وان الحديد ، لكي يصبح فولاذاً ، لا بد ان يتحمل ، فاغضى على الاهانة ، والتقط اللـيرة ككرسون حقيقي ومضى خارج المطعم .

مضى بعيداً ، كي لا يرى مسرح اهانتته ، وقال في نفسه :
« لا بد ان اجد مخرجاً .. بيروت واسعة » .

- ١١ -

بيروت واسعة وبيروت ضيقة . فابن تذهب يافياض ؟
حذار من المجازفة ، وحذار ان تترك موجة اليأس فترطمك على صخور التهلكة . غلة انت بين هذا النمل . شعورك الآن كشعورك ذلك الصباح في ساحة الدباس . كانت قرية النمل تفور ، وكنت غلة غريبة ومختارة ، فجاءت تلك الفتاة وانقذتك من حيرتك . مشيت الى جانبك ، وابتسمت لك ، ووضعتك على درب الامان .. فابن تلك الفتاة ؟ ربما كانت هذه او تلك ، وربما كان هذا الرجل صديقاً مثل ذلك الميتر ، وهذا العامل رقيقاً كخليل ، ففي البحر اسماك كثيرة تتشابه ، وفي البحر اسماك كثيرة ضعيفة ، ولكنها

حين تسير في اتجاه واحد ، يتقوى بعضها ببعض ، وتبلغ غاية رحلتها . تمهل ، تفرس في الوجوه عساك تعرف احدا منها ، فكر وانت تسير وابتعد عن كراج جلول الذي ينادي « الى الشام ، الى الشام » خليل نهحك ان تبقى .. قال لك « التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع الناس مناخلون ، وربما ابطال ، جميعهم يمكن ان يقولوا ويكتبوا اشياء حسنة ، ثم ماذا ؟ المشاورة ، الصمود ، والا فالضياع » وانت لاتريد ان تضيع .. انت لاتسعى الى البطولة ، ولكن الحيانة لاتخطر لك على بال . وما دمت على المفترق فثبت قدميك لئلا تنزلق .. فكر .. باناة فكر ، بعزم على تقبل التجربة فكر ، وابتعد عن كراج الشام ، قم بجولة على البرج » .

« في الماضي كان البرج ساحة غير هذه . تغيرت المعالم وبقي الاسم . والدك تجول هنا في الماضي البعيد ، راكباً على فرس بدون مرج ، كان ذاك زمن الحيل وعربات الحنطور ، كان سائس خيل عند بيت سرسق ، ولا يذكر كيف وصل الى بيت سرسق . انه لايتكلم الا عندما يسكر ، وانت لاتصغي اليه حين يسكر . انصت الى غناه ، انه حنون ، فقد عاش في كل مكان ، وفي بيروت ايضاً . ذهبت اليها لأجل العمل يانزهة ، ومن يدري .. ربما احب امرأة ولحقها . ترك امك ولحقها .. وامك تعذبت يافياض « آه يابني .. كم بقيت وحيدة وكم بكيت .. كان السفر

في دمه ، مثل الخمر والنساء في دمه .. ولما جئت أنت تعزيت ،
قلت يعوضني ، يؤنسي ، سهرت عليك ، ربيتك كل شهر بنذر ،
ولما كبرت اخذتك الى المدرسة ، وفي المدرسة احبوك . كانوا
يشنون على ذكائك ، ويمدحون سلوكك ، ويخافون على صحتك .
كانوا يقولون عقله اكبر من عمره ، وانك حساس بشكل مقلق ،
وانك بكيت في الصف لان المدرسة نظمت رحلة ، وطلبت من
التلاميذ ان يشتركو فيها لقاء بضعة قروش ، وكنت تعلم ان
ليس معي هذه القروش فلم تطلبها . ولم تقل ذلك للمعلمة ، واعلنت
انك ان تذهب في الرحلة ، ورفضت ان تقول لماذا . ولما اصررت
المعلمة على معرفة السبب امتنعت عن الكلام ، واصررت هي
فبكيت أنت .. وارادت ان تدفع عنك فرفضت « يا الهي ، قالت
ابنك غريب ، ووضعت يدها على شعرك وقبلتك ، سيكون ناجحاً
اذا اكمل الدراسة ، ولم تكملها . كنا فقراء ، وقالت المعلمة
« حرام .. لا تقطعيه عن المدرسة » وانقطعت . كنت صغيراً
حين بدأت العمل ، وكنت تحمل الي اجر ك ، وكل مصروفك
تتفقه على الكتب ، وصحتك تنوس ، وقلبي ينوس ، كنت أمني
وهي ، والكنك كنت الى جانبي .. ثم كبرت وطررت .. لماذا
كبرت ؟ لماذا يكبر الصغار ؟ لماذا لا يبقون صغاراً ؟ هل الكتب
هي السبب ؟ ابوك حذرني « الكتب ستقتل الولد بانزهة » وهاهي ..
رباه .. لا اريد ان اصدق .. لا اتصور انك بعيد ، وانك ستظل

بعيداً ، مشرداً . انت لست مثل أيك ، لن تكون مثله . انت
لاتشبهه . لآخر ولا نساء ، ولكن الكتب .. لماذا ارسلتك الى
المدرسة ؟ باليتك كنت راعياً ، باليتك كنت بحاراً . لولا الكتب
لبقيت بجاني .. انت لم تخلق للغربة .. عشت مدلاً . صحتك
شمعة ، ورياح الغربة شديدة عليك ، ولقد قضيت عمري في الخوف
عليك . صليت في الليالي : يارب احفظ صغيري ! ، وقد حفظك ،
شكراً له ، لكن الكتب ... صرت تذهب في الليالي ،
وتذهب في الفجر ، وتغيب عن البيت ، وتواجه المصائب . عاتبتك
فقلت لي « الحياة ظالمة يا امي » ، وقلت لك نعم ، واسألني انا ..
اسأل اهلنا وحيناً ومدينتنا ، ولكن ماذا نفعل ؟ هل نستطيع ان
نزيل الظلم ؟ وقلت : « نعم » ، اذا حارب الناس الظلم ازالوه ،
ولماذا لاتحاربه بقلبك ؟ وضحكت .. وجاء الشرطة يوماً . ففتشوا
البيت ، قلبوا الاثاث ، بعثروا الكتب .. وفي المحكمة رأيتك
واقفاً ، وحين وضعوا القيد في يديك ادرت وجهي .. اخذوك ،
ولكنك عدت سالماً ، ثم جاءوا مرة اخرى ، ومرة اخرى دخلت
السجن .. سنوات طويلة ، وكل سنة اقول يستريح ، وانت لاتستريح ،
وانا كذلك ، والدك يقول : « هذه نتيجة الكتب » ، ويقول :
« كان يجب ان نبعده عن خليل » ، ويقول : تنبأت انه سيجن
بشيء ما .. دمه من دمي يانزهة ، مستحيل ، انت لاتسكروا ولا
تؤذي .. وليتك كنت تفعل .. لماذا لاتفعل ؟ أليس لك

حبيبة يا بني ؟ اين أنت ؟ ماذا تأكل ! كيف تمام ؟
أين تعمل ؟ ،

الزحام شديد على البرج . والوقفة على الرصيف صعبة ،
وقد حاول ان يتشبث بمكانه فجرفه المارة . ترك نفسه للتيار ،
وراح يحملق في الواجهات التجارية . رأى لوحات زجاجية سوداء ،
معلقة في صدور المحلات ، مكتوب عليها بمختلف اللغات « السعر
محدود » ، ولكن المساومة كانت ناشطة على البسطات المنشورة فوق
الارصفة . وكان الناس ينسون انفسهم امام حوانيت المجوهرات ،
وقد بهرته الكنوز السليمانية التي تعرضها وضايقت نظره .. وفي
الطرف الآخر للساحة كانت تلال من الاقمشة التي تباع بالقطعة ،
واكوام من الاحذية وارثال من عربات اليد المحملة بالمانيفاتورة ،
ومخازن متنوعة للسجاد العجمي . ومن سوق النورية كان صباح
المتشاجرين قد جمع الناس ، وكان الشاري يصيح :

-- هذه ليست لفتي .

فصاح به البائع :

— سد بوزك .

وبدأ الضرب ..

فقال فياض وهو يبتعد : « الغش في كل مكان .. مطعم
الجبيل ليس وحده . مطعم الجبل ليس وحده ، وسار باتجاه ساحة
الدباس ، ماراً بشارع بشارة الحوري ، وقد اعتزم ان يذهب الى

خليل ويستشير في الامر .. انما عليه ان ينتظر الليل ، كي
لا تتكرر الزفة السابقة . عليه ان ينتظر الليل . وكان الليل بعيداً .
وعليه ان يدور ، وان ينأى عن الساحة ، وياكل شيئاً يتبلغ به .

* * *

غمرته ام خليل كابن كان ضالاً فوجد .. وعانقه ابو خليل
وسأله عن الاحوال ، وابن كان ، وما هي اخبار والدته ،
واجاب على اسئلتهم بما استطاع اختراعه من الأقوال .
ود لو كانوا جميعاً مثل الكنة التي سلمت على استحياء ،
ولم تقل شيئاً سوى التأهيل ، ظناً منها انه يعود لتوّه
من الشام .

وفوراً نشطت ام خليل لاعادة توزيع الاجسام في الغرفتين اللتين
يجب أن تتسعا الآن ، كما في السابق ، خمس بنات ، وصبي ،
ووالدين ، وجدين ، وضيف هو فياض ، الذي اعترف بعقرية
العجوز في هندسة كل هذه الابدان ، اضافة الى ما يطراً من ضيوف ،
وحشرها جميعاً في الفرش ، وتوزيعها على الامرة والحيوانات
والارض ، وتدير الاغطية لها ، بغير ملل ولا انزعاج .

ولأن فياض ضيف ممتاز ، فقد احاطته ام خليل برعاية
خاصة كعادتها . ورغم رجائه بانتظار خليل ، والحاحه على عدم

ابقاظ الأطفال النائمين على سريرهم ، فقد تصرفت بما تعتبره من
صلاحياتها المطلقة . انزلت الصغار عن السرير ، واعطته لحافاً عدد رقعاته
أقل من رقعات جميع اللحف ، وقالت له :

— استرح حتى عودة خليل .

كان قد تناول القهوة ، وبدأ راغباً عن الكلام مع العجوزين .
ها هو في بيت أبي خليل بالرغم عنه . . بعض الضرورات كالأحكام غير
القابلة للنقض . وقد تقبل وضعه على مضض ، محتسباً الصبر مرحلة
جديدة في التجربة . وقال في نفسه « في مطعم الجبل عملت للفكرة
بقدر ما استطعت . مشروع المطالبة بتحسين الطعام وشروط العمل
كان من تديري ، ومن المؤكد ان بعض المستخدمين قد وعوا
ما قلته لهم ، وسيكونون نقابين جيدين . لقد جمعت منهم التبرعات
ودفعت قسماً من دخلي « للذين هناك » . أنا لم أستطع ان اكتب .
التمويه فرض علي ألا اكتب ، وسأفعل ذلك الآن . سأبعث
بمقالات للصحف بتوقيع مستعار .. فيا اخواني هناك .. أنا معكم ،
بفكري معكم ، بقلبي وروحي معكم ، وإني لامنحكم حبي ، وهو
كل ما أملك في الوقت الحاضر ، .

قالها وقد استعاد ، بعد يوم من التشتت والعذاب ، وجوده
وطمأنينته . كان يبعث عن عزاء ، عن اقتناع بأنه نافع ، وان
ما يفعله يسهم في القضية ، ففي هذا تبرير لحياته ، وفيه طاقة جديدة
على مواجهة الصعاب .

وجاء خليل .. أتعرف من ينتظرك يا خليل ؟ . تعانقا ..
أكثر من أخ وأخ تعانقا .. السائران في درب واحدة تعانقا .
وأصغى خليل لفياض ، وقال هذا ، في الحتام ، معذرا عما فعل :
لم استطع الاحتمال باصديقي ، لم استطع الاحتمال .

وكعادته أطرق خليل .. معنى هذا « يمكن الاحتمال ،
ولكنه لا يريد أن يقوله .. لا يريد أن يكون فظاً مع صديقه في
أول لقاء .. وقد فهم فياض ذلك ، واعتكرت نفسه ، فسأل :
— بماذا تنصحي يا خليل ؟

وقال خليل بأكثر ما يستطيع من الحب والعطف :

— ابقى لدينا .. احسب أن الضجة قد خفت الآن .

وتوجه الى أهله قائلاً :

— فياض رجع بصورة مؤقتة .. هذه المرة لم يره احد ،

فحذار أن يعلم الجيران .. سيظل في الغرفة الداخلية حتى يرحل .
ثم قال له مؤاسياً ومشجعاً :

— لائهم بما حدث .. صار الذي صار .. اصبر قليلاً ..

هذه الحال لا تدوم .

القسم الثاني :

- ١ -

لاتدوم !؟

ولكنها دامت .. بل ازدادت ، في دوامها ، سوءاً .
في « مطعم الجبل » ابلغ الميتر ان رجال الامن سألوا عن
الذين يشتغلون فيه من غير اللبنانيين . اطلعوا على الاسماء ، وراقبوا
المطعم بحثاً عن فياض ، وقالت السيدة للميتر ، وهي تأسف لان ضربتها
تأخرت « نقد ميشيل بريشه » ثم استدركت : « أتخسب كنت
اسمه ؟ لا .. أنا أفك مشنوقاً » فقال الميتر في نفسه : « على
شرط ... » وتساءل عن شرطها : « ترى راودته عن نفسه
فرفض ؟ . انه جاهل اذن ، فالسيدة طيبة ومعدورة . الذي يجني
العسل يلحس اصابعه » ، وهي تشهد جريان العسل في الطابق
الأعلى وتلهظ ، .

اهتم الأصدقاء بأن يكون فياض في مأمن ، فاخبرهم خليل
انه في مأمن عنده ، فأوصوه به ، واعدن بتأمين نجاً آخر له
عند الضرورة .

وهكذا أقام في الغرفة الداخلية من بيت أبي خليل ، حيث
ينعم بالرعاية الأبوية للعجوزين : أبو خليل وقد تولى الذود عن البيت
من الخارج ، وشعاره التخفيف بالنسبة لجميع الزوار ، وام خليل وقد
تولت التموين ، ثم اطعام فياض ولو بالقوة ، والتعرش بالجارات
من مجلسها على الحوان أمام النافذة ، وممّاع شكاوى شقيقاتها الثلاث
من كناتهن الثلاث .

وعاد سعال أبي خليل المصاب بالروماتيزم يوقظ فياض ليلا ،
وضجة الصغار في الصباح تجعل البيت كحمام قطع مأوه ، وزعيق
الراديو وخشخشته يفتان أعصابه ، حتى اذا ارتفع الضحى ، وفرغ
البيت ، انتشر السكون ، وتمددت الوحشة ساعات أنفقاها في
الاستلقاء أو الجلوس أو السير في غرفته الضيقة والمعتمة .

كان يحلو له أن يراقب الصغير يلهو ، يتمسك بأذيال امه ،
يدور حولها . وعندئذ كانت الظلال تستطيل ، تبت غيمة في فضاء
الغرفة ، وفي قلب الغيمة تضيء شمعة .. يصير لها يدان ، رجلان
تمشي .. تكبر .. محفظة فماشية تتدلى من العنق والكتف .
ها هي ذي المدرسة .. الصف الأول .. الصف الثاني .. الصف
الثالث .. المدرسة تضج .. حادث فوق العادة . استدعى المدير
فتى من الصف الخامس . الفتيان كبار في الصف الخامس .. صفعه .
وانقطعت فتاة عن المدرسة ، وقالت المديرة : « بالطيف ! » والمعلمات

توشوشن . سأل فياض : «ماذا فعل الفتى للفتاة ؟ ضربها؟» فضحكت
المعلمات، وقالت معلمته : «لا يا فياض . . اذهب والعب ، لاتسأل هذه
الأسئلة . . » وصمت فياض . أحس انه ارتكب ذنباً ، لكن تطلعه
كان اكبر من احساسه ، فظل التساؤل مرتسماً واكتأب .
« لاتزعل - قالت له المعلمة - ستعرف فيما بعد ، حين تكبر ، ولماذا
حين اكبر ؟ » لان هناك أشياء ليست للصغار ، . . تحركت في دمه
جرثومة كانت هامة ، ورأى ، لأول مرة ، بريقاً في عيني المعلمة .
صار جسمها اكثر من مستطيل يمشي على فرعين . اخذت التفاصيل
تتمايز : الردفان ، النهدان ، الذراعان العاريان في الصيف .
والجرثومة التي كانت هامة انتقلت الى الدم ، ومع الدورة الدموية
انتشرت في الجسم كله ، وقبلة المعلمة صار لها معنى آخر ، غامض ،
مبهم ولذيذ . صار يتوقعها ، ويتمناها ، وارتسمت للفتى والفتاة
صورة اخرى ، غريبة ، مثيرة ، وتطلّع في البيت الى رسم آدم
وحواء والتفاحة والأفعى ، وفي الصف سأل المعلمة : « هل يختلف
تفاح الجنة عن تفاح الأرض يا آنة ؟ » ودهش التلاميذ وضحكوا ،
واقتربت المعلمة منه . كانت مغضبة ، ومدت يدها لتشده من اذنه ،
لكنها رفعها الى اعلى ، وداعبت شعره ، وتراجعت ولم تقل
شيئاً . وفي الباحة رآها تتهامس مع المعلمات ، وتشير اليه وتضحك ،
وفهم انه سأل عن شيء لا يسأل عنه الصغار . ولكن ما هو هذا الشيء
الذي لا يسأل عنه الصغار ؟ « انت يا فياض شقي ، صغير وشقي ،

تقول أشياء خارجة عن الدرس ، لو قالها غيرك لقاصته ، ارادت ان تضع حداً لفضوله ، وفكرت حتى أن تحدث المدير ، ولكن فياض حمل اليها في اليوم التالي باقة ورد . من حديقتهم حمل إليها باقة ورد . كان جلب الأزهار الى المدرسة عادة يصطنعها التلاميذ وأهلهم تكرمة للمعلمات والمدرسة انها تعبير عن عاطفة لا سبيل الى التعبير عنها بهدايا أخرى ، غير أن ورود فياض كانت هدية خاصة . لم يقدمها مباشرة بل اكتفى بوضعها على الطاولة في الحصة الثانية ، حصة المعلمة . ولقد فوجئت بها ، وسألت عن صاحبها ، وأطرق فياض وسكت . هدية صغيرة من القلب الصغير . . قدحة صوان في العينين . شرارة لا تحرق بل تضيء . والمعلمة انشئ ، وهذا الارنب الصغير . وقالت المعلمة : لا اريد زهوراً من احد . اصطنعت الجدة ، وعيبت . ومر نهار تعيس ، وفي المساء ، عند الانصراف ، استبقته في الصف « امك أرسلت هذه الورود يا فياض ؟ » لا ، أنا احضرتها ، ولماذا لم تعطيها الى المعلمة في الحصة الأولى ؟ ، فنظر اليها مستغرباً . انه لا يعرف ! وادركت المعلمة ان سؤالها اربكه ، فابتسمت ، وبهرته الابتسامة . . كانا وحيدين ، والابتسامة له وحده الآن ، وسوف يذكرها طويلاً . احتوته بين ذراعيها ، فشم رائحة جسم . . وسوف يذكرونيلاً ، الارتعاشة الاولى التي ولدتها رائحة جسم .

عام ، عامان ثلاثة . . اليقظة المبكرة لفتى مراهق ، ابن

بحار في دمه الخمر والنساء ، وذكرى المعلمة .. وأغمض عينيه ... أين
صارت تلك المعلمة ؟ ،

ابن خليل يلعب ، وهو يراقبه ، هو يراقب طفلاً آخر ،
بعيداً ، من الماضي .. كان حلواً ذلك الماضي ، كان فيه طفلاً ،
وكانت الدنيا لهذا الطفل ، أواه .. لماذا يكبر الإنسان بسرعة ؟
أمك قالت هذا أيضاً .. وأمك لاتراك الآن ، لاتعرف كيف
تعيش .. لاتعرف انك تتعذب بالصمت ، وتتعذب بالضجيج ،
وانك مللت الصمت ، ومللت الضجيج .

وبعض الأيام هونت عليه العادة وطأة العذاب والملل .
لم تعد الأشياء غريبة ، ولا الاخبار السيئة أو « اسئلة المجهولين ،
مشيرة للقلق . كل شيء غدا متوقعا ومحتملا الا شيء واحد : أن
يظل قعيدا هو الذي جاء لينشط . لقد هرب في سبيل فكرة ، وله
رفاقه في السجن ، وعائلته بمجھولة المصير ، وامه قد تكون ماتت كمدأ
عليه ، وهو مجھد في هذا البيت ، مشلول ، عرضة للصدأ .

ويوماً بعد يوم عاوده الشعور بأنه يستهلك نفسه بغير فائدة ،
وان خليل يعامله كقاصر ، ويعارضه في كل شيء . وندم على ترك
« مطعم الجبل » وقال لخليل :

— اخطأت في ترك المطعم .

— لم تخطئ ، ولكنك تسرعت .

— وما الفرق ؟

- رجال الأمن سألوا عنك في المطعم .

- لم اعد ابالي .

- لاتستعجل .

- يجب ان أبحث عن عمل جديد .

- لاتستعجل .

فرنا اليه وسكت . « مانفع الكلام حين تكون مضطراً الى ابتلاعه ، او حين لاتكون واثقاً من صحته ؟ انت لاتبالي ؟ حسناً ، ولكن لاتستعجل . قال لاتستعجل لانه يعرف انك لن تفعل ، غير انك تعرف ان النصائح لاتكلف شيئاً . لو تبادلتما المواقع لكنت انت الناصح . كنت تتفق من هذه العملة ايضاً . كنت تلعب دورك كما يلعب خليل دوره ، انت لاتعرف ان تقسو مثله ، لأنك لاتعرف ان تحسم . حسم خليل ، لا كلامه ، هو الذي يزعجك ، وقد كان عليه ان يلاحظ ذلك ، ان يتكلم بلطف ، كمعلمتك ، كامك ، كالكتب التي كنت تقرأ ، .

بعد أيام جاءه بصحيفة نشرت له مقالاً بتوقيع مستعار ، فانكب على المقال يقرأه وهو مقتضب . تلمل لأن بعض عباراته قد حذفت ، وعبثاً حاول خليل اقناعه ان العبارات المحذوفة لم تنقص من قيمة المقال ، لأنها كانت حماسية لا أكثر .

— وماذا في ذلك ؟ حماسية ؟ انا اريدها كذلك ، ابحت
عن كلمات من نار .

فقال خليل :

— الحماسة شيء والسياسة شيء .

تلق .. بدأت الدروس .

— والذين يتعذبون هناك ؟ نسيت انهم رفاقي ؟

يحسبني اقل منه تحسناً بآلامهم .

— ورفاقنا نحن أيضاً ! تريد ان تساعدنا ؟ اكتب بموضوعية .

اذكر وقائع .. هذا ادعى الى الاقتناع ، في الجريدة هكذا
يطلبون .

— يطلبون ؟ ولكني لا اكتب بناء على الطلب ، ليكون

هذا معلوماً لديهم .

— وليكن معلوماً لديك انهم لا ينشرون الا ما يرونه

مناسباً . انت حر في ان تكتب ما تريد ، وهم مضطرون الى نشر

ما هو مفيد ، وما يسمع به .

حجج واهية .

— لن اكتب بعد اليوم .

— لا تكتب . استرح . انت بحاجة الى الراحة .

ساد الصمت ، فافترقا على خلاف . ذهب خليل الى عمله ،
ورجع فياض الى سريره . جلس على حافته ويكسى . قال في نفسه :
« اهاني . هنا ايضا اهان .. ومن ؟ انت ايضا يا خليل ؟ سافر
يا فياض سافر .. البرج ، و كراج جلول « الى الشام ، الى الشام ،
وقل لهم « خذوني الى السجن .. لماذا لم ابق فادخل السجن ؟ »

ظل ينتحب ولا دموع ، و كيانه يهتز لفرط تأثره . اصبح
على درجة من رهافة الاعصاب تهدد بالانفجار في كل لحظة ، ولانه
لا ينفجر ، فهو يحس بتعاسة آكاة . صار خليل ، معلما وصديقه ،
شخصا آخر في نظره . لم يعد قريبا ولا حبيبا . وغدا حديثه اليه
كسكين تحفر في ثقب لتوسعه . هو الذي يجره الى الحديث ، وهو
الذي يعارضه ويتألم منه ، يريد ان يقول له : « انت يا خليل لا تفهم
اكثر مني ، وانما الظروف وضعتك ، انت ومنطقك ، في موضع
التفوق » . وقد قال ذلك فابتسم خليل واجاب : « ربما ، فشعر
فياض ان هذه « ربما » تحمل كل معاني الاشفاق والازدراء . هتف في
ذاته : « آه لو كان لي مكان آخر .. يادنيا ! يادنيا ! لماذا ضقت في وجهي ؟ »
تصاعد احساسه بان الدنيا تضيق ، وتصاعد ، بمقدار مماثل ،
جزعه ورغبته في ان تتغير الاحوال بسرعة « كل شي » يجب ان
يتحرك ، يدور ، يثور ، وشد قبضتيه وصاح : « سحقا للصبر !
الى الشيطان العقل والمنطق ! » و اضاف وهو يلتهب : « انتي اكتب
لاجل الذين هناك .. الذين يذوون ، يذوبون ، ويقولون لي :

انت تكتب بحماسة . اجل ! بحماسة ! اريدها كلمات من نار ، تكوي ،
تحرق ، ومع ذلك فهي لا تكوي ولا تحرق ، ولا تؤدي الى نتيجة .
وكيف تؤدي الكلمات الى نتيجة ؟ قل انت يا فياض .
فكر بما تستطيعه بهذا التشنج . اصرخ ، احرق نفسك ، ثم ماذا؟
يمكن ان تقع معجزة ، ان تحدث اشياء غير متوقعة ، ان ينزل
المطر في الصيف ، ولكن الشتاء يظل فصل الامطار . وعدا عن
ان زمن المعجزات فات ، وان الاشياء غير المتوقعة رحيد وهي
في حساب المفاجآت ، فان ترقب هذه الامور ضرب من الانتظار
العقيم ، والقضية تظل الى جانب العمل الذكي ، الجريء ، المتواصل .
« ولكنني اتعذب يا خليل . في كل ليلة اجر الى التحقيق ،
وفي كل ليلة اجلد بالسياط ، وحين يغمى علي يسكب الماء البارد
على جسدي . ينقعونه جيدا ، كالجلد قبل وضعه على السندان ينقعونه ،
ويضربونه حتى يتمزق ، ويخرج اللحم مع السياط ، ويتناثر على
الجدران ، فيحملونني في بطانية ويلقونني في الزنزانة . . يدي ليست
يدي ، ورجلي ليست رجلي . اصبح كتلة من لحم مقرح ،
مدمى ، ازرق ، مشوه ، لا احد يعرفني ، ولا اكاد اعرف نفسي ،
فوهة مكان الفم ، وثقبان مكان العينين ، ووجه مبعج ، واثلام
متقيحة على الصدر والظهر ، ورضوض وكدمات في كل ناحية .
ومن جديد ، بعد يوم او يومين ، بعد اسبوع ، اجر الى التحقيق ،
وتتجدد عملية التعذيب ، وتتجدد الألم والتشويه ، ثم يغمى

علي ، ويسكب الماء على جسدي ، واحمل في بطانية الى الزنزانة
انا صديقك يا خليل ، انا فياض ، احس بهذا لاني اعرفه ، لاني
اعيشه ، ولاني انحرق الى وقفه ، وانقاذ الذين هناك منه .

هبط الليل فقال فياض : سيان أن يهبط الليل أو يطلع الصبح .
أنت والجدران الاربعة ، وغداً تسافر الليلة هي الأخيرة ، فلا
تخرج من غرفتك ، ولا تمد يدك الى زاده ، وفي الصباح قل له :
شكراً ، ثم البرج « يا شام ! يا شام ! » لسوف أقبل ترايبك يوماً ،
ويا أمي البعيدة ، سأضع رأسي على صدرك ، ويا اخواني الذين
هناك . سأكون بينكم ، ومعكم ، وذلك أجدي . السجن أفضل
من الغربة . السجن أفضل من الغربة .

ووقف خليل على العتبة بعد قليل .. التقت العيون فسال
عتاب صامت . اقترب منه وعانقه « يا صديقي ، يارفيقي ، لماذا
تعذب نفسك في غير طائل ؟ تعال ، ولنشرين كأساً ، ولنغن ...
غن ، يارفيقي ، غن ، لأجل الذين هناك ، وفي كل سجن ، ومن
أجل الناس ، والمستقبل والحياة ، ومن أجل انفسنا ، ولكي نبقى
اقوياء ، ونواصل السير ، غن ، ولنغن .

* * *

لم يسافر فياض في الصباح . عكف على كتابة قصة .
ونشرت القصة فنالت الاعجاب . وقال خليل « أتدري ما صنعت ؟ » ،

وقبله . تالت القصص ، وكذلك الأيام ، وطال الاختباء ، وتقن
فياض في اختراع التسلّيات لانفاق الوقت . قرأ كل ما طالته يده
من جرائد وكتب ومجلات . كان يقرأها ويبعد قراءتها .. جرب
حل الاحاجي في الكلمات المتقاطعة ، بل قرأ الكتب المدرسية
الابتدائية الموجودة في البيت ، وطالع كل ما في بيوت اقرباء
العائلة من روايات الجيب ، والف ليلة وليلة ، وقصص الزير ، وعنترة ،
وتغريبة بني هلال .. كان الكتاب أعظم مسراته ، فاذا فكر فيه
تمم بنخشوع : في البدء كانت الكلمة ! .

كان يقرأ حتى تتعب عيناه ، ويجلس أو يضطجع ، وأحياناً
يخلع نعليه ويسير حافياً ، مرهفاً السمع الى كل حركة تصدر عن الغرفة
الأخرى ، حتى اذا انتهى اليه وقع خطى باتجاه الباب ، انسحب الى
ما وراء السرير كي لا يراه من يدخل الغرفة بصورة مباغتة .

ولأن الفصل شتاء ، كانت الزيارات تطول ، والحديث
يتواصل في الغرفة الثانية ، وأبو خليل يرد على الزوار بكلمات قليلة :
نعم ، اي ، لا ، صحيح . ويدرك فياض ما تنطوي عليه هذه
الاجابات من عصبية ونفاد صبر ، فيستشعر الحرج لمضايقه العائلة
على هذا النحو الموصول . أما خليل فكان يسترسل .. كان على
عكس أبيه ، له اذن صغواء ، يعرف كيف يأخذ ويعطي مع
الضيف ، وكيف يمد له حبل الكلام ، حتى يجعله يفتح قلبه ويقول
كل ما يريد . وكان بعض الضيوف يبقى لقضاء السهرة ، ومعنى هذا
بقاء فياض حبيساً في الليل ايضاً ، وفي هذه الحال تبلغ العصبية ذروتها باني

خليل ، فيدخل على فياض متفقداً ، ويتسم له مؤاسياً ، او ينفخ
معبراً عن مشاركته له في هذا الضيق ، سائلاً بالاشارة عما يريد ،
ويشعل له سيكارة ، ويجلس الى جانبه ، او يخرج الى
الحديقة ، وقد يذهب من البيت كله . فاذا عاد انصب باللوم والتقريع
على خليل وأمه اللذين أطالا الحديث . وعبتاً كانا يقنعانه ان مافعله
لباقة ، فهو يجيب ساخطاً : هذا البيت لا تنقطع عنه الرجل ..
الضيوف على رأسي ، ولكن فياض طقت مرارته في الغرفة الثانية ..
فكروا انه انسان ، وانه يحتاج الى التنفس وقضاء حاجة ..
العمى .. لا يوجد في رؤوسكم عقل ! ؟ .

ويسمع فياض فيبتسم .. لقد اعتاد هذه المناوشات التي
لا تعني شيئاً في هذا البيت ، وارتضى نصيحة صديقه المحرب بالصبر
حتى الفرج .. ولكي يتوهم صبره الى واقع ، راح يبيدي سروره
ورضاه ، حابساً كل شكوى في صدره .. لقد أدرك ان الاختفاء
مضايقة في ذاته ، واظهار الألم يزيدحدة المضايقة ، وكثرة الاعتذار
تبعث على الملل ، وتورداد الشكر ينقلب الى زلفى . حتى العبوس ، بفعل
الهموم الخاصة ، يزيد الجو ثقلاً .. ولكي يجتنب كل ذلك عليه ان
يضحك ، كالابله عليه أن يضحك ، وكان يفعل ، ويحس ان كل
تصرفاته غدت ثقيلة ، معقدة ، وحتى قضاء الحاجة غداً معقداً ..
فاذا كان غرباء في البيت ، ظل في غرفته ، وقد تطول
الزيارات ، وعندئذ تنقلب العقدة الى مشكلة .. وهكذا اضطر

أن يطلب من أبي خليل كيساً مطاطياً للماء الساخن ، زاعماً انه
يبرد ، وأخذ يستعمله كمبولة ، ويحمله صراً الى المرحاض في الليل .
واخيراً قرر أن يستعين بأم بشير ، ويبحث معها برسالة الى
أحد الاصدقاء ، فارسل يستدعيها صراً مع الكنة .

- ٢ -

بعد ظهر أحد الأيام جاءت أم بشير مسرعة ومرحاة
كعادتها . كانت قد بلغت الخامسة والخمسين الآن ؛ ولكنها تقسم
انها في الخامسة والأربعين . تذكر فياض قصة « الفساتين الحمر »
وتأملها في محاولة للمقارنة ؛ لكنه لم يتذكر صورتها السابقة . بدت
الآن نضياء ؛ حمراء الشعر ؛ ذات عينيْن شحلاوين ، ورموش متأكلة ،
 وأنف دقيق ، منشر الى أعلى .

وما كادت تسلم وتجلس حتى مدت يدها الى سيكرات أبي
خليل فانتهرها :

- اتركي هذه اللعنة أو احلمي باكي .

- وأين أضع الباكي ؟ ألا تراني بدوت حقية

ولا جيب . ؟

- ضعها في صدرك .

- يا حبيبي ! وماذا يقول الناس ؟ « بز » ثالث ؟

ضحكت أم خليل وقالت : أنت أصلاً بلا « بزاز » ،
تسكرين مثل الرجال ، وقدخنين مثلهم أيضاً .

— أنا لا أسكر أبداً . . أدخن ، وأشرب قليلاً . وماذا في
ذلك ؟ مات زوجي من ثلاثين سنة ، وخلف لي أربع بنات وفوقهم
صبي ابن أشهر ، فمن قام بهذه العائلة ؟ زوجت بناتي الأربع . .
زوجت الأربع دون مساعدة من أحد .
قال أبو خليل :

— هذا صحيح . . شهادة لله . . أم بشير لها طريقة عجيبة في
التزويج .

قالت أم بشير :

— أنا امرأة لا أحب كثرة المباحكة . . أضرب إلزق . .
اللزق . . هذه هي طريقي . . كنت أرصد الباب ، فإذا مد شاب
رأسه لزقه بواحدة . . ما شغلك ؟ ما سنك ؟ ما أصلك ؟ ما فصلك ؟
هذا العلاك لا أفهمه . . اللزق . . أضرب أقتل . . هذه أحسن طريقة ،
طريقي أنا .

قالت أم خليل :

— ولكن ابنك لم تزوجه بهذه الطريقة . . إنقلب عيارة . .
خطبت له مرتين وفسخت الخطوبة ، ولولا تدخلنا لفسخت خطوبته
الثالثة . . لسانك لا يهدأ . .

— لساني هو لساني .. وأنا أعرف كيف أستخدمه ..
إسألني خليل عن « الفساقين الحمر » وغيرها ..
قال خليل :

— عدنا الى هذه القصة ! ؟

— وقصة عمال الريجي ؟ . أنا لا أتفاخر ، ولكن أذكر
الحقائق .. قبل عشرين سنة .. نعم قبل عشرين سنة .. مشيت
على رأس النساء في مظاهرة عمال الريجي .. كنت أحمل العلم ..
وهاجنا الدرك .. فماذا فعلت ؟ تراجعنا ؟ خفت ؟ لا والله ..
مشيت لقدام .. ولما بدأ الضرب ضربت .. وجرححت ، فحملني
العمال على الأكتاف .. ولا حقني البوليس فاخترت مثل
غياض الآن .

قالت أم خليل :

— الله لا يعطيك العافية .

— العافية موجودة .. أعطاني العافية ولم يعطني الزوج .
هتف أبو خليل وكأنه تذكر أمراً :

— هه .. وجدت لك ابن حلال ، ما حلواني ؟

— الذي تريد .. ما اسمه ؟

— رجل على الكيب .

— آمناً .. ما اسمه ؟

— أبو سمعان ..

– وماذا أفعل بهذا العجوز ؟ أنا امرأة قوية ، من ثلاثين سنة لم يضع إنسان يده علي . . صنت نفسي بانتظار ابن الحلال ، فماذا أصنع بهذا الفاني ؟

– ترسلينه الى السوق .

– وفي الليل ؟

فدارى أبو خليل إبتسامة ونهض . مضى عبر الحديقة الى المقهى ، ولحقه خليل . وقامت الأم لتتفقد كبتها في المطبخ ، وللحال مدت أم بشير يدها الى فياض وقالت :

– هات المكتوب .

ولما ناولها إياه ، أوصاها قائلاً :

– إنتبهي . . لا تضعيه .

فترته وقالت :

– هات . . إذا كانت بيروت الدست فأنا المغرقة .

وأغلقت الباب وراءها ومضت .

– ٣ –

تسلم جوزيف بو عبده الرسالة من أم بشير وقال لها : مع السلامة . كان عليه أن يوصلها بدوره الى الشخص المرسل اليه ، ولهذا قال في نفسه : علي أن اسرع في العمل كي اوصل الرسالة مساءً قبل العودة الى البيت .

لو كان في غير هذا العمل ، وغير هذه الظروف ، لأصلح
ربطة عنقه ومضى دون تمهل . هو ميال الى عدم التقيد بشكليات
الدوام ، ويكره جو المكتب كما يكره لقب الحواجة ، ولكن
سنة اشهر من البطالة والمراجعات ارغمته على تقبل ما يكره . . جعلته
يتحمل رفيق دراسته القديم في اليسوعية ، رفيق دراسته البليد الذي
كان هزأة الصف فصار بعد الحرب من ارباب الملايين وصاحب وكالة
سيارات . . لقد اوكل الى جوزيف جرد قطع التبديل جردة رأس
السنة ، واعطاه معاوناً كسولاً ، ساعات عمله الثماني لا تزيد عن
اربعة ، وكان المعاون يحلم دائماً في أن يعطيه الله كما اعطى المعلم ،
وجوزيف يقول له : « الله لم يعط المعلم » فيسأل « ومن الذي أعطاه »
فيقول جوزيف « الشيطان » وعندئذ يضحك المعاون ويقول :
« إذن سوف يعطيني الشيطان أنا ايضاً » .

وكان في القسم خمسة آلاف صنف من القطع ، وفي كل
صنف من القطعة الواحدة الى العشرة ، وعلى جوزيف أن يقضي
نهاره في تجميع هذه القطع ، وتدقيق ارقامها ، ملوثة يديه وثيابه
بالغبار والشحم والزيت ، لا عنأ زميل دراسته السابق الذي ارغمه
على هذا العمل القذر .

وكانت الفوضى تعم القسم بكل موجوداته ، وقد سمع
جوزيف من صائقي السيارات والميكانيكيين كمية من الشنائم لم

يسمع مثلها قط ، وكان يشترك ، هو نفسه ، في هذه الشتائم ، فاذا احتاج الأمر ابرز تفوقه فيها ككسرواني أصيل .

وكان عدد موظفي وعمال الوكالة يزيد على المئة ، وعلى رأسهم قريب لصاحب الوكالة يصلح لأن يكون ضابطاً في الجيش الفرنسي ، وهو يعتقد نفسه جنرالاً ، ويمارس ، بالفعل ، سلطة الجنرال . وقد أخذ على عاتقه ، منذ اللقاء الاول ، أن يروض جوزيف ، ويجعله قطعة تبديل في ما كينة الوكالة ، وهذا ما ادى الى صدام طلب جوزيف بعده الاجتماع بصاحب الوكالة . . . والموعد لم يحدد بعد .

وقال جوزيف وهو ماض بالرسالة : « للقرد ! علي أن اسرع الآن . » . كان وقته ضيقاً الى درجة لا تسمح له بأية متعة فكرية أو ثقافية ، ولذلك لا يلتفت الى الكتب والافلام وسائر الاعلانات الفنية من حواله . عليه أن يعود بسرعة الى البيت ، حيث ينعش نفسه بشيء من الخمر ، ثم يرتقي على الفراش دون وعي ، ليستيقظ في الخامسة والنصف صباحاً ، فيخلق ذقنه ، ويشرب قهوته ، وينطلق حاملاً بعض السندويشات ليلحق بالانوبيس ، وفي ساحة البرج ينزل منه ليتعلق بالترام ، ثم يقفز من الترام ملقياً بنفسه بين صفوف السيارات في باب ادريس ، ويسير الى الوكالة شبه راكض ، فيلقي نظرة على الدفاتر . . ويستعد للجرد !

فاذا كان الظهر انتقل جوزيف الى مطعم قريب ، حيث

يطلب طعامه ويبتظر ، وقد يغتنم الفرصة ليطالع صحيفته ، وبعد
الطعام يعود الى الوكالة ليمدد على كرسي في الطابق الارضي ، ثم
يستأنف جرد قطع التبديل حتى المساء

وفي آخر الشهر يبدأ التفكير الكياوي في توزيع المعاش ..
وهو يهرب آخر الشهر لهذا السبب بالذات .. ففي بيروت لا يعرف
المرء كيف تتسرب النقود ... وقد كان في كسروان يحتاج الى
نصف ما يحتاجه في بيروت، وفي مرجعيون كان مرتب المعلم يكفيه
ويزيد ، ولكن زوجته ظلت تتق حتى حملته على السكنى في العاصمة :
- يا يسوع يا جوزيف ! لماذا نبقي في مرجعيون واخوانك
مثل الاميرات في بيروت ؟

وكلفه اللحاق باخوانه « الاميرات » كثيراً من النـدم
والجهد ، ولكنه من النوع الذي يخترع مشاريع لا تنتهي .. وكان
يقول في نفسه : « خلقت لأكون مخططاً » . وخلال الأشهر الستة
التي قضاها عاطلاً ، كان يفكر على هذا النحو : « ساعتى لم تأت بعد »
وكان يعتقد أن ساعته ستأتي يوماً .. وهاهو اليوم على شيء من أمل ،
بل على يقين أن هذه الساعة اقتربت .

وقال في نفسه وهو يتلمس الرسالة « لن يحكمني زميل
الدراسة القدر .. ففي بحر اسبوعين عرض علي العمل في مؤسستين ،
مؤسسة تجارية أكون فيها المسؤول عن المراسلات ، ومؤسسة

صناعية للحدادة الفرنجية أكون فيها المسؤول عن المكتب برمته ..
أما الأجر فمساو تقريبا في المؤسسات الثلاث ، ولسوف تتاح لي
فرصة الاختيار هذه المرة .. سأكون سيد مصري .. أقول كلمتي
في غير خوف من فقدان العمل ... أقولها لصالح وقتي وثقافتي .

وتوقف فجأة ليتقي سيارة مسرعة ، ثم استأنف سيره
وتفكيره « علي أن انتقي العمل الذي لا يستهلك كامل وقتي ، فانا
صاحب مهات ! (وهنا قلمس الرسالة من جديد) ولدي مشاريعي
الأدبية : اليوميات ، والقصة ، وترجمة « كتاب صديقي »
لأناتول فرانز ... »

وظل يسير ، وكذلك يفكر ، ويخترع مشاريع عجيبة
كعادته ، فيما الليل يهبط رويدا رويدا على بيروت .

- ٤ -

لفتت فياض حركة مفاجئة في النافذة المقابلة .. بدا وجه
انثوي يرنو اليه ، فيما كان يتابع المارة من وراء ستارته بفضول من
ينظر من كوة سجن . تساءل : هل كانت ثمة نافذة ؟ ، وقال في
نفسه : لا بد انها كانت .. فهذه الدار ذات الطابقين موجودة منذ
وجد الحلي ، وهذه النافذة قائمة منذ قام البناء ، ولكنني ابدا لم انظر
الى البناء والنافذة نظرة خاصة .. لم ألق نظرة خاصة على ايما شيء ،

فكيف حدث ان استغرقني افكاري حتى صارت نظراتي تنزلق على
صفحة الاشياء دون أن تميزها ؟ ،

بلى ! كان يرى في النوافذ والشرفات بعض الوجوه ،
لكنها وجوه كالتى يعبر بها الانسان في طريق ، أو يراها في اجتماع
عام ، فلا يستوقفه منها وجه بعينه . وحين كانت تلتقي نظراته
بنظرات جيرانه ، كان يتراجع ، يرخي الستارة ويعود الى جدران
ليلوب بينها .

اليوم فقط وقع شيء مباغت .. ومضة برق انارت واختفت .
حركة موقظة كالصوت في البرية .. وهو لا يذكر بعد ذلك سوى
أن جداراً كان بينه وبين تلك النافذة فرغ دفعة واحدة . وقال في
نفسه : « هل كان ما رأيت مهياً ام لعبت المصادفة دورها فيه ؟ »

اعتصر مخيلته لاستحضار كل تفاصيل الوجه الذي رآه ،
وتوصل ، دونما رغبة في المناقشة ، الى ان النظرة كانت متعمدة . وبني
على هذا التعمد فرضيات ، من بينها انه مرصود ، وان ثمة من يراقبه ،
ويعرف أن ستارته تنزاح ووجهه يبدو ، فتساءل : « من يكون
ذلك الوجه ؟ »

ذهب في الغرفة وجاء .. طرح أسئلة واجاب عليها ، وطرحها
من جديد وأجاب عليها من جديد .. ومع يقينه أن اليوم كالأمس ،
وان الجدران هي ذاتها ، والعتمة هي بعينها ، والفرش المرقوعة ،

والاسرة المركومة ، والكوة الواسعة هي هي ، مع كل ذلك كان يحس انه يسكن الغرفة للمرة الأولى .

استلقى على سريره وراح يحلق في بياض السقف ، وينقل طرفه بين الأشياء ، ويراقب انعكاسات النور الخارجي ، وظلال شجرة المشمش ، والشعلة الصغيرة المتقدة . كانت الافكار السريعة البهيجة ، تأتي وتذهب ، تحوم كالسنونو ، ومثلها لاتستقر على حال .

فتيح كتابه وطواه . نظر الى الستارة المسدلة واولاها ظهره ، ولما لم يكن لديه ما يعمل ، فقد ترك نفسه على هواها ، مضى الى الطاولة واشعل سيكارة ، ونقر باصابعه على خشبها في عصبية يوقع لحنا ، واتي بعشرات الحركات التي لالزوم لها .. كانت صورة الوجه الانثوي تزحزح الصور الاخرى وتحتل مكانها .. وحتى الافكار اليومية المعتادة تراجعت واحدة بعد اخرى ، وافسحت المجال لفكرة الوافدة الطاغية : « من هي هذه المرأة التي نظرت بهذا التعمد من النافذة ؟ »

راوده الشك : « هل كان ذلك تعمداً ؟ وما يدريني انها لاتنظر الى وجه آخر باتجاهي بطل عليها من الطابق الاعلى ؟ » واحتياطاً للمستقبل ، قال في نفسه « وماذا يهمني من أمرها ؟ لتتظر حيث تريد ، فلست طالب حب ، ولا مطمح لي في غزل .. انا اشبه بالسجين ، والسجين لا أمل له في عابرة طريق » . وصاحت غرائزه :

« عابرة طريق ؟ » وقال هو : « لا . . انا لا أستطيع تضليل نفسي بهذه السهولة . . ليست عابرة طريق . . انها موجودة ، قبالي موجودة ، ويكفي ان اذيع الستارة . . لقد نظرت الي ، ولم تكن نظراتها جافة ، ولا منكرة . . لم يكن فيها احتجاج على استراق النظر . . ثم انني لا أسترق النظر . . هي تعرف انني لا أسترق النظر ، ولا خطر لي أن أفعل ذلك . . بالعكس ، هي التي فعلته ، وأنا لا أنكر عليها ذلك . الرجل لا ينكر على المرأة ان تسترق النظر اليه ، يعد ذلك سعادة ، كرمًا منها ، بل أحلى كرم ! »

قالها وتحرك كالنوم مغناطيسياً نحو النافذة . . وقف يتلفت حذراً لئلا يراه احد من أهل البيت ، ولما صار وراء الستارة اخذته ارتعاشة خفيفة . احس بحرارة اذ تخيل الوجه الوضيء ، المؤطر بشعر مسبل ، فوق عنق ابيض . . وتمثل الكتفين ، رمانتي الكتفين ، فتصاعد الدم الى رأسه ، وخرج نهائياً من نطاق التردد والحذر .

مد اصبعه الواجفة ، وامسك طرف الستارة بانفعال ، ثم جمع نفسه في الطرف الآخر من الفتحة ، مجتهداً في ان يراها ولا تراه . ولما تم له ما أراد ، ارسل نظرة خاطفة باتجاه النافذة المقابلة ، ولم يلبث أن أرخى الستارة ، وعاد متباطئاً الى قاع الغرفة . .

كانت النافذة المقابلة مغلقة هذه المرة ، كانت وهماً ، فـلـ ينقلب الوهم الى حقيقة ، مرة اخرى على الأقل ؟

« صار ذلك يوماً . المعلمة قالت له : « ستعرف هذا حين تكبر ، وقد عرفه وهو صغير . . المعلمة الحبيبة تلك انقطعت عن التدريس . قيل في المدرسة تزوجت . ولقد عتب عليها لأنها تزوجت . شعر انها اساءت اليه . صورتها ظلت في المكان الأعز ، وقد رآها مرة بصحبة رجل ضخم . الرقيقة بصحبة رجل ضخم . وبطنها منتفخة . . ور كض هارباً . . لا . . ليست هي . ظل يتساءل : كيف تستطيع الا تأتي الى المدرسة ؟ وظل يتساءل : كيف يستطيع الكبار الا يلعبوا مثل الصغار . ؟ وجاء يوم لم يعد هو نفسه . يأتي الى المدرسة ، ثم لم يعد هو نفسه يلعب كالصغار ، انما زواج المعلمة ظل مرفوضاً مدة أطول ، ظلت ابتسامتها ، رائحة الانثى في عنقها ، ثيابها ، تصنع احلامه الاولى .

وخلا الاطار . . خرجت منه صورة ودخلت صورة . احب مرة ومرة ، ولكن على طريقته لا طريقة أبيه . كان محبوباً أكثر من كل فتیان الحي . كان شاذاً أكثر منهم ، وكذلك مدلاً ، وقالت له امرأة مشبوهة ومجتنبه بسبب ذلك : « انت تعجبني . . عيناك تلمعان ، عيناك عجيبتان ، والى السجن حملت له الطعام ، تطوعت في حمل الطعام ، وعاركت الدرك حتى رآته . ولما زارها ، بعد خروجه ، اكرمه على طريقتهما . فعلت ذلك ببساطة ، ولكن بسخاء . وحذر الجيران أمه ، فقالت : « لن امنعه من زيارتها . . هي وحدها جاءت وشجعني يوم اوقفوه ، ثم حملت اليه الطعام . »

وقال الأب « لماذا تمنعه ؟ » وجرب ان يزورها هو ايضاً ، لكنها صدته قائلة : « الابن لا الأب .. شبت من الرجال ، فلوى حنك وعادته طبيعة الذئب امام الشاة .

ثم كبر الفتى .. صار معلماً ، وكبرت ضيقته في الحى .
صار الفتيات يرهبنه « رباه كيف يدخل السجن ! ؟ » ومع
الرهبة صار اعجاب ، صار حب .. واجمل الفتيات ، اكثرهن صدأ ،
منحته شفقتها ذات ليلة .. الليلة التي خرج فيها من السجن ،
مكافاة له على السجن . كانت طويلة ، مؤطرة الوجه بشعر اسود ،
كفتاة النافذة هذه ، ومثلها ابتسمت له ، فقال في نفسه : « وهم ! ،
والوهم صار حقيقة ، ولماذا لا يصير الآن ايضاً ؟ . »

- ٥ -

كان المفروض ان تعود ام بشير في المساء او اليوم التالي ،
ولكنها غابت ولم يظهر لها اثر ، فقال في نفسه : « اخطأت ! » .
حملته الظنون في اتجاهات شتى ، واغتم في وحدته دون ان يفاتح
خليل في الامر .. اولاً لا يريد ان يقول له انه كلف ام بشير بمهمة
من هذا النوع .. وثانياً لن ينتفع بشيء لو قال . سيطرق خليل
كعادته ، معبراً عن انتقاد مبطن . أما اذا علم ابو خليل ، فالنتيجة

حرمان ام بشير من دخول البيت . وكان فياض يعرف ان ام بشير
تهزل أكثر مما تجدد . . شجاعته فقط جعلته يعتمد عليها . ثم ليس له
سواها في إيصال الرسالة الى العنوان الذي احتفظ به لوقت الحاجة .
الوضع السياسي متوتر ، وعليه ان يطلع اصدقاءه على انه فشل في
الاختباء في هذا البيت المكشوف . وهو واثق ان الجيران يعلمون
بوجوده ، ويرونه عندما يخرج الى المرحاض ، اضافة الى ان لسان
ام خليل قد أدى مهمته في الثرثرة ، وعليه أن يتدبر أمره .

بدا خليل مشغولاً هذه الأيام . . ازدادت اجتماعات النقابة
وطالت حتى لم تعد ام خليل تنام ، فدخلت على فياض مشاكسة :
- اسمع يا فياض . اسمع يا ابني . خليل اخوك ، فانصحه
بالابتعاد عن الشر . . خليل يلعب بالنار يا فياض .
- وما هي النار التي يلعب بها ؟ .

- الا تعيش في البيت ؟ ألا ترى الاجتماعات ؟
- هذه اجتماعات نقابة . . العمل في النقابة غير السياسة
- انا لا أفهم هذه الأمور . . اقول لك خليل يلعب
بالنار ، وسيحرق نفسه ويحرقنا . . الا ترى حالنا ؟ لا توجد ثياب على
ظهورنا ، ولقمة الخبز لا نحصل عليها إلا بألف جهد .

- اذن على ماذا نخافين ؟

قالت ام خليل مدعورة :

- على ماذا اخاف ؟ اخاف عليه .. الم تخف امك عليك ؟

الله يساعذك يا نزهة !

سكت لسكي لا يشور ..

« نزهة بعيدة الآن .. لقد خافت هي الاخرى ، وسمع
منها نفس الكلمات .. ولكن ماذا بعد ؟ دعها تخف .. اكثر
الامهات يخفن .. حياة البيت .. آه يا ام خليل .. لو عملت خارجه
يوماً كام بشير .. مها يكن فانا لست من رأيك ، ولكني احتفظ
برأبي .. دعيني .. لاتعذيني »

وقالت ام خليل التي لاحظت ان فياض نسي وجودها :
- انت لا يهمك ان نحترق .

فنهض فياض عن السرير وقال :
- ارجوك لاتتهميني .

- انا لا اتهمك .. ولكن خليل يحترق ..
فغمغم بنبرات قاسية :

- كلنا نحترق !

وانتفضت ام خليل ، ثم انسجبت مغيظة وهي تقول :

- نحترق ولا نبتعد عن النار ؟ جنون !

فقال فياض في نفسه : « نحن بحاجة الى بعض الجنون . »

قرر ان هذه الاسطوانة ستعاد في السهرة فتمتم : « لا اريد

سماعها مرة اخرى .. سأمكث في الفراش متظاهراً بالنوم » ..

غير ان السهرة مضت على نحو آخر .. امتلأ البيت بالضيوف ..
جاءت اخوات ام خليل وازواجهن وابناؤهن .. ولأنهم يعرفون
بوجوده فقد خرج وجلس معهم ، ثم اطلت ام بشير ، فقال في
نفسه : « جاء الجواب » .. لكنها كانت مشغولة بقضية اخرى ،
وقد طرحت ، في هذا « المجلس العائلي » ، موضوعاً لم يخطر لاحد على
بال . كانت لديها صفة زواج شغلها عن كل شيء ، حتى عن
جواب الرسالة .

وللتعبير عن جدية الموقف ، والارجح لاكتساب
ابي خليل ، حملت معها زجاجة عرق ، وضعتها على الطاولة
وقالت للجميع :

- اشرىوا ودعونا نتحدث بدون مزاح .

وضحك الحاضرون فيما ابوخليل يفتح زجاجة العرق
ويتذوقها بانتظار الكؤوس .. وسرعان ما بات الارتياح في
وجهه ، فادركت ام بشير انه لا يعارض في بحث موضوعها ، وعلى هذا
تحننت وقالت :

- العقبى لأولادكم .. جميعكم مدعوون الى العرس .

والتفت الى فياض وازافت :

- انت ايضاً تفضل اذا استطعت .

فتدخل ابوخليل في قول حاسم :

- اتركي فياض جانبا .

وقالت ام خليل نافذة الصبر :

- الدعوة وصلت .. ولكن العرس لمن ؟

- عرسي !

فصاحت الاخوات الثلاث بصوت واحد :

- يا شيبة الكلب !!

وقال ابو خليل وهو يملأ كأساً جديدة :

- اتركونا نفهم .. (والتفت الى ام بشير قائلاً) ومن هو

العريس ماشاء الله ؟ ومتى تتزوجين ؟

- انا لم اقل سأزوج .. انا سأزوج .

- هه (قال ابو خليل مستدركا) هذه مسألة ثانية .. ومن

هو الذي ستزوجينه ؟

- ابن البيك .

قالت ام خليل :

- انت تزوجين ابن البيك ؟ واي بيك هذا يا مجنونة ؟

- بيك بالاسم .. اما في الواقع فعلى الارض ..

قال ابو خليل : - هذا عمل خير !

- وعمل شطارة !

- حلال على الشاطر .

فمدت ام بشير يدها الى صدرها ، ونثرت ورقة نقدية القت

بها على الطاولة وقالت :

- تعجيني يا ابو خليل .. كلامك حلو .. وهذا ثمن قنينة عرق ثانية .. اشربوا .. اشربوا على حسابي .. انا اشتغلت وحلال على الشاطر ، انا آكل واطعم .. المثل يقول « الذي لا يطعم التسعة لا يأكل العشرة » ، وأنا سأطعم التسعة والنصف ، سأطعم العشرة كلها .. حرة ام لا ؟

- حرة والى حرة !

إزدهت ام بشير ووضعت رجلا على رجل واردفت :
- الحياة لا تقتل الا الذي يخافها ، وانا ، بحمد الله ، لا أخاف الحياة .. انا امرأة ورجل .. ربيت اولادي وزوجتهم ، ربيت نفسي ، وعملت الخير ، واشتركت في المظاهرة ..

نحركات اسطوانة ام خليل ، فبادر ابو خليل الى رفع « الابرة » ، وقال لأم بشير بلهجة أمرة :

- لاتدخلينا في السياسة .. خيلنا في الزواج .. من هو ابن البيك هذا ؟

- ستعرفون .. لاتستعجلوا ..

واشعلت سيكارة وازافت :

- تعرفت عليه في معمل العسيلي في الاسبوع الماضي . قال لي انه غريب وفقير ويريد السترة : سألته : السترة ام الجمال ؟ قال : السترة . قلت : عال ! تعجيني ، العاقل من ستر نفسه .. مطلوبك

عندي .. خطفت رجلي الى بيت زكية وقلت للأم : مارأيك في تزويج البنت ؟ قالت : يد الله ويدك . قلت : سوق الزواج واقف هذه الايام .. وبنتك في حيطان الاربعين ، فكم معها ؟ نهايته .. بعد زيارتين كانت الطبخة مطبوخة ، العريس غير مسؤول عن شيء .. يغسل رجله ويدخل .. صهر بيت ، ما قولكم ؟

صاح الجميع : - ممتاز !

- ممتاز وبس !؟

- وكم اخذت على هذه الزيجة ؟

- ١٥٠ ليرة .

قال الشباب : - مبلغ محترم .

- واخذت مبلغا محترماً لكم ايضاً .

اتسعت العيون دهشة : - لنا نحن ؟ لماذا ؟

- لاجل الفرح .. البنت وحيدة لامها ، وقد تشكت من

هذه الناحية ، فقلت لها : لا عليك ، اولاد اخواتي موسيقيون ،

وسنعمل للمحروسة فرحة على الكيف .

هنا تدخل خليل ، باعتباره ضابط ايقاع سابق وسألها :

- كم المبلغ ؟

- هذا عامل مثلكم ، فقير وطالب سترة .

- عامل على الرأس .. لن نأخذ منه مثل الميسورين .. ثم المبلغ

من ام العروس .

— ام العروس رفضت الدفع .

— اذن فلا حاجة للفرح .

— اي عرس بدون فرح ؟

— وفرح بدون فلوس .. ؟

قال ابو خليل بصفته رئيس السن :

— هنا العقدة ، وهذه لا يحلها اللسان وحده .

— المبلغ ٣٠ ليرة .. ادفع لكم ٣٠ ليرة .

قال خليل :

— تدفعين ١٠٠ ليرة وانت مرتاحة .

— ٥٠ ... والله لا أدفع فلساً زيادة .

— وبالله لا أحد يكسر يمينك .

تدخل أبو خليل لدعمها . كانت زجاجتا العرق قد كسبتاه

نمائياً الى صفها ، ولم يكن العرس كله يسوى اكثر من ذلك ،

فتردد خليل والشباب ، ثم وافقوا شريطة ان يكون المشروب

والمأزة كافيين . فقالت ام بشير وهي تضرب على رأسها :

— هذا الشرط على قرعتي .. اشربوا حتى تسكروا ...

اتفقنا ؟

واجاب ابو خليل نيابة عن الطرف الثاني كله :

— اتفقنا !

انصرفت أم بشير مع الآخرين دون أن تلتفت الى فياض
أو تقول شيئاً عن جواب الرسالة . خيل اليه انها نسيت رسالته .
صفقة الزواج استغرقته تماماً . كانت تضعك كأن ليس في الدنيا
هم . وقالت تتحدى الجميع : « أنا لا أخاف الحياة » .

فكر : « هذا رأس الحكمة ومفتاح السر » . وقال في نفسه :
« تعلم اذن هذا الدرس . تعلمه من امرأة ، وماذا يضيرك ان
تتعلم من امرأة ؟ » .

واضاف : هم ضحكوا ايضاً . ضحكوا من كل قلوبهم ، فمتى
اضحك من كل قلبي انا ايضاً ؟ . خليل ، الجاد القاسي ، ضحك ايضاً .
وافق على الذهاب مع « التخت » لاحياء الفرح ، وسيضرب على
الدف .. آه يا ضابط الايقاع . انت خلقت لضبط الايقاع ، فمن
اين جاءتك هذه الصلابة ، من صنع لك هذه الأعصاب ؟ ،

ويغني ؟ وقال لي : « غن يارفيقي ، غن ، من اجل الذين
هناك غن ، .. والذين هناك يغنون ؟ والدرب الطويل ؟
ايها السائرون عليه ، ارفعوا رؤوسكم ، غنوا ، رغم السياط غنوا ،
رغم السلاسل غنوا . لا تخافوا الحياة ، الحياة لا تقتل الا من يخافها .
ام بشير قالت ذلك .. انتم لا تعرفون من تكون . قصة الفساتين
الحمراء ، ومظاهرة عمال الريجي ، « والشمعة والمغارة » لم تبلغكم .
وليس بينكم من سمع بخليل ، وقليلون الذين عرفوا جيل التضحيات

والآلام والبحث في الظلام عن قيس من نور ، لان أحداً لم يكتب
قصته بعد ، .

نام كل من في البيت وهو مسهد . لو كان في وسعه ان
يوقظ خليل لقال له : « يا صديقي ! علمني ان اضحك مثلك .
دعني أقبلك . انت قامي ، وانا أعرف سبب قسوتك . الأم الحقيقية
صاحت بسليمان : « لا تقسم الطفل ، انه طفلي ، وانت تصيح :
لا تتخلوا عن الدرب ، انه دربي ، عليه آثار اقدامي ، عليه الدماء من
اقدامي .. لا تهدموا البنيان ، انه بنياني ، بنياننا ، انه لنا ، ايننا ،
شرفنا ، رجاؤنا ، مستقبلنا . لا تقسموه ، لا تتخذلوه ، لا تهاونوا في
امره ، لا تياسوا من نصره .. غنوا ، غنوا ، ولنغن للذين
هناك ، ونحت كل كوكب ، وفي كل مكان ، وفي كل سجن ،
وجميع المضطهدين ، فلنغن . »

جلس فياض في فراشه وقد تسامت أشواقه . آه لو
يستطيع أن يصور أحاسيسه في هذه اللحظة .. مارد هو لا
غلة في قرية النمل . مارد بين مرده . قادر على تخطي تخوم ذاته .
قادر على فعل ما يطلبونه منه . ليقذفوا به في وجه كتيبة . ليرسلوه
الى مصارعة الاسود متحدياً وثنية الاباطرة . بلال ! يا بلال ! يا مارد
الايمان في وجه أقزام الجاهلية . يا حسن الحراط ، يا حارس دمشق ،
غورو جلا عن دمشق ، وجنكيز خان ذكرى كتيبة وملعونة .
نحن وهم ، وهم يحكمون الآن ، الرجعيون يحكمون الآن ،
ولسوف ينتهي حكمهم يوماً .. سينتهي حكمهم يوماً ، ولأجل ذلك
علينا أن نعمل ، ولأجل ذلك علي أن أكتب .

« أنظر يا منالم ، صورة من هذه ؟ آه لو تعرف ان تقرأ ..
كنت قرأت لنا ما كتبه فياض » واذا كنت لأعرف القراءة ؟ .
الفهم مقصور على القراءة فقط ؟ ابنك يشتغل في السياسة .. في الصحف
لا ينشرون إلا صور الذين يشتغلون في السياسة ، خليل لم ينشروا
صورته . أنا لم أر صورة خليل منشورة في الصحف أبداً . « هذا
لا يمنع .. المرأة لا تعرف اكثر من الرجل ؟ أي زمان هذا ؟ أقول
لك فياض يشتغل في السياسة . هذه نتيجة الكتب .. صدق منامي ،
ابنك جن بالسياسة ، كنت اعرف أنه سيجن » ، ولكن بنت الجيران
قالت انها قصة .. « بلوطة .. أليست كتابة ؟ الكتابة سياسة ، افهمي
يا امرأة .. » . امنعه اذن .. قل له ان يترك .. ولماذا ؟ دعيه .. الذي
يجن بشيء لا يشفى منه .. الذي ينزل البحر يبل رجله .. من يقرأ
الكتب يكتب مثلها ، وماذا يكتب ياترى ؟ لو كنت افك الحرف !
يابني الصغير ، المعلمة قالت انك ستكون .. وقد صرت .. ترى !
المعلمة تقرأ ما كتبت ؟ وتعرف صورتك الجميلة ؟ وهذه الخربشة ..
كتبتها أنت ؟ ومتى كتبتها ؟ في الليل ؟ لا تكتب في الليل .. اءتن
بصحتك ، لأجلي اءتن بصحتك .. نعم كثيرا حتى تسمن ، نعم كثيراً
حتى أراك وأفرح بك . »

ونام فياض .. طلعت الشمس ، في اليوم التالي ، وهو
نائم . كانت الغرفة مشوشة ، والفرش مبعثرة ، والباب مغلقاً . فلما

فتع عينيه ، أمر في نفسه شاعراً بالجميل : « حرصوا على عدم ابقاظي . »

كانت سكونة تامة تحيط به ، وليس من أحد في البيت . فتع الباب الفاصل بين الغرفتين ، وخرج يتنصت باتجاه المطبخ ، وتطلع الى الحديقة : لأحد ! عاد واستلقى على السرير ، مستمتعاً بهذه الحرية التي اتاحها له فراغ البيت .

ام خليل وكنتها وطفلها في زيارة لبعض الأقرباء . وقد استدل من نهضة الفطور له ان الزيارة ستمتد الى الظهر ، واذا ذاك ايقن انه سيكون وحيداً في هذا البيت الذي يحرص على الا يلاحظ احد من اهله اي سوء في تصرفه . . سيكون وحيداً ، وفي وسعه ان يقف حيث يشاء . خفق قلبه ، وابتسم وتمتم « ولم لا ؟ »

كان على يقين ان الوجه سيطل ، ولو مرة واحدة حتى الظهر ، واذا كان الاحساس متبادلاً ، فان الفتاة في البناية الأخرى تتوقع انقراج الستارة . قال في نفسه : « لاحظت من غير شك ان البيت خال . . هذا واضح من المطبخ والحديقة . . وفي هذه الحال ، كيف تتوقع انقراج الستارة ، الا ان تكون عالمة بالسر ؟ » ثم اضاف : « علي ان اتأكد الآن . . سأجלו هذه النقطة . . رأيت الوجه في الأيام الأخيرة بضع مرات . . كان البيت مليئاً ، والباب مفتوحاً ، وكان وجودي له ما يـبرره . ربما حسبتني احد افراد

العائلة ، ولكن الآن؟ ما هو المبرر لوجودي في بيت اهل غائبون ؟
اذا كانت تتوقع ظهوري وراء الستارة ، فهي عالمة بأمرى اذن ، .
قطعت الحوار ، بعد قليل ، الابتسامة الصادرة عن النافذة
المقابلة . فتاة البناية المواجهة كانت هناك ، في نفس وضعها السابق ،
وعيناها تتركزان على نافذته ، ولعلها رأت اهتزازات الستارة قبل
أن تفرج ، فخفق قلبها ، وارتسمت ابتسامة سرور عفوية على شفيتها ،
وتثبتت نظراتها بشكل انتفى معه كل شك .
لم يتراجع فعله سابقا . . نسي أن يفعل ، وربما لم يستطع .
كانت الفتاة تبسم . . له تبسم . . آه . . وأنا الذي كنت احسب
اني غريب ! ، .

التحق بالجدار . . ووجد ذراعه ترتفع وتشير اليها ، ومن
النافذة الأخرى ارتفعت ذراع وإشارت اليه . وجعلت الغرفة تدور ،
وانفتح باب ، وانسل جسم ، وارتعشت شفاه ، ثم ازت نوابض
مرير ، وانشق قميص ، ونحورت حمامتان . . وفتح عينيه .
يا خمره قانا الجليل^(١) . . تباركت المعجزة !

— ٧ —

بعد ظهر الأحد ، خلا البيت كرة أخرى . ذهب الجميع
الى العرس تلبية لدعوة ام بشير . واغتتم فياض الفرصة ليعملى الشجرة
المحرمة . قالت الافعى لحواء : « كاي يا حواء من الشجرة المحرمة ، .

(١) حرس قانا الجليل الذي تحول فيه الماء الى خمر .

وقطفت حواء تفاحة واغرت آدم ، وأكلا فوجدا نفسيهما عارين .
الفتاة ، وراء نافذتها ، تفكر بجواء . وفيماض ، وراء
نافذته ، يفكر بآدم . وام بشير في العرس ، تحمل خطيئة اكل
التفاحة المحرمة ، واثقة ان ما يحلونه على الارض يكون محلولا
في السماء .

كانت منهمكة في اعداد حفلة الاكليل منذ الصباح ،
وقد طغى وجودها على وجود ام العروس . هي التي اشرفت على
الترتيبات كلها ، وكانت تقول لام العروس كلما لاحظت تباطؤها
في تلبية رغبة ما :

- سيكون العرس اجمل يوم في حياتك ، وفرحته اكبر
فرحة في عمرك .. العريس ابن حلال ، شاب لا قلب لك انت
ترشقيه بوردة ، وهو اعقل من بنت البيت . (وخفضت صوتها
واضافت) وفعل . ظاهر من وجهه ، كيف كان المرحوم زوجك ؟
لا تنجلي ، لا عيبة في الحلال ، هذه الناحية يجب تقديرها ايضا .
انا لا ازوج النساء للنساء . ام بشير انتقت لبنتك عريسا ولا كل
العريسان (وبعد وقفة) لقد تمنيت ، والكلام بيننا ، (قالت ام
العروس : تحت نعلك) لبنت اختي ، ولكن انت اختي ايضا ،
وبنتك غالية علي مثل بنتي .

قالت ام العروس :

- عشت .. من يسع بالخير يشف الخير .

قالت ام بشير : هذا هو القصد ، وخاصة في هذه الايام .
السينما افسدت الشباب . بنات مثل الورد ، وشباب مثل طرايين
الحبق ، ولكن من يتزوج ؟ الاخلاق ، اعوذ بالله ، فسدت .
المرحوم تزوجني قبل ان ابلغ الرشد (فقاطعتها ام العروس : انا
تزوجت ، يا حسرتي ، بنت عشر سنوات ، وتزملت بنت عشرين .
ماذا رأيت من حياتي ؟) ، فحدجتها ام بشير بنظرة تكذيب وقالت :
لا تتعسري ، لم يفت الوقت ، اذا كان بنفسك فلا تحرمها ، اعتمدي
علي ، بالمال ولا بصاحبه ، نومة دافئة تسوى الدنيا .. تسوى مال
الارض ... سياتكلنا الدود غدا .

- يا ويلى . لا تذكريني بالدود .

- بعد عمر غريل .

- صدقت ، ولكن هل يمكن ان اتزوج ؟ وفي مثل

عمري ؟ عيب .

- لا عيبة بالحلال .. لا يوجد عيب .. هاتي الزوج الموافق

وانا نفسي مستعدة .

- الله يطعمك .

- ويطعم القائلة ايضا .. الله يطعم المشتاق .. الزواج

مسترة في هذه الايام .. زماننا يا اختي مضى ، الشباب لا يتزوجون

اليوم ، ولـماذا يتزوجون ؟ انزلي الى البرج ، اعوذ بالله ، البنات
تتعرش بالشباب في عز النهار .. وفي الليل ؟ لا أحد يعرف الحياء .
صرنا مثل القطط في شباط ، وبيوت الهوى على عينك يا قاجر ، ويا
ويل الذي عنده بنت مستورة .. اما الذي عنده بنت فوق الثلاثين
(وكانت العروس فوق الاربعين) فقد انتهى امرها ، تموت ولا من
يقول لها من انت .

— الى هذا الحد ؟

— واكثر .. سوق الزواج واقف .. في الشهر لا
يجري اكليل .

— صحيح ، والله صحيح ، كلامك ذهب يا ام بشير .

— كلامي واقع يا اختي . انا اعرف ما يجري ، واذا
سعيت في خير اسعى به للمستورات ، لبنات الحلال . وكنت
افكر في بنتك من زمان ، ولكن العريس الذي اريده لها لم يأت ،
وفجأة اتى ، حظها اتى ، واي حظ ، الله يطعم كل مشتاقة .

— الله يديك ، هذا من فضل الله وفضلك . قدرني المولى
على مكافأتك . اطلبي ، كل طلب منك على الرأس .

— لا أطلب شيئاً لنفسى .. انت اختي ، وبنتك بنتي ،
والفرح فرحي .

— يسلم فمك ، مسك ، تصرفي على كيفك .

بعد هذا التفويض ، تصرفت ام بشير على كيفها . اكدت
من الخمر والمآزة تنفيذاً لوعدها للشباب ، وارتدت الفستان الجديد
الذي اخاطته لها العروس لمناسبة الفرح ، واطلقت منذ الصباح ،
زغاريد متتابعة ، واوصت باقامة مأدبة قبل الاكل ، حضرها ،
اضافة الى العريس وام العروس ، ابو خليل وبعض الاقرباء .

وصار العرس في الموعد المحدد ، فعزف « التخت » ابهج
الحانه واغنياته ، ورقص العريسان ، ورقصت ام العروس وابو
خليل ، ودام الفرح الى منتصف الليل ، ثم انصرف الجميع ، وقال
خليل لام بشير : كيف رأيت العرس ؟
- تسلم ايديكم .

- بليّ (هاتي) اذن .

- على الرأس .. الدفع في البيت .

ساروا الى البيت ومعهم ام بشير . كان فياض فائماً
فاستيقظ ، وخرج من غرفته ليتلقى بعض حلويات العرس باعتباره
مدعوا معذورا .

كانت ام بشير مسرورة على نحو ظاهر ، وتريد ان تتكلم
على الفرح ، ولم تنس ان تقلد حركات العروس وامها ، وقلدت
كذلك رقصات بعض المدعويين ، فتملعل خليل وقال :
- خلصينا .. بليّ .

- طيب .. لماذا العجلة ؟

- الدنيا نصف الليل ، ولدينا غذا اعمال ، هاتي فلوسنا
وانت حرة .

- ومن قال اني سأ كل فلوسكم .

- طيب هاتي اذن .

- اما قلة ذرق .

صاحت ام خليل :

- قلة ذوق منك .. الاولاد يطلبون اجرتهم لاصدقة .

- ومن قال اني عاصية باجرتهم ؟

- ادفعيها اذن .

مدت ام بشير يدها الى صدرها وأخرجت حزمة من
الليرات ، ألقت بها على الطاولة وقالت :

- خذوا . هذه اجرتكم .

تناولها خليل وعددها ، وفجأة ضرب بها وجه الطاولة صائحاً :

- بلا اكل هواء .. هذه اربعون ليرة .. هاتي عشر

ليرات ايضاً .

- ولا فلس واحد .

ثاروا كلهم ، وتدخلت ام خليل .. علت الاصوات ، ولم

تتزعزع ام بشير عن موقفها :

- هذه اجرتكم .

- اجرتنا خمسون ليرة .. شرطنا خمسون ليرة .

- انا لا انكر .

- واين العشر ليرات الباقية .

- هذه حصّة ابني .. ابني غنى .

دهش الحاضرون لحظة ثم قالوا :

- ومن كلفه بالغناء ؟

- انا .. اتم عزفتم وابني غنى .

- ونحن غنيّنا .. انفلقنا من الغناء .

- غناؤكم بدون ابني فالصو (وملتفتة الى ابي خليل)

خدعتك بالله ، غنى ابني ام لا ؟ ألم يكن صوته مثل «البوري» . ؟

- نعم غنى .. وكان صوته مثل البوري .

- اذن العشر ليرات اجرته .. تعب .

قال ابو خليل :

- اذا كانت الاجرة حسب التعب ، فانا ايضا تعبت ،

ابنك غنى وانا صفقت .

انحنت ام بشير على المبلغ الملقى على الطاولة ، فسحبت

ليرتين وقالت : ذكرتني والله .. خذ .. هذه اتعابك .

انفجر الضحك دفعة واحدة ، وشارك فيه فياض حتى دمعت
عيناه ، وصارت ام بشير باتجاه الباب و خليل يتهددها .
- طيب يا ام بشير .. خذها مني ، في المرة القادمة نتحاسب .
وقال ابو خليل وهو يضع الليرتين في جيبه :
- لا تهددونا ، عند اللزوم نعمل اكبر عرس .. دربكة
« الشاقوف » حاضرة ، وانا اصفق ، وبشير يغني .
وصاحت ام بشير :
- يسلم فمك يا ابو خليل . (والتفتت الى الشباب و اضافت)
قال مزيكاته قال !

- ٨ -

في الساعة العاشرة من الليلة التالية دق الباب دقة غريبة ،
وعادت الكنة التي ذهبت لتفتحه مبعوثة : رجل يسأل عن فياض !
هب ابو خليل واقفا ، واسرع فياض الى الغرفة الثانية ،
بينما تحركت ام خليل بدافع من فضول ، فاقتفت خطوات زوجها .
كان امام الباب رجل غريب ، فخرج اليه ابو خليل راداً
الباب وراءه ، ورانت على البيت من الداخل فترة ترقب وصمت .
- نعم (قالها ابو خليل بجفاء ، دون ان يدعو الطارق الى
الدخول) ماذا تريد ؟

- هل خليل في البيت ؟

ارتاح ابو خليل فعدل لهجته :

- لا يا عيني ، ماذا تريد منه ؟

ولاحظ ، في نفس الوقت ، شخصا يقف عند باب الحديقة

من الداخل ، فعاوده الحذر . قال الشخص الواقف امامه :

- نحن اصدقاء خليل ، واصدقاء فياض ، نريد ان نراه .

- خليل غير موجود ، وليس عندنا شخص اسمه فياض ..

اخطأ الذي ارسلكم .

اطرق السائل وظهرت عليه الحيرة ، ثم استدار ومضى الى

الرجل الواقف في مدخل الحديقة .. كان ابو خليل يراقبها ، ويده

وراء ظهره ، تدفع ام خليل التي اطلت برأسها من الباب . كان شارباه

يتحركان بعصبية ، فهو منذ وصول فياض ، يترقب مفاجأة كهذه ،

ولو كان خليل في البيت لكفاه مؤونة هذا الموقف ، وعلى اية حال

ان يقول لها شيئا عن فياض ، ولن يسمع لها بالدخول . هو ليس

شابا ، ومع ذلك قادر على الدفاع عن بيته ، وسيفعل كأيام زمان

« حين كان يأخذ ثلاثة بصدرة » .. خوفه الوحيد أن يطل رأس أم

خليل من الباب او النافذة فتتكام وتفضع السر .

عاد الشخص ويده ورقة ، فاولها لأبي خليل قائلا :

- قد يكون هناك خطأ في الموعد .. خليل يعرف اننا

منزوره ، وانت تقول انه غير موجود ، فاذا كنت لاتسمع لنا بالدخول لانتظاره ، فالرجاء ايصال هذه الورقة الى ضيفكم ، وهو يعرف ..

فكر ابو خليل : « فح ، ؟ وقال في نفسه : « لا .. لن اسمع لهما بالدخول ولن اسلم الورقة لفياض .. عند اللزوم انا معه ومع خليل ، وفوق ذلك هناك كرامة بيتي .. »

- قلت لك خليل غير موجود ، ولاضيف عندنا .. تفضل (واعاد اليه الورقة) ومع السلامة .

قالها بحسم وجفاء وهو يغلق الباب بيده من وراء ظهره . ولكن أم خليل وقد تعذر عليها الاطلال من الباب ، كانت قد مدت رأسها من النافذة وقالت :

- خليل ابني .. ماذا تريد منه ؟

ومن هذه النافذة رأى فياض وجه صديقه الواقف عند باب الحديقة ، فاندفع ينادي :

- ياابو خليل ! هذا صديقي .. قل له انا موجود .. ادخله .

رفض ابو خليل بادىء الامر ، بل اغتاظ من تصرف فياض : « في هذه الأيام لاتوجد صداقات » ، لكن فياض فتح الباب ، ونادى صديقه فانزاح ابو خليل من الطريق ، وقد اضمر ان يعاتب فياض ويقسو في العتب .

قال الصديق لفياض ان الرسالة وصلت في حينها ، ولم يستطع
الاتصال به لاسباب قاهرة ، وعليه ، الآن ، ألا يطيل المكوث .
ثم اضاف : « ستذهب معي » ففكر فياض : « كيف السبيل الى
الى التفاهم مع ابي خليل الرابض ، كحارس مستقل ، في الغرفة
الثانية ؟ »

ولكن خليل انقذ الموقف بمجيئه . وكان والداه وزوجه في
حال من الترقب المرهف ، وهبت امه قائلة :
- في الداخل شخص غريب ينتظر .

وأطل الغريب من باب الغرفة قائلاً : « تأخرت » . فأجابت
أم خليل : « كان في الجامع » ، وانضم خليل الى الرجلين ، بينما
ظلت العائلة على نار بانتظار النتيجة . كان الوالد يدخن ، والوالدة
تدق على صدرها ، وظلت الكنة مبهوتة .

.. ولم يلبث خليل ان خرج ليعلن ان فياض ذاهب لتوه
وان اقامته عندهم انتهت .

- الى اين ؟ صاح ابو خليل وقد اجفل للنبا ، بينما قالت الأم
وكنتها بصوت واحد : يا حرام !

وما ان تبددت الدهشة حتى بدا الثلاثة معارضين ، سمعت
الكنة لنفسها ان تقول ان فياض متضايق من كثرة الاولاد ،
وعكست تعابير وجهها الاسبف الشديد لان مشكلة الاولاد لا حل

لها ، فيا قالت الأم : فياض لا يشبع عندنا . فرد الأب : يصيبه ما يصيبنا ، لن اتركه يغادر البيت . عندئذ تدخل الضيف في شيء من الجدد والحزم ، موضحاً ان بقاء فياض عندهم لم يعد ملائماً ولا مأموناً ، فقصر بصراحته على كل معارضة .. ثم عاد وطمأنهم الى ان فياض سيكون بأمن ، وسيزورهم من حين الى حين ، واذا تحسن الوضع فقد يعود الاقامة عندهم .

وشرع فياض بارتداء ثيابه . كان ذاهلاً قليلاً ، ورغبة مزدوجة ، في الذهاب وفي البقاء ، تسيطر عليه ، وقد مضى الى النافذة فأزاح الستارة ونظر .. لم يكن ثمة احد .. النافذة المواجهة مغلقة ، والظلام مخيم ، ومن يدري اين الوجه الحبيب الآن .

ارخى الستارة ببطء : « وداعاً للرأس الصغير الجميل » ثم حمل حقيبته وخرج . نظر اليه صديقه وضحك : « ما هذا ؟ » قال فياض : « ثيابي » . فسأله الصديق : « وهل تحمل ثيابك في حقيبة ؟ » فقال فياض محتاراً : « وكيف يحمل الناس ثيابهم ؟ » . عندئذ ربت الصديق على كتفه ملاطفاً وقال :

- انت لست كالناس .. تذكر هذا .. انت مسافر من نوع آخر ، بدون حقائب .. دع حقيبتك هنا وستصلك .

وفعل فياض ما طلبه الصديق ، فلما صارا في الشارع ، قال له بصوت آمر :

- اتبعني .

وتبعه .

- ٩ -

تبعه في شيء من حذر .. ما أشد قلق الأعمال السرية
وأكثر سحرها . الشوارع خالية تقريباً ، ونسمات لطاف تمر بصفحة
وجهه كتيار بارد فوق حرق غشائي على الخد .. سيارات تمر في
اتجاهات شتى .. وأضواء النيون .. ونجوم حیات في السماء ..
وبيوت الأشرفية تتراجع الى وراء .. والمجهول يبدو رصداً
من أمام .

كان فياض يفكر بالملجأ الجديد المنتظر ، وقلبه يلهم الى
التجوال على غير هدى في بيوت الصاخبة ، ذات النهارين ، والذراعين
الكبيرتين ، والشدقين الواسعين ، الى درجة ابتلاع كل الناس ،
وامتصاص كل الناس ، في نهم عجيب ، وسرعة بالغة .. ثم لاشيء .
وفي اعماقه كانت احساس اسيف بالحرية ، كذلك الذي
يستشعره السجين المنقول من سجن الى آخر ، فهو يرغب ان تطول
المسافة ، وان ينتهب الرؤى . وكانت صور الذين ودعهم تعتاده ،
وصور الذين سيلقاهم تتراءى له عبر تساؤل خيالي نشيط ، وقد رسم
للحياة الجديدة صورة لا يدري لماذا هي وليست غيرها ، فقد خيل
اليه انه سيعيش في كوخ بطرف بستان كبير ، بعيداً عن الناس ،

قرباً من الحضرة والشمس .. وفيما هو سادر، ابصر صديقه ينعطف ويتوقف ، ثم يدخل بناية كبيرة قائلاً : وصلنا ! ثم قرع ، في الطابق الثالث ، احد الابواب ، فظهرت امرأة شابة وراءها طفلة وافسحت لهما الطريق مرحة ، فدخلا يمشى على جانبيه الايسر بابان ، عرف في احدهما المطبخ ، وانتهيا الى صالون انيق ، فجلس صديقه ودعاه الى الجلوس ، وجاءت صاحبة البيت فسلمت ، وقام الصديق بمهمة التعريف فقال :

— نادر .. (وأشار الى المرأة و اضاف :) هاء ..

انحنى فياض للمرأة وصافحها ، متعجباً من اسمه الجديد . انه نادر الآن .. لقد انتهى ميشيل ، وانتهى فياض ، وعليه ان يحفظ ذلك ، عليه الا يتحدث بشيء عن ماضيه وهذا افضل .. سيتخلص بذلك من اعباء الحديث عن حياته الخاصة .

وحين ذهبت ربة البيت لاعداد القهوة ، لحق بها صديقه فتحدثا بضع دقائق ، وعاد اليه يودعه ويرجوله الراحة والعمل الطيب في هذا الجو الملائم ، وانصرف فوراً ، واعدأ بزيارته في أقرب فرصة !

كان الصالون واسعاً ، جيد الاثاث ، وعلى الجدران صورة أو صورتان فوتوغرافيتان مكبرتان ، وله باب جانبي على شكل قوس من الاعلى ، تليه غرفة صغيرة للطعام والشراب ، يحسب

الداخل اليها انه يلج كهفا في احد المشارب الحديثة . وفي نهاية
الصالون نافذة واسعة جداً ، بعرض الجدار كله عليها ستارة مخملية .
وعادت السيدة تحمل القهوة ، وترحب به ، ثم ابلغته ان
جوزيف ، زوجها ، سيتأخر في العودة ، ويستطيع هو ان يدخل
غرفته ويستريح ، واذا ما احتاج الى شيء فليطلبه منها ، وارتبه
الغرفة والحمام ، وحيته وانسعبت الى غرفتها ، فقام من فوره الى
غرفته ، وبعد قليل كان في فراشه ، يفكر أين نام أمس ، وأين
ينام اليوم .

- ١٠ -

عاد جوزيف بعد منتصف الليل ، فلم يوقظ فياض ، وفي
الصباح ذهب الى عمله باكراً ، وقد أوصى زوجته الا تزعج الاستاذ
وافتح حديثه معها قائلًا :

- لمن قرأت من الادباء للعرب ؟

- في المدرسة ؟

- بعدها .

فكرت هناء ، وقال جوزيف :

- لم تقرأي لاحد .. هذا واضح .

قالت محتجة : كيف لم أقرأ لاحد ؟ بدأت برواية ..

قاطعها : أعرف .. بدأت بها في شهر العسل .. واليوم

عندنا بنتان .. اسمعي ، لو زارنا فلوبيير أو موباسان فساد ،
كنت تفعلين ؟

- يا يسوع !

- لا تتعجبي . ضيفنا من هذا النوع .. فهمت ؟

- ولكن ضيفنا بشعر .

- وهل كان موباسان أقرع ؟

- أقصد ان ضيفنا شاب .

- كل العجائز كانوا شباباً .. المطلوب : عدم فتح الراديو ..

عدم الازعاج .. عدم « طق الحنك » .. عدم الكلام ، خاصة اذا
كان صافناً ، لأنه في تلك الساعة يناجي الالهام .. الكاتب انسان
غير عادي .. شاذ . أبرز شيء في الكاتب انه شاذ ! .

- أعرف .

- من اين تعرفين ؟

- حين تكتب انت قسب الدين .

- ياسلام ! سب الدين شذوذ ؟

- ولكن الاستاذ لا يبدو شاذاً .. لاشيء غير عادي ابداً .

- مهما يكن .. مهما يكن .. الانتباه واجب .. انا مشغول

جداً اليوم ، ملعون ابو المفروشات ، خشية كانت أم معدنية .

قال ذلك ومضى الى عمله .

* * *

جوزيف يشتغل الآن في معمل للمفروشات الخشبية والمعدنية
يلكه شريكه ، احدهما عربي كسرواني يؤمن بالله والعذراء وابنها
يسوع ، ولا ينسى تكريم القديس يوسف شفيعه ، وزيارة القديس
شربل في المناسبات ، ولكن لا ينسى ايضاً ان يشتم جميع القديسين
في المعمل ويعود ليطلب غفرانهم في البيت . اما الشريك الآخر
فارمني ، يلزم المعمل من الصباح الى المساء ، وقد حصر همه في
منازعة شريكه على السلطة ، ولأن هذا الشريك غائب ويمثله جوزيف ،
فقد وجه كل سهامه الى هذا « المندوب السامي » الذي بدا وهو يدير
المعمل كجنرال بدون اركان حرب ، وبدون جنود احياناً .

كان الشريك الكسرواني دكتاتوراً في محلة القديم ، فما
ان صار شريكاً في هذا المعمل حتى ظن نفسه صاحب مستعمرة وتحول
الى امبراطور ، وراح يعامل الجميع ، بما فيهم شريكه و « مندوبه
السامي » ، معاملة كلها احتقار .

وقد جهد جوزيف لتنظيم المعمل الغارق في الفوضى ، ولوضع
مخطط حسابي لائق . وقال في نفسه هذا الصباح « سأقلع عن الشتائم
منذ اليوم .. لن اسمح لأياً تفاهة أن تثيرني ما دمت أمام مسؤولية
فكرية ، وحين اعود مساء الى البيت يجب أن تكون استعداداتي
جيدة للتلقي .. لقد عشت طويلاً في غير اجوائي .. عشت بين الجرذان
في قسم قطع التبديل ، وأعيش بين الفئران في هذا المعمل ، ويجب
أن يتغير كل شيء . أنا اسكن مع اديب الآن .. مع اديب في بيت

واحد .. ذلك ما كنت احلم به .. كنت احسب ان الحياة العقلية غابت عني ، وها هي حياة عقلية في متناولي .. ستتفتح ازهارى ، ويصبح في وسعي ان اسمع رأياً في محاولاتي الادبية .. موباسان نفسه كان يطلب رأي فلوبير ، وجورج صاند ما كانت شيئاً لولا الصالونات الادبية .. الانسان يولد اكثر من مرة ، وأحسب اني اولد من جديد .. ان ساعة بعثي تقرب ، وسأشير الى ذلك في يومياتي .. فقط لتكف هناء عن الكلام والازعاج .. ليهم الله هناء أن تكف عن الكلام والازعاج ! ،

- ١١ -

حين استيقظ فياض في الصباح ، احس بدهشة لعمق السكون من حواليه . ولو لم يفتح باب غرفته لما دخلت عليه هناء حاملة قهوة الصباح التي قدمتها بكثير من الحذر واللفظ . كانت تحتل نظرات متفحصة لترى ما فيه من شذوذ ، ثم طفت تدور في البيت ووراءها صغيرتان جميلتان جداً ، صغراهما تجمع ، وتعلق باذيالها ، وتلقى دون قدرة على الرد ، مشاكسات اختها الأكبر ، والأنشط بشكل ظاهر .

قالت هناء :

- جوزيف لا يعود قبل المساء .. خذ حريتك في البيت

- ١٤١ -

، واجلس في الصالون اذا أردت، لكن انسحب الى غرفتك
اذا رن جرس الباب .

جاءته بصحيفة الصباح وبعض المجلات، وسحبت طفلنها الى
المطبخ واغلقتة دونها ، حتى سمع بكاء الصغيرة الجمعاء ، وخربشة
اظافرها على الباب كقطة حبيسة تحاول الافلات .

كان البيت نظيفاً ، مرتباً ، وحين وقف الى نافذة الصالون
العريضة ، طالعتة الحديقة التي تتوسط اضلاع البناية الكبيرة ، تطل
عليها الشرفات والنوافذ المقابلة والمجاورة . كان في وسعه ان يرى
الأشكال الآدمية ، وخاصة النساء ، كل وقت ، وبوضوح ، وان
يستمتع بالشمس ، ويعمل في هذا الجو الملائم كما قال صديقه .

وعلى مائدة الغداء اعتزم وضع حد للسلوك المصطنع ولحبس
الطفلتين بسبب وجوده . قال لهناء انه سيكون سعيداً اذا وجد
الصغيرتين تتمتعان بالحرية اللازمة لهما ، وانه سيكون ، خلال اقامته ،
واحداً من البيت ، فلا موجب للرسميات ومظاهر التكريم الزائدة
التي تجعله يشعر بالغربة .

عندئذ شرعت هناء تعود الى طبيعتها ، فراحت تتكلم بتحفظ
أولاً ، ثم روت له ، دون أن يتوقع ذلك ، اشياء خاصة ، كثيرة ،
تتعلق بالبيت والجيران ، وسألت ما اذا كان صوت الراديو يزعجه ،
فلما اجابها بالنفي ، فاجأته بهذا السؤال :

- هل تكره عبد الحليم ؟

- ابدأ .

- عال .. جوزيف يكرهه جداً .. يا يسوع يا استاذ !
هل يمكن أن يكره انسان عبد الحلیم ؟

سكت متجنباً معارضتها، واستأذنها في الانسحاب الى غرفته
حيث شرع بقراءة الصحف والمجلات حتى العصر، حين نادته لتناول
القهوة ، وجلسا يتحدثان كرة اخرى، وهي ما تفتأ تدس في الحديث
حكاية عبد الحلیم وبغض الرجال له . ولما سمعت صرير مفتاح الباب
وثبت عن مقعدها هاتفة :

- جوزيف !

واسرعت في المشى لاحقة به الى المطبخ المحاذي للباب ،
وبعد دقائق اقتنعم الصالون شاب وسيم ، فارع القمامة ، ابيض
البشرة ، يحمل الصغيرة على ذراعه ، ويمسح يده على شعر اخنها ،
ومن نظراته وحركاته يتبدى المرح والأناقة .

- اهلا بالاستاذ اهلا .. تشرقنا .

ادرك فياض ، من الكلمات الأولى ، ان صاحب البيت من
جبل لبنان . اسعدته طريقة الترحيب الصريحة ، القلبية .. وباغته
جوزيف بنبرة تأكيد :

- قصتك الاخيرة رائعة .

- قصتي ! ؟

ضحك صاحب البيت : « نعم قصتك .. أنا من قرائك
يا استاذ » .

سكت فياض راجياً أن يكون هناك اشتباه ، وصاح
جوزيف بوجهه :

- ههنا ! هل استراح الاستاذ جيداً ؟ هل أكل في مواعيده؟
قالها ، وهب واقفاً دون أن ينتظر جواباً .. كان خليقاً أن
يكون ممثلاً ناجحاً في الادوار الغرامية ، فهو جميل ، وشيق ، جم
الحيوية ، وقد تضاعف امتنان فياض حين عاد جوزيف ودعاه الى
أحدى الغرف ، وأشار الى رفوف الكتب قائلاً : المكتبة ...
تستطيع أن تطالع ما شئت .

ولحق به ، بعد قليل ، الى غرفته وقال :

- البيت كله تحت تصرفك ، لكن هذه الغرفة خاصة بك ، ولك
أن تمنع أي انسان من دخولها حتى أنا .. نعم حتى أنا .. الادباء
اصحاب ظرف ، يحلو الحديث معهم ، فازجرتني اذا انسقت الى
ذلك .. وقتك ثمين ، ومسؤوليتك كبيرة ، وينبغي أن توفر لك
اقصى الهدوء واقصى السرية . لقد عرفت انهم دأبوا المكان الذي
كنت فيه ، ومعنى هذا انهم يقتفون أثرك .

فتساءل فياض : « هل يقصد بالمكان الذي كنت فيه -
« مطعم الجبل » ام بيت أبي خليل ؟ » ولكنه لم يقل شيئاً .. رد

شاكرًا جوزيف على ضيافته ، بينما سحب هذا ابنتيه وأغلق الباب .
ولما بقي فياض وحيداً تذكر غرفته في بيت ابي خليل وحمد الله على
السرية ونعمة الهدوء هنا .. تأثر جداً بأقوال صاحب البيت ، وتحقق
من مسؤوليته كأديب ، فاعتزم اتمام قصته الجديدة بسرعة .. وبينما
هو يفكر بخاتمة لها ، طرق الباب بكثير من اللطف ، ودخل
جوزيف منهلاً :

- هل ازعجتك ؟ المعذرة . الادباء يدخلون كثيراً ، ومن
باب الاحتياط احضرت هذا « الكروس » من التبغ .. وهذه
الأوراق للكتابة .. أعمل .. أرجوك ، لا تفكر بشيء .. لانهم
بسوى الكتابة ، والك مطلق الحرية في أن تكتب متى تشاء ، وتسهر
الى أي ساعة تريد ، وتطلب القهوة في كل وقت ، واذا وجدت
البيت خالياً من الزوار ، يمكنك الخروج الى الصالون او المكتبة او
المطبخ .. تناول ماشئت من شراب او طعام دون دعوة منا ..
أرجوك .. كن كأنك في بيتك ، وحافظ فقط على نفسك .. من
الضروري الا يعلم احد بوجودك هنا ، أرجوك . لا تقلق . ولكن
احترس ، غداً آتيك بما ترغب من مجلات ، ولك أن تختار الكتب
التي تريدها وتنقلها الى غرفتك ، وهكذا تجد نفسك ، بقدر الامكان ،
في وضع مريح صالح للعمل .

ومرة أخرى سحب طفليته وخرج على رؤوس أصابعه ،
كأنه يطاء المكان المقدس ، تاركاً أفضل انطباع في نفس فياض الذي

ذهل لهذا التكريم ، وقال في نفسه : « مقامي هنا سيكون مشمراً جداً .. كل شيء يدعو الى الراحة والعمل » .

اشعل سيكارة وصمم على الشروع بالكتابة من فوره ، غير أن طرقاً خفيفاً تعالى على الباب ، واطل منه جوزيف :

— عدم المؤاخذه .. أنا ذاعب في عمل خاص (قالها بتفخيم

وجدية) وقد اتأخر .. فهل تحتاج الى شيء ؟

— شكراً .. أرجو لك التوفيق ..

— ولك ايضاً .. آمل الا اغيب طويلاً .. عمل النهار لأجل

اللحمة ، وعمل الليل لأجل الفكرة ، واني لسعيد جداً بالعمل الثاني .

قال فياض :

.. هذه هي الحياة .

فابتسم جوزيف وقال مؤكداً بالفرنسية : Oui C'est la Vie !

ونفض وأغلق الباب ..

« رجل آخر يغلق الباب .. فياض يغلقه بهدوء كيلا تستيقظ

أمه . يقف لحظة ليسوي بضاعته في مطاوي الثياب ، ثم يسير في

عرض الشارع . الحراس لا يولون اهتماماً للذين يسرون في عرض

الشارع ، موزعو النشرات السرية يسرون على الارصفة ويلتصقون

بالأبواب ، ومن أجل ذلك يجب السير وسط الشارع . وكموزع يريد

ليلي ، حذر ونشط ، كان يمضي . شرة ، واخرى .. ثم اخرى ..

ويتنهد عائداً الى البيت . وفي الصباح يذهب الى العمل ، والمدينة ،

على ضوء المصابيح الواهنة ، تقرأ ماوزع . لقد اعطيت زاده من يد مجهولة .

العرشة قبل العمل ، والراحة بعده ، والشعور السعيد
لكون الانسان يفعل شيئاً لأجل المستقبل ... تلك هي الحياة .
Oui Cest la Vie يا جوزيف . انا ايضاً عشتها ، عرفت السير بالليل ،
وفي مطاوي الثياب « بضاعة » ممنوعة ، كما عرفت الذهاب الى المظاهرات
وتحت الثياب بيجاما .. وفي اول مرة اوقفت ، هزني الخوف
وسترتني الظلمة . استطعت بجهد أن اسطر على اعصائي ، وفي النظارة
ضربوني حتى تورم وجهي وازرق ، وشهقت امي « يا حبيبي .. ليتني
مت قبل ان اراك على هذه الصورة » لكن الصورة كانت جميلة . كنت
انظر في المرآة وابتسم ، وابتسمت لي الفتيات ، وحياتي رجال الحي .
دعوني الى مجالسهم ، ودعاني اقدم الى كأس ، وانا أمر بالخمارة .

جوزيف يحمل « بضاعة » ممنوعة ، ومحمد يحمل مثلها ، وكذلك
خليل وياسر وصبحي ومصطفى ورياض . جيش من السعاة ، يزدادون ،
ينقصون ، يزدادون ، واليد تكتب ، والآلة تطبع ، والأفكار
تتغير ، والمطالب تشتد ، ويأتي ذلك اليوم .. آه .. كيف السبيل
الى ذلك اليوم ؟ انت ، يا يومنا ، يا رجاءنا ، اسرع ..

قام الى طاولة العمل .. وراح يكتب ، كهموم ، وظل
يكتب ، لكنه ، في الصباح ، مزق ما كتب . كان شيئاً فارغاً
تنقصه البساطة ، تنقصه المعاناة .. فضرب يده على المكتب ، وصاح

بغير كلام: «يا للمهنة الحزينة ! احرق اعصابي ولا اتوصل الى شيء ،
نضبت ، قيامة اليعازر اسهل من قيامتي ، علي أن ابعث نفسي
والا هلكت .. »

- ١٢ -

اضيئت الغرفة المواجهة لغرفة فياض في بيت أبي خليل .
رجعت الفتاة وامها من السهرة ودخلت كل منها غرفتها . الفتاة حرصت
على التقدم من النافذة بجذر ، لتستمتع بروية الوجه المعذب بالانتظار ،
ولما لم تجد سوى الظلمة ارتدت خائبة ، لائمة نفسها لأنها سهرت
في الخارج .

قالت في نفسها : «غداً صباحاً أراه» .. نضت ثيابها واندرست
في الفراش تاركة لحياها ان يعرض صورته الاكثر جموحاً دائماً : ذات
لحظة من الليل ، دون ان يفتح باب ، دون ان يضطرب صدر بلهاث
الخوف ، ينتصب أمامها متحدياً «الناموس» ، و « الخطيئة المعبودة» ،
يأتي يأخذها بين احضانه بقوة .. باسم الحب يأخذها بقوة ، ويشدها الى
قلبه حتى لا يكون جسداً بل جسداً واحداً . . . وحين يفيقان
بمضيان بعيداً ، فرحين ، مرحين ، محبين للحياة ، ناضري القلب ،
دون كآبة ، ولا غشيان ، ولا دودة خبيثة تقرض الاحشاء . . .
يذهبان الى البحار ، والجبال ، والغابات ، يعودان الى الطبيعة . . . يستعيدان

- ١٤٨ -

نشاطها ، يعيشان يقظتهما — كما ، ليعيشا ، من بعد ، غيبوبتهما
كاملة ايضاً .

هكذا تريد ان يكون : جريشاً ، محتدماً ، لا يأتي ،
كسائر الرجال ، من الباب الواسع ، ولا يستأذن مثلهم ، ولا يتلطف
ويتظرف ، ويقول الكلمات الصغيرة ، اللطيفة ، المبحوجة ، بل
يفعل اشياء اخرى ، جديدة ، صقريه ، بجنونة . . انه هو . . صاحب
العينين الناريتين ، الذي رآته في النافذة ، واحبته لغرابه وضعه ،
ونفاذ نظراته ، ومظهر التحدي البادي في وقفته .

تأوهت وعضت طرف اللحاف باسنان مهرة تعض الشكيمة .
قالت في نفسها : « إلام لا يأتي الي ولا يدعوني اليه ؟ قريب مني
وبعيد عني ، فالى متى يستمر في وضعه هذا ؟ ثم ما وضعه وما قصته ،
هذا المجهول الحديس الذي ساقه القدر ، ليتعذب بي ويعذبني به ؟
وكيف يمكث حبيساً لو لم تكن له مشكلة ؟ وما هي مشكلته ؟
لماذا يتوارى ؟ »

القت عنها الغطاء وقفزت حافية الى الأرض .. مضت
كشعلة من نار لا تطفئها — كل امطار الدنيا . كانت ترندي قميصاً
حريرياً طويلاً يتعلق بكتفها بشريطين معقودين على شكل زهرة ..
وكان احتكاك جسدها بالحرير يولد فيها احساساً لمسياً مهيجاً . فاذا
وضعت راحتيها على : ذفيها صدرت عن الملامسة تحتها ذبذبات
انفعالية ناعمة ومثيرة ، كتلك التي تستشعرها حين تشم عطره السوار

دي باري ، .. وكان القميص ، على حريرته الملساء ، يضايقها ،
يلطم نهديا المكوزين ، فعل الاوراق الخملية مع التفاح حين يهزه
النسيم ، فاذا أسرع وخفق صدرها ، ضج النهدان في توثب طليق ،
وبانت الحلمتان الخمريتان وهما تترجرجان وتتقران الحرير ، وجنت
الغرفة بتهاول الحيال المراهق المحروم .

جلست في الظلمة متكورة ، كقطة وراء النافذة . كانت
تأمل ، ولا تدري لماذا ، أن يخرج في الليل الى الحديقة ، فلو كانت
هي لفعلت ذلك .. وطال انتظارها عبثا . وراح النوم يراودها في
ايماءات خاطفة لا تقوى على دفعها ، وبعد قليل اغفت ، وكانت
اغفائها سحرية جدا .

- ١٣ -

انكب فياض على عمله في بيت جوزيف .. هو أيضاً
فكر واغض عينيه وتصور « النافذة المقابلة » . كان تواقاً وقادراً
على الاندفاع كاعصار .. انه يحس ، وربما اكثر منها ، بالحاجة الى
تخطين الجليد المصطنع لحياته الداخلية ، ولكنه فيما نذر نفسه له ،
كان يفهم قيمة التضحية التي تعلق على معنى اللذة .

ونقر عليه الباب في نحو الساعة الحادية عشرة ، وأطل
جوزيف قائلاً بصوت مشبع بالاغراء :

- ١٥٠ -

- ما رأيك بكأس صغير ؟ (وأشار بيده راسماً ، فعل
الخباز الماهر ، حجم الكأس بسببته وإبهامه)
- لا أشرب بعد الطعام .

- الشرب لا يحلو الا بعد الطعام .

- ولكن الوقت متأخر الآن .

- في هذا الوقت ابدأ عادة .. الواجب هو الواجب ..

وبعد قضاؤه اسمح لنفسه بتناول عشاءه مع كأس .. ومن عادتي
أن اطالع وأنا أشرب ، وقد احببت الليلة ان نتحدث قليلاً ، فهل
تتكرم علي بشيء من وقتك ؟

سار أمامه الى غرفة الطعام التي بابها مقوس كالكهف ، وكان
على المائدة بعض الطعام وطبق من الفاكهة ، وزجاجة عرق ، ومجلات
وكتب نظرية . وكان جوزيف ناشطاً للشرب ، يرتدي قميصاً مفتوحاً
يكشف عن عنق وردي ، وتغزل عيناه ألقاً ينم عن فتوة وخفة
روح ، ويتحرك بثقة ودربة ، وجاذب ما فيه يجيبه اليه ويجعله
يكتسب صداقة بسرعة . وكان حضوره على مائدة الشراب فاتناً ،
حتى قال فياض في نفسه : « لو كان جوزيف خماراً !؟ » ثم اكتشف
بسرعة انه يحدث بارع ، وثقافته الفرنسية رائعة ، وله محاولات
أدبية ، وفخره بكسروان لا ينتهي .

- اذا قلت كسروان قلت لبنان .. في هذه المنطقة جذور

العربية .. الكسروانيون متحدرون من اصلا ب قبيلة عربية شهيرة

وبعد عدة كؤوس ، تحدث جوزيف عن نفسه فقال :
- والدي لبناني عريق ، أما والدي فاسبانية الجدود ،
ولعلك لاحظت ذلك في ابنتي البكر ، فهي شبه جدتها .
كان فياض قد لاحظ الطفلة الجميلة بعينها السوداوين الواسعتين ،
ولونها الابيض المشرب بحمرة خمرية ، وبنيتها الفارعة ، واعترف
أن ذلك نتاج التطعيم . وأضاف جوزيف :
- أنا الابن الأصغر لعائتي .. شيطاناً في صغري كنت .
قال فياض في نفسه : « وشيطاناً لا تزال . »
- ومن شطارتى كدت ادفن نفسي حياً .
- لماذا ؟

- تعلمت في دير كاثوليكي ، فقالوا ان صوتي جميل ، وسعيت
حتى صرت منشدا في جوقة الكنيسة ، وتبته والدي الى ذلك ،
فأراد تكريم العائلة بتكريسي تلميذاً للمسيح ، وهكذا وجدت
نفسي راهباً في الدير .

- وكيف تخلصت ؟
- على يد ابنة الجيران .
- أحببتها ؟
- هي التي أحبتني .
- وتزوجتها ؟

- لا .. كانت جسراً فقط .

- الى القمر ؟

- الى سقر .

ضحك فياض لطرافة جوزيف .. كان هذا يشرب كثيراً
والزجاجة تتناقص بسرعة ، وهو يتصرف بشكل طبيعي ، يوحى
بأنه اعتاد أن يفعل ذلك كل ليلة ، وقد احمر قليلاً ، وازداد وسامة ،
وانطلق يتحدث بغير كافة .

- وقعت في الحب مرة اخرى وتوكت المدرسة .

- ومن أحبت ؟

- قل من التي أحبتك ؟ .. فتاة في الدير .

- لطيف !

- ثم شاع الخبر فنقلوها وطردوني .

- وماذا فعلت بعد الطرد ؟

- وقعت مرة اخرى .. أحبتي بنت أحد الملاكين ، ولما

لم يكن هناك أمل ، افترقنا بسلام .. ذهبت الى بعيد .. صرت

معلمة في الجنوب ، في مرجعيون ، وبعد عامين تركت التعليم نهائياً ،

أحبتي تلميذتي ، ووفاء لحبها تزوجتها ، وهي ام ابنتي كما ترى .

ابتسم فياض ونقر على الطاولة . من يصدق أن جوزيف ،

العابث على هذا النحو ، كان جدياً قبل قليل ، يحمل بضاعة المعرفة ،

كساعي بريد ليلي ؟ .

- زواجك لم يكن يمنع استمرارك في التعليم .

- هذا في رأيك ورأيي ، ولكن زوجتي تختلف ..

تفضل العيش في بيروت .. جميع أبناء الريف مثلها ، وهذا هو
سبب الزحف على العاصمة ، كان الله بالعون .

- وماذا عملت في بيروت ؟

ملأ جوزيف كأسه وقال مبتسما :

- ماذا ؟ تحقيق ام قصة جديدة ؟

- معاذ الله ! حياتك شقة ، خصبة .

- مها تكن ، لا تستأهل أن نقضي السهرة بالحديث عنها ..

لا فائدة من الكلام على الماضي .. دعنا نتحدث في الحاضر والمستقبل ،
دعني استفيد منك بعض الأشياء الأدبية والنظرية .. هذه فرصتي .

قال فياض :

- العفو .. مثلي من يستفيد من مثلك .

ساد صمت قصير ، ثم تحدثا حول امور شتى ، واستأذن

فياض في أن يأوى الى فراشه . ظل جوزيف في مجلسه ، وقد اعلن

انه سيطلع الآن ، حتى خيل الى فياض ان صاحبه لن ينام ...

بعد لحظات ممعه ينهض ، ويتجه الى غرفته في آخر المجاز .

واطفئت الأنوار وسادت الظلمة كل أنحاء البيت .

ظلت « فتاة النافذة » نائمة الى ما بعد الضحى ، وكانت قادرة ومحتاجة ان تنام الى الظهر ، لكنها استيقظت على فكرة النافذة ، أو أن هذه كانت أول ما نبه وعيها ، فنفضت عنها الغطاء ، ووقفت بقميص النوم ، عارية الكتفين ، تمجدق في النافذة المقابلة .

لم تصدق ماترى اول الأمر . . كانت النافذة مفتوحة ، مفتوحة تماماً .. وكان في وسعها ان ترى داخل الغرفة ، وتميز ام خليل تذهب وتجيء ، وتشاهد كنتها تنقل الفرش لتشميسها ، وترى ابا خليل يدق مسهراً في الجدار ، والنور يغمر البيت فيبين الطفل الصغير يلعب في الغرفة الاخرى .

كل شيء بدا مكشوفاً .. في الضوء تماماً ، كأنما لا شيء كان ، ولا ستارة محجوبة ، ولا إنساناً مختبئاً .. وكأنما البيت ، في تكشفه المتعمد ، يريد ان يقول للعيون الراصدة : « ها أنا ذا .. لا أحد بين جدرانى ! » .

لكنها هي تعرف خديعة البيت . قد كان ثمة انسان ، ولن تصدق انه ذهب .. لا تصدق انه إختفى كما ظهر ، دون ان يتوكل علامة ... كلمة وداع ... أثراً يرشدها اليه ، هو الذي تنتظر ان يقتحم عليها أسوار حياتها ويأخذها بين أحضانه بقوة ، ويشدها الى قلبه ، حتى لا يكون جسداً بل جسداً واحداً .. لا ، لا يمكن

ان يذهب هكذا ، والى الأبد ، سيعود غداً ، من المؤكد انه
سيعود ، ولسوف تنتظر ، ستظل تنتظر ، ولن تخون عواطفها .
وفي الطرف الآخر ... في البيت الذي يتشمس بعيد ان
نصار في وسع الشمس ان تغمره ، قالت أم خليل اسوانة :
- يا حبيبي يا فياض ، في مثل هذا الوقت ، كان هنا .. كنت
أحمل له الفطور ، فأين هو الآن ، أين ذهب يا عجب ؟ .
قال أبو خليل الذي توجهت اليه بالسؤال ، وسمعه منها
مرات عديدة منذ الصباح :

- اسألني « عجب » هو وحده يعرف .
- أريد ان اطمئن .. أريد ان أعرف هل هو بخير ؟
- بخير مادام قد خلس من لسانك .
فرفت على شفتي الكنة ظلال ابتسامة دون ان تنبس بحرف ،
وتابعت الانصات الى الحوار . قالت أم خليل :
- لسانني لا يضر أحداً .. كنت أعزه مثل خليل ، وأخاف
عليه مثله أيضاً ، وقد كان البيت مليئاً به ففرغ ، الا تحس فراغه ،
برحة موتاك ؟

هز أبو خليل رأسه ولم يجيبها .. لعلها لا تدرك انه مستوحش
وقلق فعلاً ، ولكن ما فائدة الكلام عن هذا ؟ سلامته فوق عواطفهم
جميعاً ، وما دام بقاؤه لم يعد مأموناً فليرحل بسلام .. المهم
انه استطاع البقاء عندهم في سرية تامة طوال هذه المدة ، ولم يلحظ

أحد من الجيران وجوده في الغرفة الصغيرة ، وراء الستارة
المسدلة .

أمر بذلك ورفع عينيه ليتأكد من ان الجيران لم يلاحظوا
شيئاً ، وإذا ذاك إلتقت عيناه بعينين متسائلتين في النافذة المقابلة ..
غض طرفه ، ولعن الشيطان ، ولعن حواء ، وأدار ظهره كي لا يرى
جارتته ولا يشتمها .. ثم لم يلبث ان رنا الى أم خليل ، وتذكرها
صبية ... صبية ذات قوام وردفين ونمدين ، وهتف في أعماقه :
« هيمسات ! » وخطف ، على شيء من حسرة ، نظرة أخرى من
الكتفين العاريتين لجارتته الفاتنة ، في النافذة المقابلة ، ووثب من
مكانه كملسوع وهو يقول :

— أعوذ بالله .. خالفنا الوصايا العشر !

— ١٥ —

تناول فياض قهوة الصباح وهو يحس بانقباض ، حين يكون
الطقس غائماً يسيل غيم رقيق في صدره . نهر الحزن يتفجر من مكان
فيه . وليس من سبب للحزن ولكنه حزين ، وهذا البيت على سعته
عاجز عن تبديد الضيق الذي يستشعره . جوزيف مرح ومتقف
ونديم رائع . وهناء طيبة رغم ثورتها . تتكلم بحرية حين لا يكون
جوزيف ، وفي حضوره تبدو حمقاء ومسحوقة ، وهذه الحفاوة تربكه ،
فلماذا يتمسكون بها ؟

— ١٥٧ —

قال في نفسه : « أرجو ان تزول ، وتمدد على سريره
بحركة تقول :

«سيان !» . «شعر بجنين الى بيت أبي خليل فهتف : « تراني
أعود اليه ؟ » وفي سريره : « تراني أعود إليها ؟ » وابتسم للطف
الغائب وقال : « جميل ان أقضي العمر مع الأطفاف » .

« فتاته » ، في بلده ، لم تكن طيفاً . كان حبه من النوع
الهاديء ، المرشح لخاتمة سعيدة . ولو لم يخرج من بلده لتزوج ،
ولكنه الآن غير آسف ، ويعتبر عزوبيته من حسن الحظ . وقد
عجب ان حبه ذاك لم يترك في نفسه إيما حرقه ، كالشمس الحريقية
كان ، وكل ماعاناه ، خلال هذه الأشهر ، لذع جنسي بحت وها هو
على باخرة لا مرفأ لها . في عابرات المحيطات يعمل البحارة وهم يحسبون :
« بعد عشرة أيام ، عشرين ، ثلاثين ... » وهو لا يستطيع ان
يتعلل مثلهم . كلما لاح شاطئ ، وبدا وجهه على الطرف المقابل ،
انسحب مضطراً الى اللجة ، وليس في يده إلا الذكرى ، ثم تمحى
الذكرى ، ويغدو الحب أمنية والحبيب خيلاً . . عليك بإفياض ان
تعيش على الخيالات ، على الطيوف ، وان تصغي الى العواء في غابة
غرائذك ، ثم تغفو وأنت تقاتل ذئاباً .. انطع السرير برأسك .
اضرب الطاولة بقبضتك . در في مكانك لتنفس عن صدرك . أربعة
في خمسة . خمسة في أربعة . الطول والعرض ، ورحلة في الوم ، ونوم

ويقظة ، وليل ونهار ، ونهار وليل ، ووجباب ثلاث ، وغيم ، وصبر ،
وتعتاد . البحار يعتاد ، يرى الكثيرات ، وينارق الكثيرات ، يمر
بمرافئ كثيرة ولا يلقي المرساة ، مرفأه بشيد ، ومرفأه مجهول ،
ومن الأفضل للبحار ألا يفكر بالبر ومرفأه مجهول ،

قطـع تأملاته الكثيرة دخول الصغيرتين نحملا ن لعبتين
وتتصايحان . وسرعان ما لحقت بهما هناء فعنفتهما وأخرجتهما ، طالبة
من فياض أن يغلق الباب من الداخل .

ويبدو ان البنت الكبرى استشارها هذا التحدي ، فقررت
ان تبدأ معركتها مع فياض فوراً ، وهكذا بدأ الطرق على الباب ،
باليد قارة ، وبالرجل طوراً ، بما اضطره الى فتحه .

عادت الأم لإخراج الطفلتين ، فرجاها فياض ان قدعهما ،
لكنها أصرت وأخذتهما الى المطبخ ، مفسحة دقائق من الهدوء
ترشف خلالها قهوته وشرع بالكتابة ، ثم لم يلبث ان توقف ، لان
الصغيرتين عادتا الى الغرفة ، وسجبت صغراهما ربطة عنقه ، بينما
راحت الكبرى تمطره بأسئلة مخرجة ؛ عن اسمه ؛ وما يعمل ؛ ومن
أين جاء ؛ ولماذا لا يذهب ؛ وتعرض عليه من عفرتها ألواناً ؛ حتى
اضطر ؛ لتخليص قلم الحبر من يديها ؛ الى إغلاقه ووضعها في جيبه ؛
صارفاً النظر عن الكتابة موقتاً .

وتبتهت الام للمرة الثالثة ، فاسرعت من المطبخ تؤنب
الطفلة وتعتذر ، وحسماً للمشكلة ، قالت لها بنبرة عقاب :

— هيا الى المدرسة !

وقادتها فعلاً خارج البيت ، تاركة الصغرى الجمعاء ، التي
لا تؤذي ولا تثير ضجيجاً .

رن جرس الباب وهناء لا تزال في الخارج ، ولم يكن في
البيت سواه وسوى الصغيرة .. كان واضحاً أن عليه ، في هذه الحال ،
ألا يفتح ، وألا يدع الصغيرة تفتح ، ولهذا خرج من غرفته اليها ،
فوجدتها في المجاز ، تشير الى الباب الخارجي منبهة الى رنين الجرس ،
فتقدم منها حافياً ، وامسك بها وعاد راكضاً الى غرفته ، بينما الجرس
يون رنيناً عنيفاً متواصلاً . « ما العمل ؟ » قال في نفسه ، وفكر
في أن يطلق الصغيرة لتفتح ويظل هو في غرفته ويغلق الباب ، الا
أن الرنين توقف ، وتعالى طرق على الباب ، ثم تنهى اليه صوت هناء
منادية ابنتها أن تفتح .. لقد نسيت أن تأخذ المفتاح ، فلما فتحت
لها الصغيرة ، اندفعت نحو المطبخ فوضعت حقيبة السوق ، وهرولت
وهي تتعثر بابنتها الى الراديو ، صائحة بنفاد صبر :

— عبد الحليم يغني يا استاذ .. ضاعت الاغنية يا يسوع !

ابن هي المحطة يارب .. ابو عيون جريئة ، آه ..

كانت تتكلم بعصبية ظاهرة ، وتقدير ابرة الراديو وتبحث ،
وفياض ينظر اليها راجيا ان توفق بعد كل هذا العناء ، ولكن
الاغنية ضاعت ، ولعلها انتهت ، فانسحب الى غرفته صامتا .

وحوالي الساعة التاسعة طرق بابه ... كانت هناك قد اعدت
الطور في غرفة الطعام ، ونسيت عبد الحليم واغنيته .. اقبلت على
وجبتها بشهية طيبة ، فلما فرغت طفقت تحدثه عن عائلة زوجها ،
بنفس الشهية التي تأكل بها :

- كلهم فوق الريح يا استاذ . زوج اخته سيكون مليونيرا
في المستقبل . لديه ارض كبيرة قرب مطار خلدة ، ثمنها مليون
ليرة ، وفي المستقبل الله اعلم .

- ومن اين يعيش الآن ؟

- يستدين على حساب الارض . (وبعد وقفة) واخته
الثانية ماشاء الله !
- غنية ؟

- ليس كثيراً ، ولكن بينها بأربع غرف وصالون ،
واثاثها « مودرن » .. صحيح بالتقسيط ، ولكن التقسيط اسهل
من النقدي ، ولهذا قلت لجوزيف : مادمنا نعيش في بيروت ،
ونتبادل الزيارات مع اهلك ، فلا بد من ترتيب البيت ... وبكفالة
اخته اخذنا الاثاث بالتقسيط وسددنا اكثر من نصف الثمن حتى

الآن ، وبعد سنتين نكون خالصين .. المهم الا نتأخر في دفع
الاقساط . تأخير قسط لايمهم ، ولكن تأخير عدة اقساط لايجوز .
في هذه الحال يقع علينا الحجز ، والأفضل ان نستدين ، وجوزيف
يفعل هذا .

- يستدين ؟

- بالفائدة .

- وكيف تدفعون الدين والاقساط والفوائد ؟

- هذه شغلة جوزيف .. انا لا أتدخل ... اخوه

فوق الربيع !

عاد جرس الباب يرن ، فارتبك فياض ، وأشارت هناء الى
غرفة المكتبة ، فدخلها واغلق الباب ، بينما مضت هي الى
الباب الخارجي وفتحته ، وسمع بوضوح صوتها وهي ترحب
بزائراتها :

- اهلاً امرأة عمي ، اهلاً جوزفين ، اهلاً ندى ..

واقتربت الخطى مارة به الى الصالون ، حيث جلست
الزائرات وطفقن يلغطن . ولكي يتجنب سماع الخاص من
حديثهن انصرف الى تصفح كتاب ، منتظراً ان يشربن القهوة
وينصرفن .

وفجأة سمع صوتا يقول :

- سأبحث في مكتبة خالي عن رواية فرانسوا ساغان ..

- خالك قفل المكتبة واخذ المفتاح معه .

- ليس من عادة جوزيف ان يقفل الابواب .

- الصغيرة مزقت الكتب فقفل المكتبة .

ذكية هناء برغم بلادة مظهرها .. انقضت الموقف اذا لم تكرر ندى محاولاتها . احس بحراجة موقفه وهو يتوقع اقتحام المكتبة ، فبادر بجذر شديد ، الى ادارة المفتاح في القفل من الداخل وانزوى في ركن لا يصله البصر من ثقب الباب ... يالها من فضيحة لو صارت . تفتح ندى الباب فتري رجلاً في الغرفة .. ومن ذا الذي سيقنع الحماة ان هذا الرجل لاجيء وليس عشيقاً للكنة ؟ تصور بعدئذ الصباح وربما الضرب ، واجتماع اهل البناية ، والسؤال والجواب وتدخل الشرطة اذا كانت الحماة رعاء ..

وتعالى ، وهو في غمرة قلقه ، نقر خفيف على حافة نافذته من جهة المطبخ ، فرفع رأسه ليري هناء تشير اليه الا يأتي بحركة . كانت النافذة تطل على فسحة مستطيلة ضيقة جداً بين جدارين ، وقد اعتلت هناء كرسيها حتى اطلت عليه . ومعنى هذا انه لا يمكن للواقف على الارض ان يراه ، وفي هذا بعض الاطمئنان . غير ان الحماة اعلنت انها ستقضي يومها في بيت ابنتها ، وقامت الى المطبخ تساعد كبتها في الطبخ ، وانصرفت اختها -- اخت الحماة -- الى

النوم ، وعثرت ندى على مجلة وراحت تقرأ ، فانطفأ الحديث في الصالون ، وتوجب على فياض ان يعد نفسه لقضاء نهار كامل في الزاوية التي قبع فيها مفكرا في « الجو الملائم للعمل » .

ويظهر ان هناء نجحت في اقناع حماتها بالراحة ، فغادرت هذه المطبخ ، متيحة لها ان تحمل القهوة الى فياض من النافذة ، وكذلك طعام الظهر .. لم ينقصه سوى السيكرات ، وقد اوصته هناء الا يدخن ، حتى لا يخرج الدخان من النافذة او خصاص الباب فينكشف الامر .

تناول فياض القهوة مرتين ، وطعم ظهراً وعصراً ، ومع هذا استشعر مذلة حقيقية . ادرك انه ليس من السهل ان يتخلص من لعنة الوضع الذي هو فيه ، مادام لا يتخلص من الوضع ذاته . ان يخرج فيعمل ، او يكلف بمهمة ما ، او ينهض بمسئولية ، والا فالعودة الى الوطن ... « ذلك هو الطريق .. ذلك هو الطريق ... »

حل المساء اخيراً ، فانصرفت الزائرات ، وصاحت هناء من الخارج ما ان ودعتهن :

- افتح يا استاذ . افتح .. يا عيب الشوم منك .. كيف

قضيت هذا اليوم ؟

فتح فياض راسماً على شفثيه ابتسامة مغصوبة ، ورد على

اعتذاراتها قائلاً :

- لا بأس ، لا يهم .

وراحت تلطم خديها وتقول :

- يه ، يه ، يه ، لأدري كيف اعتذر يا استاذ ، هذه

خطيبي ، ماذا سيقول جوزيف اذا سمع بالحادث ؟

وسمع جوزيف مساء فثار وشتم بكل ما في قاموس

كسروان من شتائم ، وجاء بهنساء الى غرفة فياض وقال
لها امامه :

- اسمعي . رجل الاستاذ اشرف من الذين سيتقوّلون ..

اذا جاء ابي او اخي او امي بعد اليوم ، قولي لهم الاستاذ صاحب
البيت ، واجلسيه في الصدر ، ومن اعجبه اهلا وسهلا ، ومن
لم يعجبه مع السلامة .

قالها واستأذن وانصرف ... ثم عاد حاملا رزمة

صحف وقال :

- سأعود بعد توزيع هذه .. الآن بدأ الشغل

الآخر .

اعلن ذلك بجديّة تلازمه حين يتكلم على المبدأ . فقال

فياض في نفسه : « لبنان ليس مطعم الجبل ولا ساحة البرج ..

لبنان كسروان وطرابلس وصيدا وصور وبيروت نفسها . لكنه

ليس « مطعم الجبل » ولا ساحة البرج . »

اضطر فياض ، بعد ايام ، الى اطلاق وصف مغاير على
هنا ، ينفي عنها كل تهمة بالذكاء .. وليس ذلك لأث جوزيف
خرج عن طوره ، وهدد بتعطيم الراديو اذا ارتفع صوته بأغاني
عبد الحليم ، ولا لأنه رسم صورة كاريكاتورية لهنا ، فزعم انها
تمام وهو يضاجعها ، بل لأنه كان يقرأ رسالة ، فصاحت هنا
من المطبخ :

- بمن هذه الرسالة يا جوزيف ؟

- من بكين .

- ومن هي بكين بسلامتها ؟

- بكين هي بكين يا مدام .

- اعرف ، ولكن أسأل عن جنسيتها ، لان الاسم

غريب علي .

- بكين هذه في الصين .

- ومتى تعرفت عليها ما شاء الله .

صاح جوزيف وهو ماض في القراءة :

- أقول لك من بكين ، من بكين ، الا تفهمين . ؟

- بلا خلط يا جوزيف .. ما اسمها ؟

- والى قلت لك بكين ! .

— يا يسوع ! ومن هي بكين بسلامتها ؟

— بكين عاصمة الصين ، والصين في آسيا ، وآسيا قارة من القارات الخمس ، والقارات الخمس هي الكرة الأرضية ، ودين الذي عرفني عليك وزوجج اياك !

توقف عن القراءة فجأة ، ثم مزق الرسالة والقلم في الصالون والتفت الى فياض قائلاً :

— ما رأيك الآن ؟ هذه هي تلميذتي التي ماتت في غرامي ، ومت في بلادتها .

ضحك فياض دون ان يجيب .. بينا خرجت هناء من المطبخ قائلة :

— هل رأيت عصيته يا استاذ ؟ اما قلت لك انه لا يتم بتثقيفي ؟

قال الاستاذ بمزحاً :

.. بعد الزواج تصبح عملية التثقيف صعبة .

وعلق جوزيف مغضباً :

— خاصة اذا تزوج الانسان من عنقاء فظهر انها يبغاء .

— سامع يا استاذ .. يشبهني بالعنقاء .

واطم جوزيف جبينه براحته ونبر :

— انت غلطانة يا مدام .. شبهتك باليبغاء وليس بالعنقاء .

— وما الفرق ؟ انت شبهتني بالعنقاء .

في هذه الحال — قال فياض موضحاً بأمل تخفيف التوتر —
يكون جوزيف قد مدحك ، لأن العنقاء ملكة الطيور ، وهي طير
خرافي ذكرته العرب فقالت : ثلاثة غير موجودة : الغول والعنقاء
والحلل الوفي ، واهل الشرق الاقصى يعتبرون العنقاء رمز
الامبراطورة ، لأنها رمز الاناقة والجمال ..

— حلوا يا استاذ .. لو كان جوزيف يشرح لي مثل شرحك ..
(وملتفة الى زوجها) اتركنا نضع الاستاذ حكماً ، ويروي كل
واحد ما عنده ..

— الاستاذ جاء الينا ليستريح — قال جوزيف — لا ليصبح
قاضياً .. افرطها .. اتركنا نتحدث في جو هادئ ، وعجلي
انت بالطعام ..

— ١٧ —

عاد جوزيف من جولته في الحبي ليلاً ليشرع في سهرته
المعتادة . كان واضحاً انه يشرب لينام بعمق ، وكان يحرق فياض الى
جلساته هذه بنوع من توسل لا يقاوم ، وقد زالت الرسميات الآن
وأخذ يغني أحياناً ، بعض « المعنى » بصوت حنون ، وقال انه
ضارب غير سيء على العود ..

— ١٦٨ —

فكر فياض بصاحبه وقال : « يا للموهبة المضيعة ! » . ثم
اكتشف ان جوزيف « موهبة نادرة ومهدورة » .
كان هذا قد شرب وغنى وراح يتحدث عن نفسه باحساس
من الحية والألم . . . لا تسألني عن رقم عملي الحالي . . من الصعب
تعداد أعمالي ومن الصعب الاستمرار فيها رغم جهودي ومقدرتي . .
تقول لعنة الدير . . غضب الوالدين ، نحس الزوجة . . قل ما شئت ،
يظل سوء الحظ هو الظاهر ، وكلما قلت هذا العمل هو الدائم ،
وجدتني أتركه ، او يتركني ، وأبحث من جديد ، وأترك من
جديد ، حتى بت أمل الى الاعتقاد بالحظ . (وبعد وقفة) لماذا لا
تؤمن المار كسية بالحظ ؟

فقال فياض في نفسه : هذا هو جوزيف !
وابتسم جوزيف و اضاف : « كنت تسألني ماذا عملت في
بيروت بعد انتقالي اليها . . وماذا أروي لك ؟ عن أي عمل
اتحدث ؟ تعلمت المحاسبة ، وعملت مندوباً متجولاً لحدى الشركات ،
واشتغلت في ملحقة تجارية ، وانغمست في التجارة والمحاسبة الى
اذني ، وقطعت كل صلة بيني وبين الادب والثقافة . . وهذا أحد
أسباب تعاسي ، فما رأيك ؟

قال فياض برغبة في النصح :
— رأيي ان تعاستك ناشئة عن عدم استقرارك . . لماذا ،
مثلا ، تركت العمل في الشركة التجارية ؟

– لأنها رفضت أن تزيد مرتبي .

– ولماذا تركت المحاسبة ؟

– لأنني دخلت شريكا مع أحد المستوردين .. كنت مضطراً للبحث عن زيادة الدخل ، كي أسدد الأقساط والديون واخلص من المطالبة . غير ان الشراكة انتهت الى الافلاس .. كان ذلك ابان الحرب الكورية ، والتجار ينون حساباتهم على اتساع الحرب ، يصلون ان تتحول الى حرب عالمية ، وانا أيضاً كنت أصلي .. كنت تاجراً في ذلك الوقت ، وكان التجار يستوردون ويستوردون ، ويخزنون البضائع ، ويشبتون طلبات جديدة كل يوم .. وكان شريكي طماعاً ، يضع نصب عينيه لقب المليونير .. وكنت انا شريكاً اسمياً ، ولهذا لم اخسر سوى عملي ، وخسر هو كل تجارته ، أفلس كما أفلس الكثيرون ، وقد أدركت ان اتجاهي كان خاطئاً .. وان شريكي كان يستثمر اسمي ، وان لعبته التجارية كانت سافلة ، وعلى ان أقف في الصف الآخر .. ووقفت ..

افرغ كأساً جديدة وسأل بانعطاف مفاجيء :

– ماذا كتبت اليوم ؟

ثم استدرك :

– لا بد ان هناء اضاعت يومك بسوء تصرفها ..

– لا تقل هذا ، انني مسرور من كل شيء ، وخاصة من

رعاية هناء ، ورعايتك ..

- رعائتي هي ان تكتب .. انا مسؤول عنك امام ضميري
وامام القضية .

- سأكتب .. لنضع هذا الآن ..

- لا .. هذا هوالمهم .. وعلينا ان نضع الثروة ، لتشجعني
عليها ، ارجوك ..

لاحظ فياض ان جوزيف دار نصف دورة .. انقلب
الى جدية لامبرر لها ، ولن يتكلم على حياته الخاصة بقية هذه
السهرة . لكن جوزيف سأله فجأة :

- هل قرأت بولص الرسول ؟

- قرأت رسائله الى اهل رومية و كورنثوس واغلاطية .
وما رأيك فيه ؟

- لا أستطيع اعطاء رأى كامل .. وانت ؟

- انا درست على الجزويت ^(١) .. ودرسته ، بعد ذلك ،
على نفسي ، واعجابي به لا يجد . فقد وضع الاشياء في مواضعها ،
وتجراً على « الناموس » ..

قالها وضرب الطاولة بيده واردف :

- نعم تجراً على « الناموس » .. قال ان المؤمن
يتقياً الفاتر ..

(١) اليسوعيون .

- و كيف شرحوا لكم هذه العبارة لاهوتياً ؟

- لم اعد اذكر .. كل ما اعرفه نها صرخة ثورية ، فالمؤمن

لا يمكن ان يكون فاترا .. الفتور نصف الحرارة ، وانصاف
الحلول لاتأتي بالحلول ، الانسان ثوري او غير ثوري ، هذه
هي المسألة ... لقد تعلمت من بولص اشياء كثيرة ، وعن طريقه
تقيأت الفتور واصبحت حاراً .. اصبحت ثوريا ..

وتوقف قليلا وسأل :

- هل تعرف باب شرقي في دمشق ؟

- طبعا اعرفه ..

- الكتب تقول ان بولص الرسول ، بعد ان ظهر له الحق

في دمشق ، وتخلي عن رتبته كقائد مئة ، اضطر الى الهرب وتدلى
من السور بجبل .. هكذا تقول الكتب ، وقد ذهبت الى دمشق ..
رأيت السور والمكان الذي هرب منه بولص ، فوجدته واطناً
جداً ، ومنذ ذلك الحين وانا اتساءل ، لماذا تدلى بجبل ولم يقفز ؟

- لا بد ان الارض ، عند قدم السور ، كانت واطئة ،

وكان القفز مستحيلاً .

- هذا جائز ، وقد فكرت فيه ، ولكنني اميل الى سبب

آخر ، هو ان الارتطام بالارض كان لا بد ان يحدث دويًا ينبه
الحراس على السور ، فأثر التدلي .. كان عسكرياً في الاصل ، قائد

مئة ، لاتنس هذا .. لقد حارب اعداءه باسلحتهم ، رفض ان يدير
خده الايمن لمن يضربه على خده الايسر .. كان ، باختصار ،
رجلا .. كأملك !

قرع كأسه بكأس فياض في زهو وانتشاء .. كان يشتعل ،
وعلى استعداد للتضحية بنفسه في هذه اللحظة ، لكن في هذه اللحظة
لابعدها ، وحين قارنه فياض بخليل وجد اختلافاً بيننا ، وقال في
نفسه : « صالح لاشعال النار ، اما ان يكون وقودا فذلك
شيء آخر .. »

وتمنى فياض ان يعرف المزيد عن حياة رب البيت فرفض
هذا، ولما سأله « ألم تكتب شيئاً ؟ » اجاب :

- بلى .. محاولات ادبية كما قلت .. على شكل يوميات .
- وهل تسمح باطلاعي عليها ؟
- بسرور .. لكنها يوميات خاصة ، تتعلق بالعمل ..
- اعني مكتوبة كيفما تيسر ..
- وهذا بالذات مايجعل قيمتها اكبر .. سأعطيك رايتي
فيها غدا ..

وافق جوزيف على الفكرة ، ولكنه لاحظ :
- لن تكون مسروراً بالاطلاع عليها .. انها خلفية
الواجهة ، وستأخذ فكرة سيئة عن محاولاتي ..

- لانهم لذلك .. اذا كنت تريد رأيي فيها فدعني

اقراها ... هيا .. اعطني اياها ..

غاب جوزيف فترة طويلة حتى نخشي فياض ان تكون
اليوميات قد ضاعت ، او مزقتها احدى الصغيرتين ، ثم اطل حاملا
دفترا بغير جلد ، وكان ينفذ الغبار عنه ويهز برأسه :

- من الصعب الاحتفاظ بشيء سليم في هذا البيت ..

ماريان (ابنته الكبرى) مزقت الجلد ، ولا ادرى من انزله
من المكتبة ووضعه في الزاوية ..

- هذا انا .. هل كان بين المجلات ؟

- نعم ، ولكنه سليم ، الفئران نفسها تعاف

قرض افكاري .

وضعتك ضحكة معافاة ، ووضع الدفتر في يد فياض الذي
حمله وانصرف ، بينا تناول هو كتبه النظرية معلنا انه سيسهر
لقراءة بعض الفصول .. بيد ان الضوء اطفئ في البيت بعد دقائق ،
فابتسم فياض في غرفته وقال :

- بأطرف جوزيف في هذه الدنيا !

كانت اليوميات مشوشة تعافها الفئران حقا . واذا سميت
حوليات تكون التسمية اكثر انطباقا . . وكانت ثقافته اليسوعية
غـير خافية عن العين ، برغم ان المواضيع شخصية جدا . .
ثمة صفحات تدور حول زوجته والحياة في بيروت ، وعائلته بصورة
عامة ، وفي هذه الصفحات توارب رخ شراء بعض الاثاث ، ومواعيد
الاستحقاقات ، وملاحظة تقول : سألت هناء اليوم : ماذا تريدن
يامدام بعد ؟ فاجابت : ثلاجة . ثم ماذا ؟ - غسالة . وغيره ؟ -
سيارة . ويعلق قائلا : في القرية ، وقبل وقوع المقدور (الزواج)
كنت اسألها : ماذا تريدن يا هناء ؟ - حبك . ثم ماذا ؟ - الزواج .
وبعده ؟ - كوخا نجعله عشا لغرامنا ! وينتهي الى هذا الحكم :
المدنية مفسدة ، وبببتي اكثر افسادا . ويقول : رغبة بجنونة
تتملك الجميع في الاثراء ، دون اي اهتمام بالوسيلة . . ورغبة بمائلة
تتملك الناس في نسيان منشأهم . . ميكيا فيلية صريحة . . الكنائس
تمتلئ بالمصلين دائما ، واحسب ان الجميع ، في ختام صلواتهم ،
يطلبون غسالات وثلجات وسيارات . يخيل الى انهم يعملون
بقول المسيح : « اطلب تعط » ، ولكي يكون طلبهم اوقع واسرع
يرفعونه في بيوت الله . . ربما كانوا لا يفكرون بهذا مباشرة ،
لكن عقولهم الباطنية تعمل كآلات حاسبة دقيقة . . ثم يضيف :

« الامكنة الاخرى ، مزدحمة ايضا ، فالناس في بيروت ، يصلون كثيرا ، ويكفرون كثيرا ، وبنفس السهولة التي يذهبون بها الى بيوت الله . . يذهبون الى بيوت الشيطان ، .

ويختتم هذه اليومية العلانية بالكلمات التالية : « لاشيء حرام ولا شيء ممنوع . . تستطيع ان تزني وتقامر وتهرب المخدرات ، كما تستطيع ان تتاجر وتغش وتثري وتفلس وتتحرر على « الروشة » . . والعجيب ان الناس يحاولون الظهور بمظهر المحترمين واكثرهم ينجح في هذا « الكاموفلاج » . وقد كتب الكلمة الأخيرة بالفرنسية ، ووضع الى جانبها رقم واحد ، ولم يأت على شرحها في الهامش ، وربما نسيها او لم يفتح القاموس بشأنها بعد

وفي يومية اخرى يصف قريته ميروبا في كسروان :
« جلست على صخرة كبيرة تقوم على كتف الوادي . الوقت غروب . الصمت جليل ، رهيب ، واسع ، كأن الدنيا كلها قد صمتت . « اخلع نعليك يا موسى فانت في المكان المقدس » فهل المكان مقدس لانه مهجور في هذه الساعة ؟ على الانسان ان يعتمد نفسه بالصمت لا بالماء ، ففي الصمت يعود الى اصله ، الى الطبيعة التي هو منها واليها . انه يتطهر ويسمو بنفسه الى درجة الانخراط في السحاب وملاقة الرب . . كذلك هو التجلي ، وفي جبل كهذا تجلي الرب للمسيح ، ظهر له في هالة من نور ، كما تراءى لموسى في نار العوسجة بالبرية . . وليس عبثاً ان التجلي كان في جبل لبنان ،

فهذا الجبل ، في مهابته وجماله ، هيكمل علوي ، ويكاد الانسان ، وهو واقف على القنفة ، يلامس السماء بيديه ، ويسمعها رسالة الأرض بشفتيه ، ويغتذى بالهواء ، فالهواء في الجبل غذاء .. وهذه اجسام ابنائه شهادة .

وتنقطع اليوميات بعد ذلك .. ثم يستهل احداها بالعبارة التالية : سرت اليوم في بيروت بدون عمل ودون هدف .. كنت اجذب في بحر من ضياء .. وقد اخفقت للشهر الثالث في الحصول على عمل ، اللعنة ! وتلي ذلك ابيات لبودلير بالفرنسية ، وتحتها مايلي : خربني المعلم في الدير لأنني كتبت هذه الابيات على دفترتي .. وها انا اكتبها مرة اخرى .. نكابة به ! »

ثم يخصص يومية كبيرة لعمله في احدي الصحف فيقول : دخلت داراً للنشر تصدر عنها جريدة (. . .) . عملي اداري في الأصل ، ولكن علي ان اعيد بناء كل شيء ، وكأن شيئاً لم يكن .. علي ان ارمم المتهدمات في كل مكان ، ولكن من اين ابدأ ؟ هنا كل موظف وكل محرر يعمل مايجلو له عندما يجلو له ، كأنهم جوقة موسيقيين بوهيميين ، كل منهم يدوزن آله ويعزف مايشاء وقت يشاء .. ولنقل ان المحررين ، برغم تسيب العمل ، يلتزمون بالخطّة السياسية العامة التي وضعها صاحب الدار ، وهي الموالاتة ، باعتدال ، للعهد في لبنان ، وبمباشرة دولة كبيرة دون التظاهر ، واطراء مشايخ الخليج العربي ، وجميع ملوك ورؤساء

وامراء البلاد العربية ، وعدم التعرض لحكام البلدان المجاورة ،
وعدم التشهير باليسار ، . وباليمن ايضاً ، وبجارات بعض الاحزاب ،
ونقد الرأسمالية نقداً خفيفاً . . ونقد الاشتراكية نقداً خفيفاً ايضاً !
« اتساءل : ماهي خطة الجريدة اذن ؟ واضح انه لا خطة
هناك ، ولا أدري من يقرأ جريدة كهذه ، واحسب ان اللبناني
العادي يقرأها ، مع بعض الجرائد الأخرى المماثلة ، ويرسل بمعظمها
الى المطبخ . . . ان هذه الجريدة الآن ، لاتضر ولا تنفع ،
ومسؤولتي فيها ادارية بحتة ، وقد اتوصل بعد شهر من العمل -
المضني في حر بيروت اللزج الى دعوة موظفيها ومحرريها الى النظام
والانضباط ، وبعد ذلك اسعى ليكون للجريدة لون وطني أكثر
وضوحاً ، وفي أسوأ الحالات ، سأسعى لئلا تنزلق الى مواقف
لا وطنية . . ان اتجاهها في الوقت الحاضر بموه بوطنية باهتة ، وعلي
ان اجعله اتجاهها وطنياً صحيحاً ، واعتقد انه سيكون لي كلمة
مسموعة فيها لأنها كلمة « حكيمة ! » . . فاذا ذهبت « حكمتي » ،
هباء - كما ارجع - اكتفيت بضبط شؤونها التجارية والادارية .
ان موظفيها يزدون الآن عن حاجتها ، وسأبقىهم جميعاً في
العمل ، واترك لنفسي امر الاشراف ، وهذا الترتيب سيدع لي
وقتاً كافياً للاهتمام بشؤني الثقافية ، وهنا يكمن مكسبي الاكبر .
« بخير . الى انه لابد من الر كض للحاق بالقطار الذي فاتني . .
فهذه هي المرة الاولى التي يتاح لي فيها ان اعمل لتحقيق هدفين في

وقت واحد : لقمتي وثقافتي ، هذه التي لم اتعلم ولم اعش الا لتحقيقها ..

« كنت في الماضي أكّد واتعب لأحصل على المعاش فقط ، وكنت أشعر أن عملي طيلة يومي يستنفد كل طاقتي ، فاذا قررت الاكتفاء بنصف معاشي ، على أن يبقى لي نصف وقتي ، تدني المعاش وظل العمل يستغرق الوقت كاملاً . وكنت اذا غامرت وتعبت علي اربيع ما يعفني من بعض العمل فيما بعد ، فتحت هناء ، والحياة اللائقة ، أبواباً جديدة للانفاق ، فلا اخرج الا خاسراً ، منهو كاً ومديوناً .

« لماذا لأصل الى تحقيق هدي ؟ الاسباب ، كما ظهر لي ، هي عدم الاهتمام كلياً بما هويومي ، أي بمعاشي ، لأن لي تطلعاتي الثقافية ، وبذلك أكون كمن ينام مع هند وقلبه عند ليلي . ثم ليس لي ولا قدر من « البندقة »^(١) ، فلكي ينجح المرء في بيروت عليه ان يملك النباهة مع « البندقة » ، والعلم مع النباهة مع « البندقة » ، والجرأة مع العلم مع النباهة مع « البندقة » ، والحذر والشك واللاطف والقسوة مع كل ما تقدم ، وخاصة مع « البندقة » .. ان « البندقة »

(١) البندقة بفتح الدال هي الشطارة ، والبندوق هو ابن الحرام ، الذي تحبل به امه سفاحاً ، فيأتي مجهول الوالدين لا يحلل ولا يحرم كما تقول العامة .

ملح النجاح ، و كذلك هو الحظ ، وقد تكون لعبته الكـبرى
والحاسمة ان يهبك ربك قدراً لا بأس به من « البندقة » !

« كنت في الماضي أعمل عمل موظفين ، وأعود الى البيت
معصور الدماغ . و كنت ، في الامسيات ، اشعر ان دماغي
لا يمكن ان يعطي شيئاً ، فكنت اكتفي بسهرة مخيفة وقراءة
خفيفة . وآمل ، الآن ، ان يبقى لي من الوقت ما انفقه في انهاء
ثقافتي وتركيزها . سيرتاح رأسي لأول مرة فاثقف في البيت ايضاً ،
ولكي ألحق بالقطار علي أن اعود فأبدأ من نقطة الصفر أو بعدها
بقليل ، وعلي الا أموت قبل الثمانين . ان المرء خلال ثلاثين أو
اربعين عاماً ، يمكن ان يتعلم ويعمل كثيراً . أشعر ان الفرصة
قد سنحت لي بعد ان تجاوزت الثلاثين وأضعت زهرة عمري سدى .
لقد لاحقني الفشل حتى كدت أظنه مرضاً مزمناً لاشفاء منه ، واني
لاعجب كيف لم امرض بالسل ، وكيف لم يصبني سرطان الدماغ ،
لان ما عانيت منه اكثر الوقت كان قميناً بأن يطحنني .

« منذ شهر ونصف كنت على وشك الانهيار العصبي ،
فتداويت بالتعزي . قلت لنفسي : استعفي من واجب تحقيق هدي
الثقافي ، فلا ينبغي لي ان اكون مغروراً . ان ما حسبت نفسي قادر على
تحقيقه ليس الا وهماً من الأوهام ، وما فشلي الا النتيجة المنطقية

لأوهامي .. وقد ارتضت نفسي ماقلته لها ، وارتحت وانا كسير
الفؤاد .. ارتحت من العيش هنا والتفكير هناك .. ارتحت من
الازدواجية التي وجدتني طيلة أيامي الماضية بين فكيري ، ولكني
ارتحت وانا مهبط الجناح ، فقد عز علي جداً ان ازهد بكل ما هو
جميل ، وعز علي أن امر بأية مناسبة ثقافية او فنية دون ان اهتم بها
أو اقرأ عنها ، كما كنت افعل سابقاً .. صرت امضغ فشلي كما يقول
الفرنسيون .. وماذا افعل ؟ انا غارق بالديون . »

تتوقف يوميات جوزيف ، بعد هذا ، عن الاشارة الى اعماله
اللاحقة ، فهو يكتب شعراً منشوراً مرة ، ويترجم قصيدة لناظم
حكمت ، ويبدأ مقالة ويتركها .

وعشية عيد الميلاد يكتب يومية على طريقة جبران خليل
جبران ، فيناجي المسيح قائلاً : حملت ، ياسيد ، صليبك من دار
بيلاطس الى الجلجلة^(١) ، ونحن نحمله من المهد الى اللحد .. لقد دقوا
المسامير في يديك ، وطعنوا جنبك بحربة ، واقترعوا على ردائك ،
اما نحن فنسلب رداءنا احياء ، وبطفئون سكاثرهم في عيوننا لكي
لا نرى الحقيقة ، ومن جنوبنا ينز الدم على حراهم غير المرئية . لقد
لوثوا كل شيء : الجمال والشرف والثقافة !

ويعود في نهاية هذه اليومية ليتحدث عن عمله في تلك الصحيفة
فيقول : حتى الآن لم اعمل شيئاً ، في مجال الادارة نفسه . الموظفون

(١) المكان الذي صلب فيه المسيح .

يحقد بعضهم على بعض ، نصفهم لا يكلم النصف الآخر . . الرجال
من هذا النمط ، مثل نساء الصالونات ، ولكي ينجع المرء بينهم عليه
ان يكون ذا خبرة واسعة بالنساء . كان يجب ان اتعرف الى مهنة
الصحافة منذ زمن بعيد . . لأظلم الصحف والصحفيين جميعاً ، لكنني
اتحدث عن هذه الصحيفة التي أعمل فيها بالذات ، فقد بدا لي انها
تفعل مثل بنت الهوى : تتزوق ، وتكشف عن صدرها وساقها ،
وتغازل الجميع ، وتمنع نفسها لمن يدفع اكثر ، ولذلك سأتركها . .
لن اعود الى عملي فيها بعد العيد .

ثم يكتب يومية من نوع آخر ، بدون تاريخ :

« اليوم وقعت لي مغامرة مع امرأة في المصعد . كنت
أراها فابتسم لها وتبتسم لي . هي التي تبتسم لي ، تشتهيني . . هذا
واضح . ولن اتحدث عن شهيتي . . حسبت الزواج والهموم وكثرة
النساء تضعف منها ، ولكن الكسرواني يظل كسروانياً ، وهذه
مسألة أخرى . . المرأة جميلة ، مثيرة ، قعبة باختصار ، ولكن
محترمة ، وانا احب هذا النوع من النساء .

ثم يورد بين معترضتين هذه الملاحظة : (هذا الانحراف في
ذوقي سببه زوجتي : القديسة النائمة !) . ويتابع : كنت أسهر
في الطابق الخامس ، وكانت المرأة موجودة . شربنا ، رقصنا ،
وغنينا نظرت اليها : كانت عيناها تقول : خذني ! قلت : حسناً ! سأخذك .

يا جميلتي ، ولكن أين يمكن ان تفعل ذلك ؟ قالت عيناها :
في بيتك ؟ قلت لا . وسألت عيناها : في بيتك ؟ لا .. في الشارع
لا ، في الحرج بعيد ، في كسروان يكون الضوء قد طلع ، في
الفندق يطلبون الهويات ، في الفنادق الكبرى نحتاج الى Devises
بيروت فاضلة ، بيروت باكر ، وانا انحنى أمام هذه البكارة التي لا تعالج
الابال Devises ، وانا لا املك الـ Devises ، والمرأة تنادي ، عيناها تنادي ،
شفتاها تنادي ، صدرها ينادي ، الجلد المرتعش فوق اصابعها ينادي . آه
يا جوزيف ، انت الذي دبرت اصعب امورك تفشل في تدبير هذا الامر .
غبي . لا ، لست غيباً . خائب . اعترف ، ولكن لست غيباً . والمرأة
تنادي ، يا جميلتي صبراً ، والرأس يعمل ، وفجأة لاح الحل . منافع
التكنولوجيا يا جوزيف . تلك هي ، وجدتكم . من الذي اخترع
المصاعد ؟ حسناً ذات مرة قبلت امرأة في مصعد . والآن يمكن ان
انام مع امرأة في مصعد . يا قيمة الدماغ الرياضي ! تعالي يا « ميشيلينا » ،
لسوف يكون لك سرير معلق . اخذتها وخرجت . دخلنا المصعد
فارفع بنا الى منتصف الطابق السابع ، وهناك فتحت الباب من
الداخل فتوقف . كنت متعجبلاً ، وكانت هادئة . شرعت تخلع
ملابسها ، فقلت : لا يهم .. ليكون ذلك بسرعة ! فقالت : ولماذا ؟
واكملت .. ومن تحت ، وفوق ، بدأ اللغط والضجيج وكبس
الـ APEL . اكبسوا ماشتم .. المصعد يتعطل كل يوم ، واغبر ما
فائدة ، والآن تعطل لفائدة ، ارحموا انساناً عصبياً اضطر الى ممارسة الحب

ببدائية انسان الغابة ! انتظروا ! واهتز المصعد تحتنا ، فضحكت جيلتي ،
وتكلمت . . يا للفضيحة ! وضعت يدي على فمها فصاحت : هذا غير
لذيذ بدون كلام . وجعلت تصرخ ، كانت لا تستطيع الا ان
تصرخ لسوء الحظ ، ويزداد صراخها كلما اهتز المصعد ، وتقول :
IL me plait, IL me plait comme dans le Train (يلذ لي ، يلذ لي
كما في القطار) فاخفق صراخها وأخفق ضحكي . . آه يا قديستي
النائمة هناك ، يا زوجتي البليدة ! أنت تحملين بمار شليطا ولا شك ،
وزوجك يرقص مضطجعا في الـ « TELEFRIQUE » .

هذه خطيئة ؟ حسناً ، سأركب جميع الخطايا الممثلة ،
ما دام قد صار لي « شاليه » او « علبة ليل » او فندق يتساهل مع
الفضيلة بدون ان احتاج الى الـ Devises .

وتستمر اليوميات على هذا النسق الماجن ، وتحمل احداها
هذه الملاحظة : (زوجتي لا تقرأ يومياتي كما يبدو ، والا لاستيقظت
« القديسة النائمة » مرة في العمر على الأقل) .

* * *

القي فياض دفتر اليوميات جانبا ، ونهض يدور في غرفته .
تأثر جداً لهذا الوضع السيء الذي يتغبط فيه جوزيف ، وعجب ان
لا يظهر ذلك على وجهه ، فهل هو متشائم حين يكتب ، ام انه
ينحفي مصاعبه حين يقابل الناس ؟ قد يكون حساساً جداً ، وربما
كان يضخم المساويء كعزاء عن الفشل ، ولكن بأية خطوط

قوية وصادقة يرسم لوحة الحياة الداخلية لمدينة بيروت ؟ ثم اية براعة يملك في التعبير عن آرائه ، برغم مافيا من نزعة جبرانية واضحة ؟ لبنانه شيء كبير وجميل ورائع ، وانه ليتحدث عنه ويناجيه كصوفي ، وحتى انه يضيف اليه اشياء لم ينسبها التاريخ اليه ، مثل التجلي للمسيح على احدى قممه ، غير ان لبنان في الواقع ، فاتن كما يقول .. « الآن فهمت لماذا يسكر جوزيف .. ربما اضحى الشرب عادة بالنسبة اليه . اما في البدء فقد كان محاولة للنسيان ، ومن العجيب ان هناء لاتفهم مصاعب زوجها ولا تشفق عليه ، فهل هي جاهلة تماماً بما يقاسي ؟ ولماذا لاتقنع بعيشة متواضعة وتترك التشبه بأخيه المليونير واخته « المودرن » ؟ واذا كانت هناء لاتوقف اندفاعها في تيار « الموضة » ، فلماذا لايشور جوزيف على هذه المهزلة ؟ » .

اعترف ان بيت ابي خليل ادعى الى الراحة ، لانه اميل الى القناعة ، « ولكن في هذه الحال يصعب دور الطموح اقل تأثيراً . وعلى المدى اكثر تعويقاً للتطور .. من حق الناس ان يطمحوا ، وان يحلموا بمستقل مادي افضل ، وعيب هناء انها لاتقيم وزناً للملاءمة المطلوبة بين مشروعية الطموح وضرورة الواقع .. جوزيف فهم هذا فتحول ، ولو على طريقته ، وهذا في حد ذاته شيء حسن بالنسبة اليه ، اما بالنسبة لي ؟ »

ظل طوال اليوم التالي قابلاً في غرفته ، شارد الذهن ، يفكر في مخرج من وضعه الصعب . البيت الذي يعيش فيه أسوأ

من بيت ابي خليل . الجدران هناك عارية ، ولكنهما
متناسكة ، والعائلة تعيش على الكفاف ، ومن كفافها كان يأكل ،
اما هنا فالمظاهر تحجب الحقيقة ، والجدران المزخرفة قد تتعري في
اية لحظة ، والحجز بالمرصاد اذا تأخرت الأقساط والديون ، وكل
شيء زائف ، برغم الجوهر الطيب .

عند الظهر تحامل على نفسه وذهب الى قاعة الطعام . تناول
منه قليلا دون شهية ودون ان يقول لهنا : « انا اعرف الحقيقة ! »
كان الدائنون خلال اقامته القصيرة يقرعون الباب ، فتصرفهم هنا
باساليب مختلفة ، ولا تجد غضاظة في ان تكذب ، وتتوسل ،
وتتملق . لكن الدائنين سيعودون ، وسيزدادون في المستقبل ،
ويزداد حرج جوزيف وارثيا كه ، وكذب هنا وتوسلها وتملقها ،
وسيكون هو شاهداً على هذا ، مشاركا فيه ؛ طالما انه فم من الافواه
الطاعمة من هذا الدين بحكم الضرورة .. وصاح « ملعونة كل
الضرورات من الازل والى الازل ،

غامر ليلا وخرج . اقسم لهنا انه ان يغادر الحي ؛
ورجاها الا تقول شيئا لجوزيف . كانت به رغبة في الابتعاد عن
الحي ، في الانفراد بنفسه خارج البيت ؛ في بث شكواه لانسان
ما ؛ وفي التجوال على غير هدى .

وكانت طرقات الأشرفية ، المتعرجة ، المتداخلة ، تقوده
الى حيث لا يدري . والناس يرون به فيتساءل : هل يدري

الآخرون بحالي ؟ » ورأى أجير حمصاني يحمل صنية عليها أطباق فقال : « له عمل على كل حال » . وشاهد رجلا وسيدة أنيقة يتضحكان ففكر بسعادتها . ومرت به فتاة صغيرة تحمل لعبتها بيد وتمسك اباهما بيد ، فقال لها في نفسه : « يا عزيزتي الصغيرة ، يا ملاكي ، لا تكبري بسرعة .. ظلي صغيرة » .. ومضى يدور وهو يستعرض الوجوه والحوانيت ونوافذ البيوت حتى تعب ، وحين وسوست له نفسه ان يقترب من بيت أبي خليل ويلقي نظرة على « فتاة النافذة » خجل ، واستشعر النقمة على نفسه لانه خجل ، ولأنه لا يستطيع ان يعيش كالأخرين ، مع انه قادر على ذلك . « خليل يعيش ، وأم بشير تعيش ، وجوزيف كذلك . لكل منهم مصاعبه وأسلوبه في مواجهتها . حتى والدي كان يعيش . أمي وحدها ميتة حية . » هذا الولد يشبهك يا نزهة .. أكلته الكتب ! » لكنني خيبت ظن أمي . أنا لا أشبهها .. لم اكتب مثل جوزيف عن اشياء لا تكتب مع أني عرفت مثلها .. رباه ! لو تقال الاشياء التي لا تقال ، كم كان الناس يبدون أسوياء ؟ كم كانوا بخير لولا النفاق ؟ منافق ؟ لا .. ولكنني لست صريحا ، المجتمع علمني أن أكونه ، أن أظاهر بما لا أحب . كنت سخيفا ، وكانت لي حماقاتي ، لكنها لم تكن عفوية كحماقات جوزيف . افعل كل شيء بحذر ، بتدبير ، بخوف من شيء ما ، بدون أصالة ، بدافع من الواجب . الفتى قبل الفتاة في المدرسة ولم يحذر او يتخوف من الطرد . وأبي

اثارته الالمانية في السريو ، والدنيا حرب ، والمدير قادر على شنقه .
ولم يفكر بالشتق . ولا أم بشير فكرت وهي تجمع الفساتين الحمر ،
او تحسب خليل وهو يلبق النشرات في اول ايار ، او تردد جوزيف .
أمام نداء العنين الى الأخذ .

كانت تصرخ : Il me plait, il me plait comme dans la Train

والمصعد يهتز ، والناس يضغطون ازراره ، وهي تعيش
لذتها ، غير مبالية بشيء . انها تعيش ، وأنا لا أعيش ، اكتب قصصاً
ولا اعيش حياة . عالة على جوزيف ، وجوزيف غارق في الديون . .
مناضل ؟ حسناً ، ليس النضال داخل الجدران . . احمل صليبك
وارحل . . هذا هو الطريق . .

عاد أخيراً الى البيت . . كانت هناك على نار . . تخاف أن
يرجع جوزيف فلا يجده ، فينهال عليها لوماً وتقريباً . . وحين صار
فياض في الداخل قالت له :

— هذه اول وآخر مرة . . ندمت بعد أن سمحت لك

بالخروج ، ماذا لو حدث لك حادث ؟

— وماذا يهم ؟

« كيف ماذا يهم ؟ » أرادت أن تشرح قلقها ، ومسؤوليتها ،

وخطوره تصرفه ، فابتعد متجهاً الى غرفته يملؤه الأسى والهم .

اغلق الباب وراءه ، وتمنى ألا يدخل عليه أحد .

* * *

وقال له جوزيف بعد قليل :

— لك عندي بشارة .

— ما هي ؟ .

فأخرج رسالة وقال : « هذه هي » . تتناولها فياض ونظر في غلافها . . كانت بدون طوابع ، بدون ختم ، وإذن فهي ليست من الوطن ، بل من صديق يرأسه من بيروت بالواسطة . شكر جوزيف ، واعتذر اليه عن السهر ، زاعماً انه سيكتب ، ولما صار وحده فض الرسالة وقرأها . كانت تصف حالة المشردين من أمثاله :

« الوجوه الشاحبة ، السادرة النظرات ، قطالعك في كل شارع . . لو رأيت الى اخواننا الآن ، لحسبت ان ينبوع الأمل غاض في اعماقهم حتى لم يبق الا السراب . . ينظرون الى الدنيا تتحرك من حولهم وهم واقفون . . العمل كل امنيتهم ، ولكن أين هو ؟ . ليسانسات بالعشرات تعرض كذا كر الهوية على ابواب مدارس خاصة ترمست بترويض ذوي الحاجة . تقول لهم : « معكم ليسانس ؟ طيب مئة وخمسون ليرة في الشهر ، ثلاثون ساعة تدريس في الاسبوع ، عشرة صفوف ، الف دفتر وظيفة . . ويدخل المعلم معسكر الاشغال الشاقة ، وتلفظه المدرسة في الصيف بلاراتب ، معصوراً حتى الثمالة ، كليمونة رقيقة القشرة . . وهؤلاء هم السعداء ، وهم القلة . أما الآخرون الذين لا يحملون ليسانس في التعليم ، فانهم يلوبون جائعين

معذبين ، كل منهم يحاول أن يجد ، في كل يوم ، عملاً ما : طراش ، دهان ، اجير لحام ، عامل بناء ، عتال في المرفأ . أي شيء من هذا القبيل ، ولكن هيات ، فالرفض هو الجواب الدائم . وكل يوم يقومون بنفس المسعى ويلقون نفس الحية ، وكلما طلع نهار جديد حاولوا ايقاد نار جديدة ، ولكن من العبث اشعال سيكارة مبللة . . انها تتفتت ، ولا ينال المرء سوى دخان دنس .

طوى الرسالة وأعادها بهدوء الى المغلف . . اجتاحتها موجة من الحزن غمرت الموجة السابقة . . « كلما طلع نهار جديد حاولوا ايقاد نار جديدة » وأغمض عينيه ليتصور الباحثين ، كل صباح ، عن العمل والأمل ، وتخيلهم سائرين مترنحين في شوارع المدينة الكبيرة ، او واقفين معذبين في ساحاتها يحدقون في الناس والفراغ ولا يدرون ماذا يفعلون . . وفكر انه سيكون واحداً منهم ، يبحث بدوره عن اللقمة فلا يجدها ، ويضطر ، كلما طلع صباح جديد ، الى اختراع أمل جديد ، الى ايقاد نار جديدة ، وتساءل وقد وضع رأسه بين راحتيه مقهوراً :

« كيف السبيل الى ايقاد نار جديدة !؟ »

- ١٩ -

ترك جوزيف عمله في محل المفروشات الحشوية والمعدنية فجأة . وهكذا جاءت الأزمة بأمرع مما قدر فياض . اليوميات

- ١٩٠ -

صادقة . موقف جوزيف المنهور ونزقه مع ارباب العمل واضحان ،
فالذي عمل في التعليم والمحاسبة والتجارة والصحافة ، ولم يثبت لأنه
لا يتحمل ، قد كان متوقفاً ألا يظل طويلاً في معمل المفروشات الذي
يملكه شريكه ، فاسيان وغبيان ايضاً . إنما لم يكن يتصور ان
جوزيف سيغامر ، ويرضى البطالة ، وهو عنده ، والديون ،
والأقساط ، والحاجات اليومية الضرورية تتكاثر ويزداد ضغطها .
وحين ابلغته هباء ، وهما يشربان القهوة ، ان زوجها ترك عمله وراح
يبحث عن عمل جديد ، سمع دقات جرس الرحيل تقرر قرعاً
عنيفاً متواصلاً .

وفي معرض التبرير ، قال جوزيف مساء ، ان ما فعله كان
لا بد منه » لقد نال مخططى التنظيمي موافقة الحبير الذي عينه
الشريك الكسرواني ، ولكن هذا ، وان احاط نفسه بعدد من
الخبراء ، لم يكن يعمل الا وفق هواه . شرع ، منذ أن تسلم المخطط ،
يشطب منه ، ويضيف اليه ، ويحوره حتى شوهه وطمس معالمه ،
ثم ألقاه في سلة المهملات ، وقال : هذا المخطط لا يسوى الورق الذي
وضع عليه ، والحبير الذي وافق عليه لا يستأهل اتعابه ، انني اعرف
كل شيء ، ولن يستطيع أحد أن يجري الماء من تحتى . . هذا المخطط
وضع لمصلحة شريكى .

سأل فياض :

— بشك في شريكه إذن ؟ .

فقال جوزيف :

- يشك بشريكه ، وبى ، وبالخبراء والجميع ، يجلس على ملاينه ويلقي علينا جميعاً نظرة احتقار . أما الشريك فقد صور له غباؤه انني ضده ، لمجرد انني أهمل شريكه ، فراح يعاكسني ، ويقاومني ، ويضطرنني الى ترك العمل إضطراراً .

- وقد نجح !

أشعل جوزيف سيكارة ، وسحب منها نفثاً طويلاً وقال :
آه يا صديقي ، لا تتسرع بالحكم علي .. تركت عملي لأنني عجزت عن الاستمرار .. جعلني هذا العمل أؤمن بالسحر وأصبع من أصحاب الطيرة .. صرت أتشاءم من أشياء وأتفائل بأخرى ، بينا الأمور تسير من سيء الى أسوأ .. كان علي ان أحارب على جبهة الشريك الكسرواني ، وعلى جبهة الشريك الأرمني ، وعلى جبهة الغباء ، وجبهة الشك ، وأبقى في حالة استنفار لمفاجآت دائمة ، أكثرها آت من تضارب الأوامر والآراء .. كدت أجن ، او أنتحر ، وأخيراً قدمت استقالتى وقلت في نفسي : « لنذهب ، الكسرواني والأرمني ، وأنا الى الشيطان » .

« وقال فياض في نفسه : أجل ، كان لابد من الذهاب الى الشيطان . ان مملكة الشيطان واسعة . »

وفي فضاء غرفته ، حين دخلها وأطفأ الضوء ، تعالت دقات الرحيل التي سمعها قبل قليل .. جعلت تدوي وتقترب حتى ظهر

الجرس وارتسمت طريق عليها ، كالإشارة ، صليب من خشب ..
وخيل اليه ان الدقات تهتف به :

— إرحل ! إرحل ! إرحل !

وقمه فم كفتحة مغارة ، ونبتت لحية سوداء كذيل ،
وإرتسم حاجبان كثان مقوسان ، وظهر شبح مقنع كما في الأوبرا
الصينية وصاح :

— إلى أين ؟ إلى أين ؟ إلى أين ؟

واشتدت دقات الجرس :

— إرحل ! إرحل ! إرحل !

فاقترب الشبح ووضع يده على كتف فياض وقال :

— لا ترحل .. لا فائدة من الرحيل .. أنظر .. على الطريق
صليب .. وهناك حجارة .. بهذه ميرجومونك .. وإلى أبعد حفرة ..
هذه قبر .. لن تصل أبداً .. انت تعذب نفسك سدى ، ولماذا
تفعل ؟ أتريد تغيير الحياة ؟ وما الفائدة ؟ هكذا كانت وهكذا
ستبقى !

وضجت القاعة بدوي الجرس :

— إرحل ! إرحل ! إرحل !

فتحرك الشبح حتى صار قبالة وقال :

.. حسناً . ارحل . ولكن قل لي الى اين . ؟ منتقل من بيت الى بيت ، ومن عذاب الى عذاب ، وأخيراً ؟ العين الحفية تراقبك ، واللغة المرة تنتظرك ، والكلمة التي تقولها ستضيع ، كالقشة في الريح ستضيع . ان حب الزارع هنا يقع على حجر ، وان نبت يخنقه الشوك .. الأرض دمنة فلا ينبت زرع .

وارتفع من باطن الارض سور أسود في الطريق ، فقهقه الشبح وقال : « امامك سور يا فياض . . وانت لا تستطيع هدم السور .. جرب ذلك » يا جوج وما جوج ، قبلك بمئات السنين . . كانوا قوماً بعدد النمل ، وكانوا يلحسون السور من الصباح الى المساء ، فيرق حتى يصير كقشرة البصلة ، ثم يأتي الليل فيعود كما كانت : لا طريق ! أنا انصحك ، فاقبل نصيحتي . . ارجع . . تعالى الي ، انظر الى وراء : بيت فخم ، مكتب انيق ، فراش وثير وامرأة جميلة . . انت منذ شهر لم تضع يدك على امرأة جميلة . . لم تعانق الدفء في جسد حار ، ولا اطبقت شفتيك على شفيتين ، ولا احتوت كفك غدة ملتهبة في صدر ، او سمعت اذناك انة استسلام محموم .. الشباب لا يدوم ، والعدل لا يرجع الشباب ، والحسرة نار بعد فوات الأوان .. انظر .. ،

تطلع فياض فرأى امرأة .. من غير هذا العالم رأى امرأة . كانت توليه ظهرها ، في قميص حريري بلون السمن . . ثم انفتح قميصها من أعلى .. بان أعلى الجذع ، رخاماً مورداً بان أعلى الجذع ،

وراح القميص يفتتح ، ولوح الظهر يستطيل ، وتوقف عند الحقوين ،
ظل القمص معلقاً بالحقوين ، وخيل اليه أنه سيسقط عنها ، وان
تمثالاً حياً عارياً سينتصب أمامه ، لكن المرأة استدارت ، ورأى
الصدر فاتناً كالظهر ، والقميص ، من امام ، يستر الندين ، ويدها
تمسك القميص على الندين ، واليد الأخرى ، مفتوحة على مداها ،
تتقدم نحوه ليلتف ساعدها الافرواني على عنقه ..

وقرع الجرس الكبير كما في ساعة الخطر او الزلزال ، وظل
الجرس الكبير يقرع ، والغرفة تضج وتضطرب ، واصابعه تلمس
الجدار باحثة عن مفتاح الضوء ... ثم اختفى الشبح والمرأة وكل
شيء ، ومن بعيد تنهت اليه ترانيم يصحبها عزف على الارغن :

« في ذلك الزمان ، جاء ابليس الى يسوع ليجربه ، فاخذه
الى جبل عال جداً واراه ممالك العالم ومجدها ، وقال له : اعطيك
هذه جميعها ان خرت وسجدت لي ، فقال له يسوع : اذهب عني
يا شيطان .. وقال يسوع لتلاميذه : الحق اقول لكم : ان اراد
أحد أن يأتي ورائي فليترك نفسه ويحمل صليبه ويتبعني .. ان ابن
الانسان لم يات ليخدم بل ليخدم ، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين .

* * *

جمع فياض كتبه واوراقه وقرر ان يرحل .
اختبأ شهوراً وهذا يكفي . اكرمه اصدقاؤه

ورعوه . . فعلوا ذلك تقديراً لأدبه الذي يكافح على نفس جبهتهم .
وعليه الآن ان يبرر هذا التقدير . . ان يصمد في وجه الحياة ومصاعبها ،
ان يخرج ليلقاها .

تذكر رسالة صديقه عن الذين « يحاولون كلما طلع نهار
جديد ، ايقاد نار جديدة » وقال : فلا تكن واحداً منهم . . ان احاول
ايقاد نار جديدة خير من اصطلاء نار الآخرين . . ان ابحت عن لقمتي
خير من تناولها من صحون مضيئي . . ثم هاهي صحون مضيئي
فارغة . . والشبكة العنكبوتية الدبقة تزحف نحوهم كقدر ، وفيما
هم يجاهدون للخلاص ، يصبح وضعي لديهم كحجر مربوط في عنق
غريق يصارع الموج العاتي .

« يا نفس ! يا نفس ! يا بمتلثة من كل مكر خبيث ، يا بنت
ابليس ، يا عدوة كل بر . . لا تعوجي سبلي المستقيمة » .
سبله المستقيمة واضحة : ان يمضي ويعمل . . وعليه أن
يفعل ، ويلجئ كل وسوسة ماعداها .

- ٢٠ -

صاحت ام بشير وهي تراه :

- انت هنا وأنا ابحت عنك ؟ لولا الست هنا ما اهتديت
اليك . . عند اختي لا يقولون ابن انت ، و خليل غارق في مشاكل
النقابة ، والغريب الذي سأل عنك في الحي عاد مرة اخرى ، فقال ابو

خليل : سيكبسون البيت .. ولكن فياض انتقل .. الحمد لله
انه انتقل .

قال فياض :

- وانت ؟ كيف انت ؟ كيف العمل ؟ هل لديك زيجة
جديدة . ؟

- جديدة ومحروزة .

- ومن العريس هذه المرة ؟

- انت . اتحسب حركاتك خافية علي .. امس كنت
عندها .. آه ما اجملها .. ذوق استاذ ! انا عشقتها . تصور ، امرأة
تعشق امرأة .

قال فياض :

- انا لا اعرف اية امرأة .

- اذن انا اخترع ، قل رأيتها في المنام . نعم في المنام
رأيت فتاة سألتني عنك ، قالت لي : من هو الشاب الذي
كان في بيت اختك ؟ وانكرت ان يكون في بيت اختي احد ،
فظهر عليها الضيق . قالت : لا تنكري ، رأيت به بعيني . كان في
الغرفة لا يخرج منها ، وكان يقف وراء ستارة النافذة ، وسمعت في
الحي همساً حوله ، وراقبته وادركت ان له مشكلة .. انا لا ادري
ما قصته ولكنني .. وسكنت ..

قال فياض مقاطعاً :

- وانت استنتجت من سكونها انها تحبني .

- في المرة الاولى نعم .. ولكن بعد ذلك تكلمت اكثر .

- وماذا قالت ؟

- ولماذا تسأل ؟ اذا كنت لا تعرفها فلماذا تسأل ؟

لا جواب . الصمت اقرار ، وهو الآن اقرار عذب واسيف .
والاسف ليس من الحجل ، فالمرء حين يكون محبوباً لا ينجل ،
يشعر بزهو ، وفياض يمارس هذا الزهو مشوباً بحسرة . « ابلع
السكين ولو جرحتك . قل انك لا تدري شيئاً ، انت أسوأ من
سجين ، هذا يعشق من نافذته وانت فلا . السجن بيت السجناء ،
وانت سجين بدون بيت ، ومن العقوق ، في شرعة الاخلاق ، ان
يعشق المرء من نافذة جاره . لقد ثقت « الأخلاق الفاضلة » للحي ،
في بيت صديقك ، ولو علموا انك استخدمت نافذتهم للعشة ، لارتابوا في
انك استخدمت بيتهم للعشق ايضاً ، وعندئذ ينبت قرنا الشك ويشوهان
وجه من هم في مثل وضعك . المفروض انك مناضل ، والمناضل من
حفظه الوصايا ، ولا حق لك في أن تلتطخ الصورة . المسمار الذي
نزعت من قلبك أعده الى مكانه . دع جرحك ينزف . اشرب كأس
الحل . اشعل عود ثقاب واحرق البرعم . موّه الأمر على ام بشير
طالما انه صار في ذمة الماضي . »

قال فياض :

- أسألك بدافع الفضول . أليس عجيباً أن تحبني فتاة

بغير أن أعلم ؟

- الاذن ان شئت قبل العين .. اما سمعت المثل ؟

- ولكنني صاحب مشكلة كما تقول .

- أصحاب المشاكل محبوبون اكثر .

- فسري المسألة كما يحلو لك .

- أنا لا افسر بل انقل . قالت انها تحبك ، وحتى لو لم نقل

فهي تحبك .. أنحسبني جاهلة ؟ تذكر مهنتي .. التي تزوج الناس تفهمهم
على الطائر .

دخلت هناء حاملة القهوة ، فسكتت أم بشير وغيوت

الحديث . بينا راح فياض يدور في الغرفة ليرتب أفكاره . قال في

نفسه « لا يمكن التعميه على أم بشير بسهولة » . وأضاف : « لماذا

أفشت الفتاة سري ؟ أهى تحبني حقاً ؟ وهل احبها أنا حقاً ؟ حسبت

المسألة لهواً ، وحتى لو صارت جداً ، فما كان لها ان تتكلم .. بعيدة

هي الآن . بعيدة أكثر من كل بعد ، ولن يرى أحدنا الآخر .

طيفاً كانت ، وطيفاً كنت . حلم .. حلمنا ثم أدر كنا الصباح ،

ومن حسن الحظ ان الأحلام تنسى بسرعة . »

هناء وأم بشير يتحدثان . يشربان القهوة . ما طعم القهوة؟ في

الماء ألقى حجر . ولسوف يروق الماء ، وكرة اخرى يلقى فيه حجر ،

ويظل يشتهي ان يلقى فيه حجر . . في بيت أبي خليل أحسست ان
زهوري تذوي فاستسقيت الغيب نقطة مطر . ثم جاءت نقطة المطر .
المرأة ونقطة المطر . أعز وأغلى ، ولكن البحور السبعة أمامك .
عليك ألا تلتفت الى وراء . . بدون امرأة أمض . . ست بدور ،
على الشواطئ الأخرى ، ومن يطلب امرأة ، لا يصطعب معه
إمرأة . .

وصاحت به نفسه : « لا بد من امرأة ، وصاح بنفسه :
« أفهم ! أفهم ! أنا لا أرفضها ، ولكن في مثل وضعي ، ماذا أفعل
بها ؟ تسير في طريقي ، أم تميل بي الى طريقها ؟ هـاء أخرى ؟
« ياجوزيف ثلاجة ، غسالة ، سيارة . . ام فتنة كالتي راودته أمس :
جذع عار ونهدان مسكران ؟ وأنا ؟ والدرب الطويل ؟ وحدي أم
معي امرأة ؟ صليب وإمرأة ؟ أم امرأة بدون صليب ؟ أم صليب
بدون امرأة ؟ ايه ، يا نفسي ! يا نفسي ، لاتعوجي سبيلي
المستقيمة . .

وقال لأم بشير بعد ان خرجت هـاء :

— طلبتك لتدير عمل لا زوجة . أرجوك ، ساعديني في
الحصول على عمل . طلبت ذلك من أصدقائي فرفضوا . و خليل ايضاً
رفض . ربما كانوا على حق . ولكنني لا أطيق البقاء . يكفي ، علي ان

أحصل على خبزي . سأذهب ، ولن تراني الفتاة مرة أخرى ، قولي لها
لم أراه ..

* * *

ذهبت أم بشير واعدة بالبحث عن عمل . قال لها :
« أي عمل .. أريد فقط ان أخرج وأعيش ، وقالت له : « سأبذل
جهدى .. وتنفس بارتياح وقد أصبح وحيداً في الغرفة . لقد خطا
خطوة تؤكده عزمه على الصمود ... حسم الموقف بعد طول تردد .

القسم الثالث :

- ١ -

إنسل فياض من غرفته في بيت جوزيف في الصباح الباكر .
ترك حقيبته ورسالة على الطاولة ومضى .. لم يودع مضيفه ولا قبل
الصغيرتين أو قال كلمة عما أنتوى . هو الآن « سليمان » ، عامل بناء في
ورشة بـ « كرم الزيتون » .. انتهى عهد « المدرس والكاتب » ..
قطع المعبر البارد بين ما كان وما سيكون ، ووضع حداً للخور
المعذب .

* * *

في صف طويل وقف بين عشرات العمال . المعـمار الذي
عرفته به أم بشير ناداه وسجل اسمه ، ثم أرسله الى الطابق الثالث
لإنزال الأعمدة الخشبية والحجارة الى الباحة ، كانت الشمس قد
أشرقت لتوها ، وخصل تتدلى من النوافذ وتتساقط على الأرض
والادراج ، وبيروت تستيقظ على صفير البواخر وقعقة الرافعات ،
ونسيم صباحي لطيف يهب من الشرق ، والبحر الأزرق اللانهائي
يتمطر ، ورهبة من المجهول تملك فياض وهو يمشي لياشر
العمل .

رفع عامل طرف لاطة ثخينة وامره : «احمل معي» فوضع كتفه ، مثل زميله ، تحت الطرف الآخر لها ، وسار باذلاً أقصى جهده كي لا ينوء بحمله . . . كان يهتز ويضع قدمه بجذر خوف التعثر ، وبدأ يهبط الدرج العريض ، وقد لف ذراعه حول اللاطة ، واخذت هذه تضغط على رأس الكتف وتحفر فيه . . . فلما صارا في الباحة قدفا ، بوقت واحد ، اللاطة فوق كومة الاخشاب . علت ضجة صماء وثار غبار ، ونفض يديه وتنفس . . . الآن يصعد فارغاً . . . حتى الطابق الثالث يصعد فارغاً . . . لا بأس . حمل الاعمدة ليس بالأمر المخوف . . . وأنت ايتها الشمس ، أراك الآن أبهى ، انني عامل بناء . . .

وقال له زميله : حين ترفع اللاطة باعد مابين قدميك ، ذلك يريحك اكثر . فعبر عن شكره بابتسامة بلهاء . ومن جديد اهتز جسمه تحت ثقل الحمل ، وتقوس ظهره وهما ينزلان الدرج . كان في الطرف الأمامي ، والثقل يميل عليه ، والعمود يحفر رأس الكتف ، والساعة السابعة صباحا ، وامامه عمل حتى المساء ، امامه عمل حتى المساء .

« يافياض ! يافياض ! يا حديدة ألقيت في نار ، اصمد ، ولسوف ينصره المعدن . »

وقال المهندس وهو يراه في بدلة جيدة :

- لماذا لا تلبس ثياب العمال ؟ أنت في عرس أم ورشة بناء؟ .
لم يجب بشيء . تغابى كي لا يجيب ، فتركه المهندس ومثانه ،
مكتفياً بلفت نظره الى مسلكه الشاذ ، بينما اعترف هو : « ابدو
عربياً فعلاً .. ام بشير على حق في سعيها لتزويجي .. يجب أن
أحصل على ثياب عمل .. غداً أحصل على ثياب عمل . »

توالى الصعود والهبوط ، احمر رأس الكتف ، تبع ،
التهب بنار ، فعمد الى الكتف الاخرى . راح يرفع ، وينزل ،
ويطلع ، والأعمدة تضغط ، والكتف نحمر ، تتبقيع ، تلتهب ،
والغبار ، كطحين اسمر ، كشيبي ملعون ، يزحف ليغير معالم
الجهة ويلوث الشفتين . مسار ناتيء خدش العنق ، فسال دم
ونجم .. تغطي بالتراب ، كالخدوش الاخرى تغطي بالتراب ، ثم
كف عن أن يكون خدشاً ، فهو لاشيء أمام تسليخ الكتفين ،
ونخزه لانخز امام النار الكاوية فيها ، والمساء بعيد ، المساء
بعيد لا يزال .

ارتفعت الشمس ، فتتدى الجسم بالعرق ، وتقصد الجبين ،
وتشكل قطرات وسالت .. هاهي اخايد على الجهة والحدين ،
تبدو كالغضوث وسط الغبار والقش ، والقميص يلتصق بالصدر
والظهر ، وماء كالزيت يتفشى ، والساعة العاشرة بعد ..
جاء الأمر بالانتقال الى عمل آخر : رفع التربة والبيطون
والآجر من الغرف ، ونقلها بعربات يد حديدية صدئة ..

قال العامل لفياض : « اتفرش ام تجر العربية ؟ » وتناول
الرفش صامتاً .. رأى ، وسط الصالون الكبير ، قلة من ركام ،
ورؤوسا تتحرك كأشباح ، ومن حولها ينعقد الغبار ، وصاح به
المراقب : « ابدأ من هناك .. من الطرف » ودفع الرفش وكبس
عليه بقدمه ، فاصطدم بأجرة ، ولم يرفع الا قليلا ، فسحبه ودفعه
فوق الآجرة ، وسمع صوت الحديد يحز على القرميد ، وجاءه صوت
المراقب ساخراً : « مديك .. ارفع الحجر والقرميد وارفش
التراب فقط ! » وكذلك فعل .. وقال له المراقب : « خذ المطرقة
وحطم الباطون ، افرز الحديد عن الاسمنت . » فامتثل للامر ،
وراح يعمل ويراقب الآخرين ، وكلما امتلأت عربة حلت اخرى
مكانها .. وفي باطن كفيه برزت فقائيع صغيرة ، ملأى بسائل
اصفر ، ثم انفقات ، واشتعلت فيها النار ، والساعة الحادية
عشرة بعد ..

« فياض ! يا فياض ! يا حديدة تحت مطرقة حداد .. اصمد
وسوف تتشكل منك اداة »

وقال له المراقب : « اترك المطرقة ، وجبر هذه العربية . »
وكانت ألواح خشبية ، كالصقالات ، بمدودة وسط الغرف وعبر
الأبواب ، وعليه ان يدفع العربة فوقها ، ويذهب مع استقامة اللوح ،
والا انحرف الدولاب وسقطت العربة ؛ وحين يلتقي لوح بآخر

تحدث فجوة ؛ وفي هذه الفجوة يغوص الدولار ؛ وعليه ان يدفع
لاخراجه .. عليه ان يسير بقوة حتى يقفز الدولار عن الفجوة ..
ان عامل البناء يفعل ذلك ، وانت الآن عامل بناء ، وعقارب
الساعة تزحف ببطء لتعلن انتصاف النهار .

* * *

جاء اوان الراحة .. ساعة كاملة للراحة ... وشم العمال وهم
يغسلون ايديهم : « لا نكاد نأكل وندخن حتى ننفض الى العمل ..
ما قصر ساعة الراحة . ، فقال فياض في نفسه : « ومع ذلك فهي
ساعة كاملة للراحة .. »

اشترى خبزاً واقراصاً من الفلافل وبعض المخللات .. فعل
كلاخرين ومثلهم سار الى الباحة .. وعلى جريدة ، أو صرة ، وضع
كل منهم زاده ، وشرعوا بالمضغ ، وكذلك مضغ هو ما اشتراه ،
وشرب بعد ذلك من زجاجة ما فيهما من ماء ، واتكأ الى
الجدار في الفيء المنعش ، واشعل سيكارة ، وود لو يترك هكذا
الى انقضاء الدهر ..

فوقه كانت تنبسط سماء صافية ، فائحة الزرقة وصافية ،
ونسيمات تهب كأنها مدفوعة بمروحة ، وابنية شائعة ، ترتفع من
الهضبة الى البحر .. ابنية ذات طوابق ، وادراج ، ونوافذ ملونة ،
وسكان لا يدري من هم ، ولكنه يعرف انهم موجودون .. الآن لا

تفكير . فيء وزرقة وطرارة ، وجسم مكدود . السماء بعيدة ،
والسما واسعة . . ابنية ، كآبراج بابل الابنية ، تلامس السماء
الأبنية ، وظهور مقوسة ، تدب على الأرض وفي الخنادق وعلى
السلام ، صاعدة ، هابطة . وعروق زرق ، وجسوم صفر ، وسياط ،
واهرامات ، وهامات ، ونمل ، وعقب حديدية ، ونمل ، ثم نمل . .
وجسم يشن ، كبكائية يشن ، كأوف من اهورا العراق يشن .
« يا فياض ! يا فياض ! يا حجزاً رفضه البناؤون ، أصمد ،
لتصير رأس الزاوية اصمد » .

* * *

وقال له زميله العامل :

— هذه اول مرة تعمل فيها في البناء ؟

— تقريباً .

— وماذا كنت تعمل ؟

— في أعمال مشابهة .

— تبدو مثل الخواجة !

فقال عامل وفمه مليء بالطعام :

— الخواجات لا يعملون في البناء !

وعلت تلمات أعقبها شتائم ، وصاح المراقب من بعيد :

— الى العمل يا شباب !

وقال عامل :

— سنعود الى نقل الأخشاب . خذ هذا الكيس فاطويه
وضعه على كتفك .

واخذ الكيس وشكر زميله ، ثم سار صامتاً ، كالذين
حولهم ، كمن سبقوه ، كمن لحقوه ، كالذين بنوا الاهرامات ، والذين
ماتوا لبناء الاهرامات !

— ٢ —

انقضى يوم العمل .. جيلة الباطون كانت الخاتمة ، ومن
بعدها تفرق الطابور يخرججر نفسه . ألقى فياض التنكة الفارغة
وتنفس .. الآن لا تفكير بسوى الراحة . ان يقعد ويستريح
ويظل كذلك قاعداً . الهواجس تراجعت وانتفت .. امتصها
تعب الجسد . ولو كان له مأوى لمان الأمر ، بيد ان المأوى كان
مشكلة ، ولا بد من ايجاد حل لهذه المشكلة .

مضى يطوف في الشوارع على غير هدى .. سلك الأزقة
الفرعية فيما الليل يهبط والمشكلة تتعقد . صمم على الابتعاد عن بيت
أبي خليل وبيت جوزيف ، ووجد نفسه كمتشرد حقيقي بعد يوم
من العمل المضي .. كان منهو كاً ، لا يقوى على السير ، فغامر
ودخل أحد المقاهي الصغيرة ، واحس وهو يشرب قهوته في مكان

عام كهذا بعد انقطاع طويل ، كأنه يعود الى العالم من جديد ،
و كأن جميع من حوله يعرفون حقيقته ، وينظرون اليه بفضول ..
ولما مل الجلوس خرج يتسكع ويزداد قلقاً كلما أوغل الليل
في زحفه .

كان عليه ان يقرر أين يقضي ليلته ، وقد أسف لأنه أضاع
الفرصة ، فلم يسأل زميله العامل ان يذهب ويبيت عنده ، ورأى
الناس يسرعون الى منازلهم ، حاملين الفاكهة ومختلف الحاجيات ..
ومر أمامه ، قاطعاً الطريق بالعرض ، كلب يتبختر ، فتابعه بأبصاره
حتى انزاق من فجوة في سياج ودخل أحد البيوت ، فتمت مستشعراً
الحسد ، وواصل طريقه الى كرم الزيتون .

ولما لم يكن لديه ما يعمل ، ولا قرر أين ينام ، فقد صعد
الى الراية وجلس على طرف صخرة ، وراح يتأمل المدينة الكبيرة
المشعشة ، مصغياً الى الضوضاء التي تتصاعد من قاعها كدبيب
الجن . تراءت له بيروت محصورة بين الراية التي يجلس عليها وشاطئ
البحر ، وخيل اليه ان أبنيتها قد تحولت الى خيول حجرية تزحف في
كل اتجاه وبدون نظام . فهي تكبر وتكبر من كل الجهات ،
وتتصل على امتداد الشاطئ ، وتفتح ذراعيها فتحوي البحر . وبدأ الجبل
الموشى بالدروب المضادة يتراجع خطوة أو خطوتين ، مفسحاً
المجال لهذا الشريط من العمران العجيب الذي يؤلف الساحل .

وكانت الأنوار في الجبال ، تتراءى كالعناقيد ، وتتدانى الروابي من الماء فتجاوره ، وتطل عليه بانحناء ، حتى ليخيل الى المرء ان في وسعه الجلوس على طرف الجبل وغمس قدميه بالبحر .

قال في نفسه : « كل هذه الدنيا وليس لي مكان أسند رأسي اليه ؟ ماذا جنيت اذن ؟ ولماذا انا معاقب ؟ » وتمثل ، وهو في غربته وبؤسه ، كل غرباء الدنيا وبائسيها ، وود لو يسمع على رؤوسهم جميعاً .

وحوالي الساعة العاشرة نزل من الراية ، وانحدر في الوادي ، ثم صعد الى كتفه الأخرى ، ومضى الى أشجار الزيتون الهرمة التي كان يأتيا في الماضي ، فاقعد جذعاً ، وقضى ليلته الأولى وهو يرتجف من البرد .

- ٣ -

لم يعلم جوزيف بشيء مما حدث . كان قد تسلم عملاً جديداً في محل لبيع البضائع غير الصيدلانية للصيديات . وكان صاحب العمل يترنح من ضربة الحرب الكورية ، اضافة الى انه مشوش ، لا يعرف ماله وما عليه . وقد قال لجوزيف : « انت تعمل معي لانقاذي » . فاجفل جوزيف من هذه البداية ، واضطر الى تقبلها كواقع لا حيلة في دفعه . ومضت ثلاثة ايام لم يقم بسوى الشروع

بالانقاذ ، كابدال سندات بسندات ، وممّاع كلام الدائنين القامي ،
وتحمل اللطّات من كل نوع .

بذل كل معرفته في حساب الفائدة وفائدة الفائدة ، واستنجد
بكل خبرته لتدبير مبلغ يسحب به سنداً مستحقاً ، فلم يجد سوى
الاستدانة من جديد بفائدة مرتفعة ، وتحرير سند سوف يستحق
بدوره فيضطر أيضاً الى الاستدانة لسحبه .

ولقد أخفى متاعبه هذه برغم انه كان موقناً ان حالة التاجر
هيئوس منها ، وعليه ان يقدم دفاتره الى المحكمة ، والأسوأ
من هذا انه ليس لديه دفاتر قانونية ، والسجن ينتظره .

وقال جوزيف في نفسه : « لا بأس ! لا بد ان هناك عملاً
جديداً ينتظرني ، طالما اني اعمل عند رجل مفلس . » وكان هذا
التاجر مفلساً منذ زمن ، ولا يملك الا قدراً كبيراً من التدجيل
الذكي اللابس لبوس الصدق . كان التاجر يصدق بأكثر مما يكذب ،
فهو غير سيء الخلق ، ولولا الفوضى الاقتصادية والطمع في الاثراء
السريع لكان بخير ، أما الآن فكل ما بقي له هو اخفاء حقيقة
وضعه المالي اطول مدة ممكنة .

وظهر لجوزيف من دراسة أعمال المحل ان صاحبه كان يستدين
من هذا بفائدة تفوق قيمتها قيمة الربيع ، ليسدد الى ذاك ديناً
كانت خسارته ، في وقته ، اكبر من ربحه ايضاً ، وهو يجهل ما اذا

كان يربح ام يخسر .. كان يتداول النقود ، قبضاً ودفعاً ، بعشرات
الالوف شهرياً ، وكان كل شيء على مايرام ، عندما كانت الحرب
الكورية على مايرام ، ثم انتهت فجأة فحدث الارتباك ، ووجد
نفسه بعد شهر عاجزاً عن تسديد استحقاقاته في مواعيدها .

والعجيب ان هذا الرجل الذي لم مايعرفه عن التجارة من
هنا وهناك ، كان طيباً بخلاف زملائه .. كان لا يفتأ يردد أمام
جوزيف باستسلام وانكسار : « يجب ان تساعدني على ترتيب
وضعي ! » وقال له مرة : « اعرف اني في عجز . ولكن لا اعرف
كم يبلغ عجزى » و اضاف : « مارأيك لو اشتريت الانسيكلوبديا
بريتانكا ، علي اجد فيها ماينفعني ! ؟ »

وظل جوزيف يهز برأسه ويبتسم لفكرة معلمه ، واعترف
وهو عائد الى البيت انها فكرة وجيدة . وقال في نفسه : « ربما كنت
انا ايضاً بحاجة الى هذه الانسكلوبديا بريتانكا ! »

كان من عادته ، ومهما تكن متاعبه ، ان يدخل البيت
بضجة تنبيه بمقدمه . فهو يتكلم ما ان يلج العتبة ، ويذهب الى
المطبخ فيضع ما يحمل من حاجيات ، فاذا ما لحنت به الصغيرة الخماء
حملها وقبلها ومنحها فيضاً من حبه في محارة لاشعورية لمواساتها .. ثم
يتبادل مع هناء بعض العبارات ، او يقذف ، لسبب بسيط احياناً ،
بعض الشتائم ، او يسأل عن بعض الاشياء ، ثم يتجه بخطوات
عجولة الى غرفة فياض .

و كعادته قرع الباب على فياض فلم يتلق جوابا . وقالت هناء
من المطبخ بنبرة اعلامية مجتة :

- الاستاذ ذهب يا جوزيف .

- الى اين ؟

- لا أدري .. فتحت باب الغرفة في الصباح فلم أجده .

- لم تجديه ؟!

ردد وهو يفتح الباب ، فلاحقه صوت هناء :

- نعم لم أجده .. يلرب كم هو حساس ! بدا حزينا جداً

في الأيام الأخيرة .

توقف جوزيف وسط الغرفة واضعاً يديه في خاصرتيه ،
وراح ينظر غير مصدق الى الاشياء الكثيرة في الغرفة الفارغة .
كانت رسالة على الطاولة ، والى جانبها علبة تبغ نصف فارغة ، ومنفضة
فيها اعقاب كثيرة .. وكانت الرسالة تقول :

« صديقي الطيب .

« قلت في احدى يومياتك ان كلاً منا يحمل صليبه ، والفارق
بين انسان وآخر هو في كيفية حمل هذا الصليب : هل ينحني تحته
ويتجرجر ، ام يرفعه برجولة ويمضي ؟ سأجرب ان اكون من
النوع الثاني .

« اقدر كل الظروف التي تحيط بي ، وقد اعتزمت ان

اخرج اليها واواجهها . لقد شئت التواري والمصاعب تطرق علي
الباب .. اللقمة ستكون ابسط ، واصعب ، ولكنها ، من عرق
جبيني ، ستكون اطيب وانتفع .. الانسان كالماء ، اذا لم يجر ،
يأسن ، فدعني اجري ، كساقية ضائعة ، ذلك افضل من البقاء
راكدا ، كبركة تسرح فيها الضفادع .. انساني نفسيها غدت بحاجة
الى اثبات ، فالتحلل يتهدها ، وعلى ان ادفع عنها الفساد .

« سأصل بك حين تسنح الفرصة ، فان صحبتك لذيدة ،
والعيش معك لا يمل ، ولسوف اذكرك دائما ، والى اللقاء . »

حمل جوزيف الرسالة الى غرفة الطعام ، وقرأها مرة
ومرة ، وجاء بزجاجة عرق وصب قدحا وآخر .. وراح يدخن
ويدخن .. ثم تخدر دماغه وراح يتصور الناس اجساما تتوء
بصلبانها .. بعضها يسقط ، وبعضها ينهض ، وتصور صاحبه يحمل
صليبه في هذا الموكب الكئيب الحافل ، ويرفعه الى اعلى ، في نوع
من التحدي الجبار ، ويسير في المقدمة ، داعيا الآخرين الى الاقتداء
به ، لمواجهة العالم دون خوف من ألم او مسغبة .

- ٤ -

زعمت أم بشير لدينيز انها لم تر فياض .. ولانها لا تستطيع
اخذ اية قضية بجذ ، فقد ادركت الفتاة ان ام بشير لا تقول
الحقيقة ، واءطنها انطباعا مهيأ ، وكان هذا صدمة قوية لفتاة

غازلها ، طوال مدة دراستها ، عدد غير قليل من زملائها ، ولا حقوقها دون اكتراث منها . لقد اخرجت دينيز احد اساتذتها عن وقاره ليعلن لها ، في بطاقة دسها لها بمناسبة رأس السنة ، انه يهاها بكل جوارحه . وقد استشارت ، بعد المدرسة ، شبيهة كل ذئاب الحي ، وبينهم ذئاب ذوو مكانة ، ولهذا لم تكن تتصور مطلقا ، ان يوما سيأتي ، تعرض فيه نفسها ، او تقدم هذا العرض على صورة اشفاق ، فيلقى رفضا قبيحا كهذا الرفض ، من جانب شاب غريب ومجهول .. وربما وضع ايضا .

« زعموا ان القلب دليل ، وهذا كذب .. ليس القلب دليلا دائما ، وقد يكون دليلا خادعا احيانا ، ولو ادركت ذلك قبل التورط لاحتوزت من الالهانة ، ولولا صراحتي ، لما افضيت بما في نفسي لام بشير دفعة واحدة ، لقد كان علي ان اعرف ذلك ، وان اتجنب استدراج هذه المرأة التي اوقعني في الفخ من الجولة الاولى .. والآن لم يعد لام بشير ماتفعله هنا ، ولن اشجعها على العودة مرة اخرى .. انها تكذب ، تزعم انها لم تره وقد رآته ، وتوحي الي بأن اتركه وفي هذا كل المكر .. كان خليقا بها ان تصارحني كما صارحتها ، ان تقول رأيتة وحدثته فقال كذا .. وكان عليه ان يكون اكثر جرأة ونبلا ، ان يعلن رأيه بشكل آخر ، ينسجم مع ماتوصمته فيه من شجاعة ،

دخلت غرفتها ، واغلقت الباب ، وكذلك اغلقت النافذة
ملعونة انت ابنتها النافذة . استلقت على الحوان ثائرة ، وظلت
كذلك حتى هدأت اعصابها ، وزال الضغط من جراء الصدمة
المفاجئة ، وعندئذ انشأت تبحث عن القناعة الضائعة ، وتبرر
تصرفاتها بما يرضي كبرياءها . وراح عقلها يدها بكل الحجج اللازمة لهذا
التبرير ، بكل التأكيدات على انها لم تحبه وانما اشفقت عليه .
وراحت ترتقي شجرة الرفض وعقلها يضع لها المساند ، لكنها ، في مساء
اليوم نفسه ، هبطت على ذات المساند مع تيار العاطفة ، واعترفت ،
في نوع من الخضوع اللذيذ ، انها تحبه .

كان ظمأ الشوق قد اقبل في موكب الليل ليجعل من
الينبوع السراب القاتل . وكانت تعرف ان ينبوعها اضحى اقرب
الى الوهم ، وان لاماء ولا ارتواء ، ولكنها ، في محاولة للتعلل ،
راحت تتلمس الاعذار لتزيح الشك جانبا . وقالت في نفسها « لا بد
انه كتم سره عن ام بشير فتظاهر بانه لا يعرفني ، فقال عقلها :
« صحيح » وقالت : « ربما كان مصيبا طالما ان له ظروفه الخاصة ،
فقال عقلها : « صحيح » وقالت : « ان ظروفه صعبة ، وربما
كان في خطر » فقال عقلها : « صحيح » .. ونفق قلبها بقوة وهي
تذكر الخطر ، وتمنت ان ينجو وان يعيش .. « حتى لو لم اره ،
ارجو ان يكون في مأمن وان يعيش » .

تصورته كما رآته في النافذة ، بوجهه الشاحب الجميل ،

وعينيه الحالمتين ، ونظراته الاسيفة ، واستشعرت الندم على ما بدر منها . ودت لو تمسح على رأسه بكل ما في صدرها من عاطفة الانثى ، وفي غمرة الاشفاق صاحت بدون كلام « لو كان يرضى لانتظرته معها حدث ، فسألها صوت من داخلها : « معها حدث ؟ » فقالت باصرار « نعم معها حدث » .

وقامت الى الشباك ففتحته . . . هناك ، في الشباك ، رآته . . . لقد ذهب هو وبقيت صورته . . . على الشباك صورته . . . وانها لتراه اذ تراها ، ولسوف تحتفظ بها تذكرا .

واغمضت عينها تسترجع الماضي . . . وتذكر ما كان ، وكيف كان ، وكيف رآته لأول مرة ، وكيف رآته لآخر مرة . . . ومن بعيد كانت فيروز تغني :

ياها الشباك عالي انت وبعيد .

وع اسمك بغني الحب وبعيد .

- ٥ -

اتخذت ام خليل مجلسها على الحوان وراحت تلاحق المارة بنظرات متسائلة متوجسة . صار التفكير بخليل الآن كل شغلها ، وصارت سلامته كل املها ، وانصب ، بالمقابل ، غضبها على « الجامع ، والنقابات ، وعلى المجانين الذين يلعبون بالنار .

كانت تقول في خوف واقتناع : «الحكومة هي الحكومة ،
عندها الشرطة والدرك والجيش ، وهي صاحبة الأمر والنهي ،
ومن عجبه يشتغل ، ومن لا يعجبه يضرب رأسه بالصخر .. هذا
الكلام قلته لخليل الف مرة ، افهمته ونصحتة ، ولكن على من تقرأ
مزاميرك ياداود ؟ يذهب ويجيء ، ويعقد المجامع ، ويكتب العرائض ،
ويدور مع اصحابه على الصحف ، ويقابلون الوزير ، ويطالبون
بحقوقهم ، ويقولون ان الوزير وعدهم ، والجرائد ناصرتهم ،
والنقابات ايدهم ، والنتيجة ؟ »

— فالصو ! قال ابو خليل .

— اي نعم فالصو .. ظلوا ميأومين ، وظلت الاجرة
ذاتها : اربع ليرات لاطالعة ولا نازلة ، ومن سنتين وهم يهددون
بالاضراب ، ظانين ان الحكومة تخاف ، ولكن الحكومة لا تخاف ،
لو كانت تخاف ما كانت حكومة .. وبعد ذلك قرروا الاضراب ،
وانتخبوا لجنة ، وصار خليل من اعضائها ، فقلت في نفسي جاءت
البلوى ، وصدق ظني .

قال ابو خليل :

— ظنونك السيئة تصدق دائماً .

— لان المكتوب يقرأ من عنوانه .. قلت له الاضراب نار ،

فلا تحرق يدك ، فلم يسمع .. وهاهو الاضراب وهاهي النار !

تدخلت ام بشير الجالسة قبالتها على الحوان قائلة :
- لاتستعجلي .. نتيجة الاضراب لاتظهر بيوم او يومين .
- ومتى تظهر ؟

- الاضراب بطول احيانا .. اضراب عمال الريجي ..
قاطعتها زاعقة :

- اخرسي .. انقبري ، لاتدخل في شؤون ابني .. فلقتينا
باضراب عمال الريجي .. كلما دق الكوز بالجرة ذكرت اضراب
عمال الريجي ، اغتثوا من اضرابهم ؟

- لم يغتثوا ولكنهم تثبتوا .. حصلوا على حقوقهم .. قولي
على نصفها ، هذا قليل ؟

- والذين ماتوا ؟ والذين سجنوا وسرحوا مثل حضرتك ؟

- من لا يدفع التسعة لا يحصل على العشرة .

- وعلى ماذا حصلت انت ؟

-- انا واحدة من المجموع .. نلت حقي .

- نلت لعنة !

- نلت حقي وزيادة .. التعويض و ٨ ساعات عمل في

اليوم ، ماذا تريدن اكثر ؟

- قومي من وجهي .. لعنة الله عليك وعلى الاضرابات .

وتدخل ابو خليل :

— قومي من وجهها والا ضربتك .. (وبعد وقفة) لماذا

لا تتضمن الى عمال الهاتف المضربين ؟

— أنا امرأة .. والاجدر ان ينضم الرجال .

— نحن ضد الاضراب .. ام خليل وانا ضد الاضراب .

— وزوجة خليل ؟

رفعت الكنة رأسها وابتسمت .. كانت هذه هي كل
مشاركتها في الحديث . وقد بدت ابتسامتها عصبية ، حزينة ، وبدا
عليها الخوف بما تسمع ، ولكنها رفضت ان تقول كلمة ضد زوجها ،
وتمنت لو يرتاح لسان حمايتها .

ولما قعبت هذه امسكت . لم ينشط احد للمزاح حتى ولا
ام بشير .. انباء الاضراب سيئة جداً ، والجميع على شك من نجاحه ،
خاصة بعد ان اعلن الوزير انه اما ان يكسر الاضراب او يستقيل .
ومع ان العمال رفضوا تهديداته ، وقرروا المضي في الاضراب ،
والصحافة كتبت ، والمنظمات ايدت ، الا ان الجو السياسي العام
لم يكن مؤاتياً .

وكان خليل يدرك هذه الحقيقة ، وقد ابدى رأيه قبيلاً
الاضراب ، ولكن العمال ، تحت ضغط الحاجة ونفاد الصبر ،
قرروا القيام بالاضراب ، فمشى مع الاكثرية ، والقى بنفسه في
المعركة . كان يحث العمال على الثبات ، ويطلب تأييد النقابات ،

ويراجع مع لجنة الاضراب الدوائر والصحف ، ويسير طويلا على قدميه ، بدون طعام او راحة ! فلا يعود مساء الا وقواه قد نفدت ، وهذه الجوع والتعب . وكان عليه ، برغم ذلك كله ، ان يتظاهر بالرضا في بيته ، ويحاول تسوية شؤون عائلته وطمأنة والديه وزوجه .

ولقد تأخر اليوم الى منتصف الليل ، فوجد الجميع نياماً ، الا زوجه التي ظلت ساهرة لتبلغه وهو يدخل البيت ، ان الفران رفض اعطاءهم الخبز . قال لها ان الاضراب قد يطول ، وهو لا يستطيع اعطاء الخبز بالدين على المعاش ، لأنه قد لا يكون هناك معاش ، وكتمت ذلك عن حماها حتى لا تزيد مخاوفها .

— وكيف حصلت على الخبز اذن ؟

— الفران رفض فتدخل العبدان . . قال له خليل جارنا وزبوتنا ، ويجب ان نقف معه لاضده في هذا الظرف . قال الفران انت حر في الوقوف معه ، ولكني لا اعطي خبزي بالدين . . انا لست ضده ، اتفهم ؟ ولكني اذا لم احصل الديون آخر الشهر توقف الفرن عن العمل . عندئذ قال العبدان :

— انا اكفله منذ اليوم . وهكذا كان . .

— لا بأس — تم خليل — المعروف لم ينقطع من الدنيا .

— والى متى هذه الحال ؟ سألته باستعطاف للاستعلام فقط .

— من يدري .. كل شيء متوقف على الاضراب ..

— وهل ينجح ؟

كان في صوتها رجاء حار تتدى له قلبه حناناً . ولكن بماذا يستطيع ان يجيب ؟ كل اضراب يعلن على اساس انه سينجح ، والاحداث سجلت كثيراً من الاضرابات التي لم تنجح ، وهذا واقع يعرفه جيداً ، ومع ذلك كانت الحصيلة العامة جيدة .. قال خليل :

— نأمل ان ينجح الاضراب ، وحتى لو لم ينجح فلن نخسر شيئاً .. اربع ليرات في اليوم ، بدون اجازات او ضمانات ، وبدون تثبيت ، اجر لا يكفي العامل وحده ، فكيف يصنع بعائلته ؟ ..

وسألها بعد قليل :

— ماذا اكل الأطفال ؟

— اعطيت كل واحد نصف رغيف .

نقر باصابعه على حافة الحوان الحشبي بشيء من عصبية :
« نصف رغيف ؟ كيف تتغذى جسم الاطفال ؟ وهل يستطيعون مواصلة الدراسة ؟ اذا نجح الاضراب تحسنت الحال ، والا ساءت .. قد يجد الآخرون وضعهم اسهل ، بسبب من ان عائلاتهم صغيرة ، وقد يكون فيها من يساعد بعمل او دخل ما ، اما هو فالعائلة كلها متعلقة برقبته .

كانا يجلسان ، زوجه وهو ، في احدى الغرفتين ، وينام والداه وبعض الاطفال في الغرفة الاخرى ، وكانا يتحدثان في العتمة لئلا تستيقظ العجوز وتعيد ديباجتها التي غدت قاسية وداعية الى الانفجار في هذه الايام . وكانت زوجة خليل قليلة الكلام كعادتها ، وقد انكششت منطوية على قلق بالغ ، داعية له في باطنها بالسلامة والتوفيق ، ولم تأت بحركة حتى دعاها الى النوم ، وقبل ان تنهض انتهت اليه هذا الخبر :

- فياض اختفى .

توقف عن خلع ملابسه وصاح :

- كيف ؟

- لا أدري .. جاء الشخص الذي كان يسكن عنده وقال

لوالدك ان فياض غادر البيت ، وترك له رسالة تفيد انه ذهب ليبعث عن عمل .

لم يتم نزع ملابسه .. جلس ثانية على الحوان ، واشعل

سيكارة عب منها نفساً عميقاً ... وزفر !

- ٦ -

في الورشة ، اسند فياض ظهره الى الجدار الناقىء بعد ان

قرأ الجريدة وطواها بعناية . لم يقل شيئاً لأحد ، فهذا الخبر عن

اضراب عمال الهاتف المياومين لا يؤلف حدثاً خاصاً مثييراً بالنسبة

للآخرين . لاشك انه لفت نظرهم ، وتحدثوا عنه ، رابطين بينه وبين الوضع السياسي وموقف الحكومة ، وتمنوا جميعاً ان ينجح الاضراب ويحقق العمال مطالبهم ، لكنهم فعلوا ذلك كما يفعلون ازاء أي اضراب عمالي . انه تضامن روحي بين ابناء طبقة واحدة ، والمرجح ان نقابة عمال البناء قد ايدت بشكل ما ، لكن هم ، بصفاتهم غرباء ، وغير اعضاء في النقابة ، ولأنهم يحاذرون الخوض في السياسة ، او التدخل في القضايا المحلية ، اكتفوا بقراءة ابناء الاضراب والانطواء على تمنياتهم ، ثم انصرف كل الى شأنه ، وظل فياض يعاني القلق ويتلهف لمعرفة مصير المضربين ..

قال في نفسه : « خليل في نقطة الخطر من كل هذه القضية ، سيكون كذلك لأنه عضو في لجنة الاضراب ، ولأنه مناضل . لقد تمرس بذلك حتى بات يرى الاشياء طبيعية مها تكن قاسية .. خمسة وعشرون عاماً واكثر ، من اجتماعات المغائر الى اليوم ، فأني نفس طويل ! واي صبر ! ام خليل لاتفهم ذلك ، تقول انه تمسح ، وفي الحق انه مفعم بارق الشاعر ، كريم النفس ، ولكنه جلود ، مؤمن بقضيته وواثق بنفسه . »

اشعل سيكارة دون ان يغير من موضعه . كان تعباً ومفكوراً ، ويستشعر الحاجة الى تأييد معنوي يستمدّه من ذكرياته عن خليل ، ومن هذا الاضراب الذي ضجت الصحافة بانباته . تصور صديقه في هذه الازمة يعارك على اكثر من جبهة .

تخيله جالساً معقود الحاجبين ، يستمع مرغماً الى محاضرات والدته
عن « النار التي يلقي بنفسه فيها » وعن عدم جدوى نضالهم لأنهم
« بدون رأس » . وتخيله يرنو الى اطفاله شبه الجياع ، ويتفرس في
وجه زوجته الصموت الواجف ، ويتلقى من حين لحين ، تقريعات
والده المغلفة بالمزاح الساخر ، ويصمد لذلك كله ، كما يصمد
لتأزم وضع الاضراب وتهديدات التسريح ، وشكاوى زملائه
المضربين ، ويحاول ان يبث الثقة في كل هؤلاء ، ويحملهم على
الثبات والمقاومة ، تخيل كل ذلك وتأوه من أعماقه .

استأنف نقل الحجارة وهو يفكر بصديقه . كان
يصعد الصقالة حاملاً القرميد الى المعمار دون اهتزاز .. بات مطمئناً
الى توازنه ، وخفت وطأة التعب نتيجة الاعتياد ، وزالت رهبة
الأيام الأولى ومعها الحرج والتحسبات .. لقد استعاد ثقته بنفسه
وبقدرته على الصمود .. الجزع الذي كان يدفعه الى التساؤل كل
صباح : « متى ؟ » خف الآن . غداً متقطعاً لا يحمل معه ذلك
الصراخ الصادر عن لهفة لاتمام كل شيء في اسبوع او شهر .. خرج
قليلاً من تحت الرحى ، بات المنطق يجد له قبولاً كافياً لأخذ الواقع
بما ينبغي من تقدير .. تطاول المعركة لم يعد عامل توهيب بذاته ،
كان سابقاً كجندي مكشوف امام العدو ، وكجندي محاصر

دون ذخيرة او غذاء ، وتغير الوضع قليلا . الجندي اخذ استحكامه ،
وصار له مورده من الذخيرة والغذاء ، وفارقه نسيبا القلق العصي
الذي يلزم الناس وهم في بدايات الشدائد .

* * *

اعتزم بيع ساعته الثمينة ، وعند العصر عرضها على
زملائه قائلا .

- ارجوكم -اعدوني في بيعها لاني بحاجة الى بعض المال .
- تستطيع ان تستلف من المعلم
- لا اريد .

- يمكن ان تقترض حتى نهاية الاسبوع .
- لا اريد ايضا .

- ولماذا تحتاج الى النقود ؟
- لأمر خاص .

فقال عامل شاب :

- عرفت .. تريد زيارة « وراء البرج » .
- اذن رافقني الليلة ! (قال عامل آخر ، ضامر ، طويل
عرف بشهوانيته الجامحة) رافقني نجد مايسرك .. ثلاث ليرات
تكفي ، وانا اقضك اياها حتى القبض .
- انا لا افكر بالنساء .

- ولماذا لا تفكر .. عجوز؟ العجوز نفسه يفكر ..
لا بد من امرأة .. كل شيء على حدة : عمل صعب ، اجرة قليلة ،
القرش بليرة ، المستقبل مجهول ، كل هذا صحيح ، ولكن لا بد
من المرأة ، لأنه لا بد من النوم .

قالها والتمعت عيناه يبريق غريزي حارق ، وتخلع
جسمه وضحك في سعادة واحتياج واردف :

- اذا ذهبت الى هناك (وغمز بطرف عينه) مرة في
في الاسبوع ، تنام الاسبوع كله مرتاحاً .. تتغلب على الشيطان ولا
تعاودك الافكار الا في نهاية الاسبوع .. عندئذ تحلم من جديد ولكن
احلامك تكون شبيهة .. ريقك يشط كجائع يتصور مائدة عامرة
ولكنه لا يضر .. يزيد في شهيتك بانتظار الوجبة ، اللذيذة
القادمة .

- تفكر ..

بصق احد العمال والتفت الى المتكلم قائلاً :

- أي معدة هذه التي تجدد مثل هذه الوجبة لذيدة ؟

- معدة جنابي . (قالها لامبالياً ، و اضاف كمن يقرر حقائق

مسلماً بها) ابصق ماشئت ، التقزز والمرأة لا يجتمعان في نظري ..
اذا لا أسأل عن العمر والجمال والنظافة .. امرأة منها تكن . امرأة
ياناس ، وبعد ذلك اشتغل مثل البغل . اقاتل ، احارب ، انطح

الصخر ، احمه ، انشر الحديد ، الويه ، اقوى على كل شيء . الا على
شيطان المرأة . .

- ولذلك بعث ساعتك ايضاً .

- نعم بعثها . . انا غير آسف . . بدون ساعة يأتي النوم ،
ولكن بدون امرأة . .

قال فياض محاولاً ابعاد الشكوك :

- ولكن انا لا أفكر بهذا . . سأبيع ساعتى لوفاء دين علي .

- في هذه الحال يستطيع الدائن ان ينتظر .

- واذا كان لا ينتظر ؟

- يده وماتطول . .

اعترض عامل اكبر سناً :

- كفى ! كل انسان يعرف خلاصه . . اذا كان «سليمان»

يصر على بيع ساعته فليساعده منكم من استطاع ، وهذا أفضل من
اللث والعجن .

- ٧ -

بعد العمل ، ذهب فياض وثلاثة من زملائه لاستئجار غرفة

على كتف الهضبة التي تطل على سن الفيل . خرج اليهم المؤجر في
النامة استخفافاً بهم ، حتى أنه لم يتكلف دعوتهم الى الداخل ، بل

وقف على باب داره ، على عينيه نظارات وفي يده جريدة ، وعلى
محياء امارات التعب الصحي .

وتكلم شاب منهم كان يسكن عنده فقال :

- هذا الشاب يعمل في ورشتنا ، وهو طيب ومؤدب

ولا يتأخر في دفع الاجرة ، فهل عندك غرفة له يا ابو روكز ؟

- ما اسمه ؟

- سليمان .

فتفرس فيه ابو روكز وسأل :

- هويتك معك ؟

- طبعاً ، ولكني لاجلها في الشغل .

قال الشاب الذي كان يسكن عنده :

- انا اكفله يا معلمي .

- انت اكفل نفسك .

- الا تعرفني ؟

- والنعمة .. ولكن المستأجر يكون خروفاً عند الاستئجار

ويصبح غمراً بعده .

قال الشاب :

- نحن لسنا من هذا الصنف يا معلمي .

- أنعم واكرم .. صنف ممتاز يا معلمي ، ولكن اسمع !

قولتك تتشاطر على غشيم ؟

كان الرجل يتكلم بسخرية ظاهرة .. يبدو عليه ضيق
النفس وقلة الثقة بالمستأجرين ، ومع ذلك لا تدل ملامحه على قسوة
أو شراسة ، فقال فياض :

— الحق ان واحداً يسود وجهه مئة .. ومن حق صاحب
البيت أن يستوثق .. ولكني ، مع الأسف ، لا أحمل الهوبة ، ولا
أريد ان أمدح نفسي .. مادح نفسه كاذب .. ومن الخير أن أذهب
وأبحث عند غيرك .

— ومن يقبل ان يؤجر كغيري ؟

— أهل المروءة لا يعدمون .. وربك كريم .

عاد الرجل يتطلع اليه من فوق العوينات ، وقال بنفس
سخرية السابقة :

— فشروا أولاد المدارس .. لسانك حلو يا معلمي ، من
أين تعلمت هذه الفصاحة ؟

— والذي علمني فك الحرف .

— لو أرسلك الى المدرسة كنت أفلحت .. معك أجرة

الغرفة لشهر ؟

تدخل الشاب مرة أخرى فقال :

— يدفع أجرة أسبوع ونحن نكفل الباقي .. يشتغل في

ورشتنا والدفع بعد ثلاثة أيام .

— الدفع سلفاً والا مع السلامة .

- وكم تريد ؟ سأل فياض .

- الغرفة صغيرة ومعتمة قليلاً .. شفاها وبعد ذلك نتفق

على الأجرة .

قال ذلك و دخل داره فوضع معطفاً على كتفيه ، وخرج
ومعه مفتاح كبير ، ثم استدار حول البيت ونزل درجاً مرتجلاً من
حجارة متناثرة ، يتلوى في المنحدره على خاصرة الهضبة ، حتى انتهى
الى حوش مسيج بأسلاك تحت الدار الفوقية . وكان ظاهراً ان
هذا ليس طابقاً ارضياً ، وانما هو كهف على شكل غرف محفورة
في الجبل تحت الدار ، ولم يكن للغرفة التي اشار اليها سوى باب
خشبي من الواح مسمرة ، وحين دخلها هبت عليه رائحة عفن جائفة ،
فادار وجهه عفويا نحو الفتحة الوحيدة الي هي الباب ، وراح يشرح
سبب العفونة :

- الغرفة ، منذ شهر ، بدون تهوية ، والعائلة التي كانت تسكنها
وخمة .. كعب الماء تحت الزوجة لا تقوم ، والأولاد غارقون في الأقدار ،
حولوا الغرفة الى زريبة .. فاذا كنت تحب النظافة ، وغسلتها ثم
تركت بابها مفتوحاً لمدة يوم واحد ، صارت رائحتها مثل ..
المسك !

قالها وإبتسم دون مبرر .. قد يكون شعر بالمبالغة في كلمة
المسك ، فافلتت منه الابتسامة التي قابلها فياض بابتسامة مماثلة جعلت
الرجل يقول :

- بلتوط ! هذا هو الموجود ، فما قولك ؟

- موافق .. كم الأجرة !

- بسيطة مادمات وحدك ، وليس عندك أطفال ، فاني

أخفض لك الإيجار ليوتين .. هات عشر ليرات ومبروكة .

أخرج أمين عشر ليرات وناولها الى الرجل دون ان يقول

كلمة بحق الغرفة ، واعتبر الشباب ان مهمتهم انتهت فودعوا
وانصرفوا .

ويبدو ان المؤجر أعجب بعدم ملاحكة المستأجر ، فأراد

مكافأته على نحو ما .. وبعد جولة في ألباحة عاد اليه يقول وهو يشير

الى خوان خشبي عتيق ملقى عند السياج :

- تستطيع ان تستعمل هذا الحوان كسرير .

- شكراً .. كم أجرته ؟

الحوان بدون أجرة (وبعد وقفة) ولو .. مائت

النخوة ؟ إذا كنت جاز رضا فستجد مني مانتحب .

- ان شاء الله .

- واذا كان لديك فراغ فعندي لك عمل ليلي .. داعيك

صاحب معمل مسامير . الماكينة هناك (وأشار الى غرفة في الطرف

الآخر من الباحة وأضاف مزهواً :) وهي من اختراعي !

نظر فياض مستطلعاً ، وقد شغلته مسألة معمل المسامير اكثر

من الآلة المخترعة . قال في نفسه : وجدتها ! هنا يمكن ان أعمل

راحيا دون ان يكتشف أمري ، . ولكنه تظاهر بعدم الاكتراث
وقال :

- هل يمكنكني أخذ مفتاح الغرفة ؟
- طبعاً يمكنك .. تفضل .. غداً نتظف الغرفة وننتقل إليها .
- ولماذا غداً ؟ انتقل الليلة .
- أنت حر ، ولكن هل تستطيع نقل حوائجك الليلة ؟
- ليس لي حوائج .. كنت أنام عند صديق ، وقد أثقلت
عليه ، فغادرته وصرت أنام في الورشة .
- وهل كنت تنام في الورشة بدون فراش ؟ .

- تقريباً

- والبرد ؟

تضايق فياض لكثرة أسئلة أبي روكز .. انطبع أنفه
الكبير في ذاكرته فوراً ، وبدأت عيناه صغيرتين نوعاً ما ، وشعره
الرمادي خفيفاً وأبيض عند الفودين ، ولاحظ في كلماته جرماً واحداً
جعله يتساءل : « لماذا يتكلم طالما ان ذلك يجهد ، والكي ينفي كل
شك . أجاب بصراحة :

- على الفقير أن يتحمل .

أطرق أبو روكز في وجوم كأنما تذكر شيئاً .. ثم مضى
الى غرفة المعمل فأخرج منها فراشاً من قش ، كان يوضع على الحوان
فيما مضى ، وأعطاه كيسين من خيش ، وقال له بتأثر غير متوقع :

— استعن بهذه الأشياء على البرد .. لا بد ان تفرج .
وتركه ومضى يصعد الدرب المتعرج ، واضعاً يديه وراء
ظهره دون ان يلتفت الى وراء مرة أخرى .

— ٨ —

قال فياض وهو ينطرح على الحشية القشية فوق الحوان :
— لقد أصبح لي مأوى أخيراً ...
صار في وسعه الآن ان يستلقي بإطمئنان .. ان ينام ملء
جفنيه ، بعد ان قضى خمس ليال في العراء ، على جذع الزيتون
الهرمة ، في مهب الريح ، عرضة للتوقيف والاستجواب .
فراشه قش ، ولحافه خيش ، وماذا في ذلك ؟ حر هو ،
ونتن العفونة سيضعف ، وحتى لو بقي ، فهو محتمل . لقد كان الليل
والبرد أفاعي ذات فحيح في ذلك العراء ، وكان يخيل اليه انه في
بئر مع هذه الأفاعي ، وكانت تتلع بأعناقها اليه ، وتحقق فيه بعيون
سجابية ، ثم تنساب من حوله ، وتتسور حيطان البئر ، وتكرر
راجعة الى القاع ، لتعود مرة أخرى الى التسور ، والسنتها البيضاء
تتضئض في حركة مقصية .

لم يخطر على باله أبداً انه سينام يوماً في العراء ، ولكن ماذا
يفعل الانسان حين لا يجد مأوى ؟ الى الشيطان كل ذلك الحذر
والتواري ، فما دام في الغربة ، وفي ضيق لا يعرف متى فرجه ، فحتم

عليه ان يواجه الحياة بواقعية وشجاعة .. تحدي الظروف يساوي
الانتصار عليها .. « قتلتي التصورات الكثيرة بين جدران محبسي ،
وهذا العمل كم ارتعدت وأنا أفكر فيه . عامل ؟ وهل يمكن ؟
وهل أستطيع ؟ نعم يمكن واستطيع ، وها أنا عامل بناء ، وها أنا
صاحب مأوى ، وغدا ، اذا بيعت الساعة ، اشترى بعض
الضروريات . »

* * *

- في الغد بيعت ساعته بنصف ثمنها .
- المعروض مهان ، قال العامل الذي تولى بيعها .
- هذا صحيح .. ولك الشكر .
- فسأل العامل الشهواني وعيناه تبرقان :
- متى نذهب ؟
- إلى أين ؟
- كيف إلى أين ؟ الى هناك .. (وغمز ضاحكاً)
- حاجتي ماسة الى النقود .
- ماسة أو غير ماسة ، لابد من زيارة ؛ سأعرفك على
واحدة ترضيك .
- ترضيني ؟ وما شكلها ؟
- وهل ستتزوجها ؟

- وإذا كنت لا اتزوجها ؟
- في هذه الحال لا يهم الشكل .
- هكذا !؟

- أي نعم .. اغمض عينيك وقع ..
- وكيف أغمض عيني والفاكهة بالنظر ؟
- هذه ليست فاكهة .. الفاكهة بعد الطعام ، وهذه طعام
أساسي ، خبز بدون ادام .. خبز يابس ، وبعد أن تشبع من الخبز
اليابس ابحث عن ادام ، وعن فاكهة كذلك .. أنا نفسي افعل ذلك ،
بعد الزيارة ، أقف على البرج ، وأنظر عن يمين ويسار .. هناك
الفاكهة الحقيقية ، آه .. على البرج الفاكهة الحقيقية ، وأمثالنا لا
يدوقونها ، يرونها فقط بأحلامهم .. وأنا أراها كذلك .. في الليل
تأتي الأفكار .. وقد تأتي الأحلام ، ولكني لا أكتفي بالأحلام ،
اعتبرها من المشهيات فقط ..

- بعد كل هذه الشبهة نحتاج الى مشهيات يا حيوان ؟
سأل العامل الجاد الصموت .

- ولم لا ؟ الثلاث ليرات تساوي ثلاث ذهبـات ، وعلى
الانسان أن يحصل على ما يقابلها .. عليه ان يكون مستعداً جيداً ..
- لا لزوم للاستعداد .. المعدة القاطعة لا تحتاج الى شحذ ..
- حين لا تعطي معدتك سوى الخبز الجاف ، يكون
شحذها ضرورياً .

- معدتك قاطعة ولو القيت فيها بخصاً.. اغرب عن وجهنا
لعنة الله عليك ، لو سمعتك الراهب ترك الدير .
- ها هو (وأشار الى فياض) يسمعها ولا يتحرك ..
اقتعوه بالذهب معي تروه ضاحكاً غداً.. فتح الصدر ضروري لازالة
الهموم .. جربوا ، فاذا لم تصدق نصائحي العنوني ..
قال فياض :

- نصائحك في محلها ، ولكني لأحب الحبز الا مع الادم ،
ومع قليل من الفاكهة .. اذا وجدت .
- ذوق اولاد مدارس .. صدق أبو روكز .

- اولاد المدارس ليسوا أحسن من غيرهم .. المسألة
انني نجمت من البرد ، وأحتاج الى نقود لشراء غطاء .. بخاطركم .

* * *

كان الوقت ظهراً ، وقد طلب فياض من المعلم اجازة نصف
نهار لشراء فراش ينام عليه . انطلق من الورشة بشباب العمل ، قاصداً
ساحة البرج . كان فرحاً وحزيناً في آن .. « العجز أن يرضخ الانسان
للخوف لا أن يخاف » وهو لم يرضخ ، ومن حقه أن يسعد لأنه يسير
في وضع النهار وقلب بيروت .

كانت نظراته النهمة تلتهم كل ما حوله ، كأنه يريد أن
يتزود في يوم لعام كامل . المدينة من حوله تضج ، والشوارع تقذف ،

في حركة صاخبة ، انماطاً من البشر لا يمكن أن يوجدوا الا هنا .
الشرق والغرب على لقاء دائم في هذه البقعة .

وقف على البرج وقفة قصيرة .. وبعد أن قطع الساحة التي
تواصل فيها جبال السيارات وتسارع وتتشابك ويعرقل
بعضها بعضاً ، قال في نفسه : « الحمد لله على السلامة ! » وفي وقفته
تشبثت قدماء بحافة الرصيف ، ولم يسلم من الاحتكاك والدفع من
قبل التيار البشري الزاخر .. شكل الأزياء كان عجيباً ، وكذلك
شكل الوجوه .. وكان الارهاق بادياً على أكثرها ، ومن تحت
المساحيق يطل التعب في الوجنات والعيون ، وينبئ الشعوب عن
الافراط في السهر والتفريط بالصحة .

وفي وقفته تذكر حديث زميله عن « الفاكهة على البرج » ،
وتلفت صوب الأزقة الفرعية المؤدية الى ما وراءه ، الى المنطقة التي
يزورها الناس ، ويجدونها عامرة كسائر الاسواق ، ينتظرون دورهم
في البيوت التي تقدم أجساداً فتية جميلة ، او يتناولون « وجبتهم » ،
على الماشي ، وقد يكتفون بالرائحة ، شأن المفلسين في سوق اللحامين ..
تلفت الى تلك المنطقة بفضول ولكن بنخشة ، ثم انتقل الى الرصيف
الموصل الى التياترو الكبير ، حيث وجد نفسه في سوق عجيبة
له مطبوعات : مجلات عربية وأجنبية ، تراكم أكداً ، وخليط
عجيب من الكتب بينها أحدث ما اخرجته المطابع ، وبينها « مجاني
الأدب » ، وقد قال له البائع مرأً : « لدينا رجوع الشيخ الى صباه ! » ..

وكان الزحام شديداً كما هو على الارصفة الاخرى ، وسيدة تقود
كلباً ، وجمال يرفع سلاخضماً على ظهره ويشق طريقه غير مبال
بسوى اللحاق بصاحب الحمل .. وعلى رأس المنعطف المؤدي الى
البسطة ، وجد لوحاً اسود عند بائع سكاثر . كان فياض يعرف
ان هذا اللوح ، بالنسبة للسياسة المحلية ، كلوحة الاسعار في البورصة ،
او نشرة الارصاد الجوية ، يحمل قنبولات او توجيهات . وذكر انه
مر من هنا قبل اعوام ، فوجد مكتوباً على اللوح « الصلح سيد
الاحكام ، والصلح سيد الحكم ، ففهم ان رياض الصلح على خلاف مع
بشارة الحوري ، وأدرك ان «البسطة» تذر «الكسليك»^(١). وقرأ فيه
اليوم حكمة حيرته . فاللوح يقول : « الدهر دولاب .. لا عمك ولا
خالك ! » فماذا اراد بائع التبغ بهذه العبارة ؟ ربما كانت زجراً
لحاكم او لحصم ، تهديداً مبطناً بتبدل الأحوال ، موعظة اريد بها
أن الدهر لا يبقى على حال ولا يبقى لأحد . وقد ارتاح لهذه البشارة
بالتبدل . وقال من الخير ان الدهر دولاب . ثم وافته النكته فأضاف
« بائع التبغ دبالكتيكي ! » .

عند ساحة رياض الصلح لاح له مبنى البريد المركزي ،
فاتجه اليه في خطوات سراع ، كمن يرغب في التخفف من حمل ،
واخرج خمسين ليرة حولها الى صديقه خليل ، مغفلاً اسم المرسل ،
وقفل راجعاً وهو يمارس احساساً بالسعادة لهذه التضحية الصغيرة ..
كان يذكر العشاء السري الذي حدثه عنه جوزيف ، وغسل اقدام

(١) من احياء وضواحي بيروت.

« التلامذة » ، ويود لو غسل هو ايضاً اقدام « التلامذة » ، على نحو مماثل .

عاد نشيطاً يقطع ساحة البرج وهو راض عن نفسه .. قال في ذاته : « قطرة ماء ؟ لا بأس ، من القطرات السيل .. خطوة ؟ اذا ازدادت الخطى في اتجاه معين صار درب . حسبي انني ، رغم سوء وضعي ، قدمت عوناً .. غسلت قدما مستحقة . »

وبوصوله الى مقهى أبي عفيف القديم ، هفت عليه رائحة عطرية من سيدة شقراء ، فلاحقها بانظاره حتى اختفت في الزحام . كان خصرها منحوتا بازميل ، فاي محظوظ في هذا العالم يضم هذا الحصر المنحوت بازميل ؟ كانت المرأة جميلة بغير شك ، ولكنه ، في الحال التي هو عليها ، رأى كل جمال الكون في جمالها .. تكشف الحسن كله في نهديها وردفيها ، وعربدت الشهوة من جراء هذا المشهد في جسده ، فتوقف لا يقوى على السير .. تصور زميله العامل الشبق يضحك فتبدو نيوبه تقطر غامة ، وهو يتحدث عن « الزيارة » وفتح الصدر والنوم المريح ، وعوت غريزته الجائعة بشكل عطل فيه قدرته على المقاومة ، وعندئذ انجبه الى المنطقة التي تجنبها صباحاً ، وراح يمشي كالسائر في نومه ، فلم ينتبه الا وامرأة لحيمة ، قصيرة ، صارخة الاصباغ ، تعترض طريقه وتصرخ بلهجة داعرة : « تفضل ! » . ولما اجفلس وتقلص ، اطلقت وراءه ضحكة فرقعت كمتفجرة في

الزقاق .. واذا ذاك خرجت من احد الأبواب الزرقاء المتقابلة امرأة
اخرى نحيلة ، مقرقة ، وقالت :

— اترك هذه ... وتعال الي .. أنا على كيفك !

وعلى امتداد الزقاق تكررت المحاوله .. البائعات هنا أيضاً
يتعلقن بأذيال الشاري ، وليس من فرق سوى بالبضاعة ، ومن العبث
الافلات . وحين أفضى به الزقاق الى آخر ، وجد نفسه فيما يشبه
الحي بجوانبه الصغيرة ، ومطاعمه ، ومشاربه ، وبيوته ذات
اللوحات الاعلانية ، ووجوه نسائه المتهتكة أو الاسوانه ، ولكن
التعبه على كل حال .. ولقد داخله شعور بالملقت ، ثم بالتقزز ، وبادر
الى انهاء زيارته بأسرع ما يمكن ، فغامر ودخل بيتاً في الطابق
الاول من الدرجة الرخيصة جداً .

كان الجو بارداً قليلاً ، غير انه كاد يخبثق بما أحس من
حرارته وكثافته ورائحته اليودية الكريهة . ولم يكن اليوم ممطراً ،
ولكن ازقة الحي كانت مبللة ، ذات حفر وأوحال . ولم يدر
أجاء الوحل من الأزقة الى البيوت أم من البيوت الى الأزقة . كل
ماوعاه ان الوحل في هذه المنطقة كثير ، ومحصور بطريقة ما ،
ومقبول كواقع لا رغبة ، أو لاحيلة ، لاحد في دفعه . فالحي ، حتى
بوحله هذا ، جزء من اللوحة العامة ، ولعله أن يكون ، بالنسبة
لاصحابه وزواره ، الجزء الضروري .

وكانت بيوت حجرية أو خشبية ذات طابقين أو أكثر
تقوم على جوانب هذه الازقة ، ولوحات مصورة ، باسماء صاحبات
البيوت ، يكثر فيها وصف الشقراء .. ومن سائر البيوت ، عبر
الأبواب والنوافذ ، تسمع اغنيات دارجة متهتكة ، وتفرقع
ضحكات جريئة ، ترافقها شتائم بذئية ، وتنتشر رائحة بعض المحاليل
المطهرة ، الحادة ، وتطل وجوه مبرقشة يبقايا أصباغها ، مخمورة
ووسنانية . وقد سألت احداهن جارتها :

- كيف كان الشغل البارحة ؟

- وسط .

فارتعش فياض كأنه مس سلكاً كهربائياً ، وهذا يسمى
شغلا ؟ البغي مخلوقة آثرت الراحة على الكدح .. وبرغم الدوافع
فانها امرأة رخيصة ، وأي رخص أكثر من أن تكون مبصقة
لكل مخمور ، وتسمى ذلك شغلا ، وتضحك فوق ذلك ! ؟ ،
وطرق اذنيه صوت ينادي :

- ماما !!

كانت فتاة حواء تنحني من الشرفة ، ومن الطابق الأول
ردت عليها امرأة بدينة ، تقف كبعض النساء الاخريات على
الباب ، مثقلة الذراعين والعنق بالحلي ، وعلى وجهها تعبير خلاعة
وشراسة ، فادرك انها صاحبة البيت ، واحس بمهانة النداء ، فامرع
ليخرج من هذه الحماة ، لكن الزقاق كان مسدوداً في نهايته ،

واحدى صاحبات البيوت تمسك بشعر فتاة وتسحبها على الدرج
وتصفعها وتقذفها بكلمات لم يتصور قبلا انها تصدر عن امرأة ..
كانت الفتاة صغيرة ، ممزقة الثياب ، مشعثة ، وصاحبة البيت البدينة
تنقض عليها وعجيزتها ترتج وراءها ، وصدرها الضخم يندلق على
كرشها . وقد ذكر الذين تجمعوا أن الفتاة حاولت الهرب من
البيت ، فضبطتها صاحبة وجرتها في طول الزقاق وهي تصيح :
« ادفعي دينك اولا ، والفتاة نجيب : « دينك لا يوفى .. مصصت
دمي ! مصصت دمي ! »

وانتهى المشهد بغياب المرأتين وراء الباب ، ففرق الناس ،
وسار فياض منكس الرأس ، شاعرا أن وحل الزقاق قد ماع
وسال ، وانه يحمل في كل انحاء جسمه لطخات منه .. وكانت اغنية
« مايسايل . شب واستحلى » تلعلع من فونوغراف قريب من أحد
الأبواب ، وامرأة نصف متكئة على مصراع بابها وهي تصرخ بغنج
« أنا على كيفك ... على كيفك ! » ولحام غيب جذعه دخان
المشواة يقلب الأسياخ وينادي : « كلوا لحم واضربوا لحم ،
يا أصحاب اللحم ! »

ولم يدر فياض أهو بوؤس المكان ، أم بشاعته ، أم القرف
الذي استولى عليه حتى الغثيان ، وحجب عنه رؤية الشاب
الذي كان يتقدم منه في خط مستقيم ، حين خرج الى طريق الدورة
ماراً بالجميزة . كل ما ذكره بعد ذلك أن الشاب ، وكان اصلا من

طلابه ، هجم عليه محيياً ، سائلاً عن الصحة والحال ، وفي نظراته قدر كبير من الدهشة والظفر .

هذا الشاب ممن يطاردون أمثاله ، فهل كان يتعقبه ام عثر عليه مصادفة ؟ . انه من طلابه ، وكان يوماً يتأدب في وجوده ، وربما كان يخافه ، فهل انعكست الآية ، واصبح على الاستاذ ، في هذه الوقفة ، ان يتأدب امام الطالب ، ويدفع له من عملته السابقة ؟ دنيا . . لم يكن يحسب ان هذا سيقع ، ولم يكن يقدر ان تتكره لن ينفعه في شيء ، وانه سيقع في المصيدة بمثل هذه السهولة .

الطالب يبتسم ، ربما لتبديد شكوك الاستاذ ، وهذا ينظر حواليه ليرى كم رجلاً يحيطون به ، ويستعد نفسياً للمقاومة . . . والدقائق تتابع في مجاملة منافقة ، قبل ان ينتقل احدهما الى حسم الموقف .

اقترح الطالب الدخول الى احد المقاهي ، فاعتذر الاستاذ ، واقترح المسير قليلاً للتحدث ، فرفض أيضاً ، وحين سحب يده من يد تلميذه قطع الطريق ، الى الرصيف الآخر ، بسرعة وارتيباك ، معرضاً نفسه للخطر . . . راح يمشي مشياً عادياً أولاً ، ثم اسرع ، راسرع اكثر ، واستدار ليرى ما اذا كان الشاب يطارده ، ثم اندفع يركض في احد المنعطفات ، وخجل من فعلته فتوقف ، وركب اول سيارة صادفها الى الاشرفية ، وهناك نزل ليستوثق أن أحداً لا يلاحقه ، وطفق يدخل جادة ويخرج من اخرى لتضليل مراقبيه . . .

وكان العرق البارد يلمع على جبينه ، ويقطر في شعر صدره ،
وحلقه جافاً ، وطعم مرارة في فمه .. كان كحاله عند وصوله بيروت
لأول مرة .

- ٩ -

اقتنع الآن ان نصائح اصدقائه في محلها ، وأنه مطارده فعلاً ،
وان الشخص الذي يسأل عن بيت خليل يجد في إثره ، وكل ذلك
يستدعي العودة الى الاختباء ، او العمل في مكان بعيد جداً عن
الشبهة . ذلك ان الشاب لا يمكن ان تقوته ملاحظة ثياب الشغل ،
ولسوف يبلغ عنه ويصبح استمراره في البناء مستحيلاً ، ولا مندوحة
من لزوم الغرفة وقبول عرض أبي روكز لقطع المسامير .

« منذ الليلة سألقي في هذا الوكر الذي يسميه مالكه غرفة .
سأظل فيه حتى اقدبر أمري بشكل لا يجعلني عالة على أحد ، فكر
عند دخول الغرفة ان يغسل ارضيتها قبيل المبيت ، ولكن ما فيها
من رطوبة كان يحيلها الى بشر ، فكيف اذا سفع الماء ايضاً؟ سيفعل
ذلك في يوم آخر ، يوم مشمس ومن الصباح ، أما الآن فليتناول شيئاً
من الخبز والجبين ويندس تحت الحيش ، بعد ان تعذر عليه شراء الغطاء
بسبب ما حدث ، وليفكر بهدوء في وضعه ، في كيفية احضار
الحقية من بيت جوزيف .. وعلى ذكر بيت هذا الاخير ، خطرت

له ، أكثر من كل الاشياء الممتعة ، الكتب التي رآها في غرفة المكتبة فقال : « يا ليت لي شيئاً منها هنا » .

طرق بابه ، بعد اشعال الضوء بقليل ، فخفق قلبه ، وقفز عن الحوان وهويسأل : من ؟ وجاءه الجواب : « ابرو ركز ! » . دخل المالك ووراءه شاب ظل واقفاً على العتبة قال ان اسمه سر كيس ، وعرف فياض أن سر كيس هذا هو المستاجر الآخر الذي يحتل الغرفة المجاورة ، ويعمل كما قال ، في الأدوات الصحية ، وان كان ذا خبرة في صناعة الحدادة ، ومن هنا اهتمام صاحب البيت به .

ولم يطل وقوف سر كيس ، فهو يأتي متأخراً ويذهب باكراً ، وقد جمع بينها ابرو ركز ليتفقا على المكان الذي يضعان فيه مفتاح باب الحوش . . وبعد انصراف سر كيس ، ظل ابرو ركز قائماً وسط الغرفة ، كشيء زائد أو في غير محله . . بدا قلقاً ، يريد ان يذهب وان يبقى ، وينعكس على وجهه التعب والتردد دون ان يحزم امره . . لعله ادرك من الغرفة ان الانسان ، حتى في القرن العشرين ، لا يزال نوعاً من وحش يفعل بعض الظروف .

— أين أغراضك ؟

— ليس لي أغراض .

— وثيابك ؟

— سأحضرها فيما بعد . .

— ولماذا لا تحضرها الآن ؟

— وابن اضعها ؟

كان فياض يتكلم بهدوء ، وربما بلا مبالاة . . . الواقع الذي يحياه لا ينفع فيه سوى ذلك : ولجلل أبي روكز بهـ هذا الواقع فقد رأى في هدوء فياض نوعاً من بلادة لا تليق بشاب طويل عريض مثله . ولئن كان من غير المستحسن ان يصارحه بهذا الرأي ، فقد سمع لنفسه ان يعبر عنه ببسمة ازدراء طغت على شفتيه . وقال وهو يضع يديه وراء ظهره ، ويستدير ليخرج :

— كم عمرك يا ابني ؟

فرنا اليه فياض ، شاعراً بالم الطعنة والم الصبر عليها .

— لست طفلاً على كل حال .

— ولست شاباً . . . أسمع لي أن اقولها بدون خجل .

— قل ماشئت . . . انت في وضع تستطيع أن تقول فيه ،

كل شيء . . .

— زعلت ؟

— معاذ الله . . . ابي يقول : اذا لم يكن في البيت

كبير ، فليكن فيه حجر كبير . . . وانت كبير هنا . . . وهذا من

حسن حظي .

— حلو . . . الظاهر ابوك فيلسوف . . . يا حرام . مدرسة

البيت لا تعلم ، والا لأصبحت . . .

— غير ما انا الآن •

— بالضبط ••

— وماذا تقترح علي لاصلاح نفسي ؟

— الاجتهاد .. العمل •

قال في نفسه : « جاءت اللحظة المناسبة •• اذا تأمن عملي
هنا اصبحت في مأمن ، وبما أني لا استطيع الذهاب غدا الى ورشة
البناء ، فلماذا لا أفتحه في امر العمل ؟ . من غير الملائم أن اعرض
نفسي ، ولكن من الحماقة أن اضيع الفرصة ايضاً ، .

— العمل في ورشتنا انتهى .

— وماذا ستفعل ؟

— ما يفعله سائر العمال •• أسعى للعمل في ورشة أخرى •

الموضوع الذي يهد له ابورو كز فتح من تلقائه . من مدة
وهو ينتظر مجيء العامل الذي ينيط به امر المعمل . وقد توسم في
فياض ما يرجوه من عامله المنتظر ، فهو يسكن عنده ، وغريب
ووحيد ، وليس عاشقاً كسر كيس !

— لماذا لا تشتغل عندي ؟

— الشغل عندك صعب ويحتاج الى خبرة •• قطع المسامير

مسألة فنية .

— في هذه معك حق ! (اجابه مسروراً بفنية قطع المسامير)

ولكن الانسان لا يأتي من بطن امه متعلماً •• تدرب بضعة ايام

وبعدها تشتغل على العمياني.. تريد وإلا لا ؟ الارادة قبل كل شيء،
اذا كنت تريد فستدرب بسرعة.. أنت نبيه ، شهادة الله، ولكنك
بحاجة الى مهنة . كيف أضعت شبابك سدى !؟ مع ذلك لم
يفت الوقت ..

— صحيح .. لو وجدت المهنة المناسبة ...

قاطعہ ابو روكرز منبهاً :

— لا توجد مهنة مناسبة مثل الميكانيك ، فهمت ؟ عصرنا
عصر صناعة ، وما هي الصناعة ؟ الميكانيك ، وفي الكتب يقولون :
ميكانيكا .. والحال واحد ، الميكانيكا هي الميكانيك ، وما تتعلمه في
الكتب في سنة تتعلمه عندي في شهر .. الممارسة كل شيء .. أنا لم
أخرج من « الصنائع » ومع ذلك اخترعت آلة ، وفكر المهندس
الذي يخترع مثلها ، فهمت ؟ أنا عامل مثلك في سكة الحديد ..
هناك تعلمت الحدادة ، اخذت سر الميكانيك ولويت رقبة الذين
تخرجوا من أوروبا .. كان المهندس ، عندما تشكل عليه قضية ،
يستنجد بي ..

— عظيم ، انت عبقرى ..

— أنا مثل سائر الناس .. ولولا مرض القلب الذي ارغمني
على ترك العمل لصنعت الأعاجيب .. تعال والتق نظرة على المعمل ..
كان معمل المسامير عبارة عن غرفة متوسطة ، كهفية
كسائر الغرف ، رطبة ومعتمة . وكان ينتج نوعاً واحداً فقط ،

هو المسبار المستعمل لتثبيت أشرطة الكهرباء على الجدران . . يشترى
ابو روكز اسلاك الحديد ، والآلة التي اخترعها تقطع الاسلاك الى
مسامير ، وهذا كل شيء . ولم تكن كمية الانتاج معروفة ، وربما
لم تكن هناك كمية أصلاً ، فالآلة تتوقف أكثر مما تشتغل ،
وابو روكز ، كما يبدو ، لا يهتم انتاج المعمل بقدر ما يهتم بوجود
آلة من اختراعه هو .

* * *

بعد اطلاع فياض على المعمل جاد عليه ابو روكز بقعد
خشبي ، حمله الى غرفته ، وهناك استأنف الاثنان مهربتهما التي دارت
حول العمل والمعمل .

قال ابو روكز في يقين ومهابة :

— لو كان هذا المعمل في بلاد العالم لاعطى ذهباً ..

— الصناعة تحتاج الى تشجيع .

— وأي تشجيع ! المخترع في اوربا من اصحاب الملايين

(وبعد وقفة) انحسب اختراع آلة من الأمور السهلة ؟ لا تصدق

هذا الكلام .. الميكانيك معقد ، يحتاج الى رياضيات عالية ، وأنا لم

اتعلم رياضيات .. توصلت الى مرها بالممارسة .. صرت اضبط

القياسات مثل احسن مهندس ، ولولا ذلك ما استطعت اختراع آلة

مثل هذه .. تقول لي انها ليست مثل الآلات الاوربية ، صحيح . ولكن

الآلات الأوربية كانت مثلها في البدء.. الاختراع اولا والتحسين ثانياً..
السيارة والطيارة والآلة الحاسبة ، هل كانت في البدء كما هي الآن؟
التطوير يرافق العمل ، والعمل يحتاج الى موازنة ، الى حماية ..
قال فياض في نفسه : « عال ، هذا واحد من أصحاب الصناعة الوطنية
وبينك وبينه نقطة التقاء . » وقال له :

— صدقت .. لولا حماية الصناعة ما تطورت .. ولولا

استيراد المسامير ، كم كانت صناعتها في لبنان تزدهر ؟

— يرحم بيك ، تعجبني ، الحمد لله الذي رزقني جاراً يفهم
علي .. جربت الحديث مع سر كيس (والتفت ناحية غرفته المغلقة
واضاف) لكنه ، بعيد عنك ، حمار ، همه الوحيد ان يطلّس شعره
بالزيت ويجعله فوق جبينه على شكل رفراف ، ويجلس نهار الأحد
ويدق بالدربكة وينفق ليلت نظر ست الحسن (وغمز الى بيت
بجاور) وهي تضحك عليه ، ومعها حق .. تصـور ارمني ويغني
بالعربي ، الغناء بالارمني حلو ، وست الحسن ارمنية ، ولكن
سر كيس لا يغني الا بالعربي .. لالفظ ولا صوت ولا فهم .. المهم :
لم استطع ان اتفاهم معه ابداً . ولد طيب ، عفريت ، شغيل .
ولكن لا يفهم بالاختراعات ، وحين ادخلته المعمل مطبوزه وكشر ..
هياي ! الحواجه سر كيس يكشر على معملك يا بوركز ! ماشاء
الله ! ومن أين حضرته ؟ يقول : من زحلة . فشر . من « بجـدل

عنبر ، وحياتك ، ومع ذلك سمعته يقول : تبهدلنا . الجرو تبهدل ،
يا حبيبي ! كأنه من النورثك ^(١) .

— قد لا يجب الشغل في معمل مسامير ، طبائع الناس
تختلف .

— يمكن ، ولكن الذوق ضروري ، اقول له : هذه الآلة
من اختراعي ، فيمط بوزة ويكشر ، هياي ! لو صادف اديسون
امثاله لبقينا على السراج .

— جهل ، المخترع انسان عظيم ، وفي اوروبا يقيمون له
التماثيل .

— وعندنا يمطون له بوزهم .. لا تبعد ، هذه مرين (ماري) ،
زوجتي ، تمط بوزها ايضاً ، ولم تأت ولا مرة واحدة وتلقي نظرة
على الآلة .. لا كرامة لني في وطنه وبين اهله .. هذه هي الدنيا ،
قولك تتصلح ؟

اجفل فياض من السؤال .. راوده الشك في ان يكون
ابورو كز على معرفة بقصته ، فتعمد ان يجيب على لسان والده كما
يفعل دائماً :

— الدنيا تمشي الى امام .. هكذا يقول والدي .

— به على كسرتنا .. وحاسب قوله فلسفة ؟

(١) اختصار كلمة نيويورك عند بعض سكان جبل لبنان .

– والذي اختبر الحياة ، قال لي : كل شيء سيكون
احسن .

– وهذه ليست فلسفة ايضاً .. الفلسفة ان يقول كيف
سيكون احسن .

– نعم ، سمعته مرة يقول : اذا طلب ابنك خبزاً لا يستطيع ان
نعطيه حجراً .

– تفسيره ؟

– اذا طلب الناس شيئاً حصلوا عليه .

– هم .. حلو .. والدك متتور ، وكلماته لها معنى .. (ومع
ابتسامة ونظرة تفحص) ولك لا يكون والدك (...) المهم !
انا امزح معك ، ملعون سر كيس وسيرته ، ابن كنا وابن صرنا ،
اتركنا في قصة المعمل ، الحاجة فيليب مستعد لاخذ كل انتاجنا ،
وانت وشطارتك ، اجرتك المقطوعة ليرة ونصف ، وفوقها خمسة
قروش عن كل كيلو يباع .. قليلة ؟ ساترك لك المفتاح .. ابدأ
العمل من الغد .

– لا مانع .. سأنظف المعمل ، وامسح الآلة ، وارتب
العدة .. واعجبك .

– لا تمدح نفسك .. اشتغل وانت ما كنت ..

– معك حق ..

– ولا تشا كل هذا الحمار (ولم يذكر الاسم باعتباره

معروفاً) وحتى « مرين » ، لاتسمع كلامها .. ضع رأسك في الشغل .
وقل يا الله ، العمل على الآلات يحتاج الى تركيز ، وانا لا ادخل
إلا عندما بطراً عطل .. هذه شغلة الميكانيكي .

— ستري مني مايرضيك .

— اذن تصبغ على خير .. نعم باكراً وقم باكراً .. النوم
الباكر ضروري للعامل .. انا لا أنام الا ساعة أو ساعتين ، قلبي
ينفخ كمنفاخ ، والطبيب نصحني بالراحة وعدم التفكير ، وانت ترى
اني مرتاح ، ولولا الآلة ما فكرت بشيء .

— والآلة لاتفكر بها .. اتركها واسترح .

— ياريت .. الآلة ولدي .. أنسيت أنني أنا الذي اخترعتها؟

قل يلعن تلك الساعة ، فكرة الاختراع سيطرت على عقلي .

— أما قلت لك أن المخترع قنان ؟

— بحرس دينك .. بشرفي ، حامل البكالوريا لا يفهم مثلك ..

كلماتك بلسم ، غذاء روحي ، سأنام مرتاحاً هذه الليلة ، تصبغ على
خير .. انتبه لعملك ... ركز تفكيرك في الآلة ، ولا تشاكل
هذا ... الحمار !

القسم الرابع :

- ١ -

ذات صباح ، تلقت دينيز ، رسالة تحمل هذا التوقيع :
« جارك السابق ، ولقد فوجئت بها الى درجة الدهول ، واستسلمت
الى فرح اللحظة العجيبة التي تختصر الحياة ، وتغمر وجود الانسان
بفيض الهنية التي هو فيها ، كأن لازمان بعد ، ولا مكان .
« جارك السابق » ؟ وماذا بعد ؟ « رسالتك يا جاري ،
ياربوعي ، ماذا تحمل الي ؟ »

وقالت في نفسها وهي تضمها الى قلبها : « ليتني ابقيا دون
قراءة . » وفي غرفتها اغلقت النوافذ ، واشعلت مصباح السرير ،
واسبلت جفניה وتنهدت : آه ، ما اجمل قضاء العمر في حلم لذيد ! ،
فرحتها ان رسالته ، كشخصه الغريب ، اقتحمت عالمها
اقتحاماً . . لم تكن تتصور ان ذلك سيحدث ، ثم فجأة كتب اليها . .
فجأة بُعث ما كانت تحسبه في الراقدين : حبها . واذن كان ضلالاً
كل ما فكرت فيه ، وهذا الذي بلغها انه اختفى لا يزال موجوداً ،

يذكرها ويكتب اليها .

ضغطت على الرسالة فوق صدرها ، وداعبت الورقة كأنها تداعب الرأس . . . وودت من اعمـاقها ان يستريح الرأس ، ان يجد فرجاً من ضيق ، ان يغفر لها قسوتها وشكرها وضعفها .

« صديقتي !

« هذه الليلة فكرت بك كثيراً ، وايقنت ، عندما طلعت الفجر ، ان حيي - الذي لم يكتب كينونته برضائي - يستأهل السهر الى ما بعد الفجر . . احبك أنا ، ومهما يكن ، وحسب الحب انه يقتل الدودة التي تقرض في القلب ، ويهب العذاب الذي بعضه ملح الحياة ، ويقرب المسافة بين العقل والجنون ، ويجعل ماهو طبيعي ، كامد ، الى ماهو غير طبيعي ، مشرق ملون .

« في الحكايات ان شيخاً وشاباً سارا في طريق . . وحين بلغا جبلاً ، قال الشيخ للشاب : تحملني أم أحملك ؟ وابتسم الشاب ، فقال الشيخ : لا تبسم يا بني ، فلست بقادر على حملك ولا قصده ، بل أردت : تحدثني أم أحدثك ؟

« ولقد تحدثنا ، نحن أيضاً ، عبر نافذتنا . . كنت معذباً بالزمن . كان الزمن يبطئه ، هو الطريق الجبلي الوعر ، وكانت وحدتي وحشة قاسية على ذلك الطريق . كنت شيخاً في بعض جوانب نفسي ، وبحاجة الى من يردي الى الشباب . . كنت محاصراً

بذكرياتي وبحاجة الى ان أنساها .. كان الماضي مصدراً للحسرات ،
فكنت أبحث عن الحاضر . وأطللت من شبابيك العالي ، من كوة
الأفق ، فصار أنس ، وحديث .. وتسارع الزمن .. أصبح تسلق
جباله أسهل ، وانجرفت ، مدفوعاً بفرحة هذا الانس ، في عاطفة لا
أدري ما اسمها . حباً تقولين ؟ أحلى ، أكثر شفافية وغرابة ، وقد
تكون أكثر طرافة ، وأشد فتنة بسبب من ذلك .. ولستم تمنيتم ،
في وحدتي ، لو تأتين يوماً الي ، لو تجلسين الى جوارى ، لو اسمع
صوتك ، لو أبادلك كلمة . ان دروب الحياة ، حتى السهلة منها ،
وعرة اذا قطعها الانسان منفرداً .

« قنعت ، بعد ذلك ، بالحديث ولا كلام .. كنت قادراً
وراغباً في تخطيم الجمود من حولي ، واقتحام الأبواب اليك ، ولو
سألني ماذا تريد ؟ لقلت لك : ان أثقب « الأخلاق الفاضلة » التي
توجب ان يتم كل شيء في الخفاء ، ونحول دون لقائي بك ، هنا ،
في غرفتي . ولقد فكرت ان آتي اليك ، ان أدخل بيتك ، غير أنني
عابر طريق ، وعابر الطريق لا يحق له ان يدخل بيوت الناس ويستسلم
الى الراحة . قصاراه ان يطلب جرعة ماء ، أو ينشد فيثاً تحت
شجرة ، ثم يضي .

« وكذلك مضيت .. أنا في مكان لا أدعوك اليه ..
لا تأتي ، لا أريد استغلال الحب ، أنا أصبح ضد التيار .. وليس
في وسعك ان تفعلني مثلي ، لا أريد ان أخدعك في امري .

« وداعاً يا حديقتي .. ليحرسك الله ، ولتنسكب كل أفراح
الدنيا في قلبك ، ففي ذلك سروري وعزائي . »

* * *

حين طوت الرسالة ودستها تحت وسادتها ، كان جارهـا
السابق قد غدا فارساً من القرون الوسطى ، بيده سيف ، وفي عنقه
صليب .. أصبح الآن على ذات السورة الرومانتيكية لعالم الكتب
والأفلام ، وباتت مستعدة لأن تمنحه نفسها وجسدها وتبعه الى
حيث يريد .

ترأى لها أقوى واجراً من الجميع ، في نظراته يشتعل
التيحدي ، وفي قلبه طموح الى عالم ماجد ، وفي نفسه غنى ، حتى ما
يريد شيئاً مما يريده الناس ، ولا يقبل ما يقبلونه ، ولا يحترم
ما يحترمون أيضاً .

لم يكن الرجل فيه ما يفتنها ، بل سر هذا الرجل ، كونه
متميزاً ، يسبح ضد التيار ، له غاية أخرى ، وحياة أخرى ، وعذاب
يجعله خليقاً بالحنان ، وشجاعة تضعه على حافة الموت دائماً ، وحب
يعلو على المدائح الرائجة لصغار العشاق .

ولكي لا يضيع « هذا الرجل » ، قررت ان تبحث عنه ،
وان تستعين في بحثها بأم بشير ..
ولكن أين أم بشير ؟

في معمل المسامير ، حيث لا فارس ولا سيف ، كانت البرودة ترشح من الجدران الرطبة ، وتبعث الشمس المحجوبة بالغيوم ، وجهامة الحديد الصديء ، والعتمة الدبقة ، الانقباض الشديد في النفس . كانت تشيع رائحة العفونة في فضاء الغرفة ، ويتدلى العنكبوت من الزوايا ويتمدد شباكاً الذباب فوق موجودات المكان . وقد اكتشف فياض جرداً ميتاً ومنسياً في مصيدة ، ووجد قطعاً من الحرق الملوثة بالزيت لاصقة بالأرض ، وعلباً فيها زيوت معدنية سوداء متخثرة تغرق فيها حشرات صغيرة مقرقة .

وحين جلس ليعمل زكمته رائحة العفن التي لم يستطع إزالتها طوال أيام . وقال في نفسه : « هذه الرائحة لا بد ان تزول ما دام الباب مفتوحاً والصيف قادماً » ، كان يوده ان ينظف المعمل أولاً ، الا ان ابارو كز طلب منه ان يعنى بالآلة دون سواها . مسحها وزيتها ، وتدرّب عليها تحت اشرافه فصار قادراً على العمل بمفرده ، وقادراً كذلك على تحمل ضغط الغشيان والتقزز الناتجين ، لا عن نتن المكان وحده ، بل عن الصداع والتوتر العصبي من جراء دوي الآلة الرتيب : تريك ! . تراك !

وحين ذكر عمله في البناء ، بدا له كالعمل في تسليمك الحرير . يكفي انه في الهواء الطلق ، لا تصحبه هذه الطقطقة الحادة التي

توشك ان تثقب طبلي اذنيه . هناك كان جسده يتقوس تحت ثقل
الأحجار أو الخرسانة ، وكانت راحته تملئان ، وخاصة في الأيام
الأولى ، بالدمامل الصفراء الكاوية أكثر من الزيت المغلي ، اما هنا
فتهرس روحه مطرقة كبيرة على سندان ضخم .. دماغه يتصدع ،
ينخرز بألم خرس ملتهب . وحين تعنف طرقات الآلة ويهتز الغشاء
الرقيق لطبلة الأذن منذراً بالتمزق ، يبدأ مثقبان حفرهما في الصدغين ،
وتتوتر جملته العصبية ، وتنقلب امعاؤه وتتلوى ، فارزة سمومها ،
ويأخذ دوار شديد يزيغ البصر ، وشرارات حمر وبيض تقدح في
تواتر على الجدار المواجه ، ويحس بأنه سيقذف ، ليس بامعائه
وحدها ، بل بروحه أيضاً ، ويسبح بعرق بارد كالموت نفسه . لقد
صاح مرة : « ايها العالم ! ايها العالم ! . انت لا تدور على محور الفلك ،
ولا تدرج على درب الزمن .. أنت تسير مدفوعاً بالأكف الشقية
الدامية لصانعين الأعجاء ! »

وها هي كفه تنهاوى أعياه في كل ساعة .. الآلة وحدها
تهدر قاطعة بين فكها الرهيفين ، لا المسامير الميتة ، بل الأعصاب
الحية ، أعصابه هو الذي تحولت الاشياء حوله الى عيون هازئة
وافواه صارخة : اهرب ! اهرب ! اهرب !

كان يعرف انه اذا هرب مرة فلن يثبت أخرى ، اما ان
يصمد الآن او لا يصمد أبداً .. وهو يريد الصمود ، يريد من كل
قلبه ووعيه ، وفقط لو ان هذا الدوار ، وهذا الصداع ، يتوقفان

قليلاً .. لو انه يجد وسيلة لتبريد دماغه ، للسيطرة على أعصابه التي تفتتها الطرقات .

ايقاف الآلة سيحمل ابارو كز على الجيء .. » وسيضحك ويقول : كم عمرك ؟ .. والعمر يا ابارو كز لا يدخل له هنا . العادة كل شيء ، ولا بد لي ان اعتاد ، فالذين يعملون في ظروف كهذه بشر مثلي ، والفارق الوحيد انهم اعتادوا .. اجتازوا الامتحان بنجاح .

وقال في نفسه : « لن أوقف الآلة .. لتظل تدور ، وتهدر ، وليظل الدوي الثاقب يحفر في صدغي ، واسوف أعاود العمل ما ان يزابلني الدوار ، وتهدا نوبة الغثيان .

انتزع نفسه من دائرة المطارق وهو اصفر الجبين ، زائغ النظرات وفي رأسه طنين وحمى . كان صنبور الماء في الباحة ، فاسرع اليه مستنجداً كأنه يفر من لهب النار ، وفتحه ملهوفاً حتى آخره ، ووضع رأسه تحته ، وترك الماء يسري في ظهره وصدره ، حاملاً البرودة والانتعاش الى كل خلية في جسمه المحموم .. رفع رأسه وتنفس ملء رئتيه ، ثم اعاده مرة اخرى الى الماء . رفعه واعاده ، واحس بالفرج ، وباشراق الوعي ، فترك الماء وراح يتجرجر في الباحة ، ثم رجع الى العمل ، وانطرح في ركن منه واطبق جفنيه .

والطريق المسدود في وجهي ليس مسدوداً بفعل القدر .. المجتمع

سده لاني تدرت عليه .. المجتمع يريد الكل على شاكلته ، وبابه
مشرع وعريض للمنافقين واللابالين والذين يتسلقون قاطرة الحياة
دون تذكرة .. المجتمع متسامح مع الجميع الا الذين يتمردون
عليه .

استجمع قواه ونهض مصمما على الاستمرار . وزيادة في
التحدي راح الى الماء البارد فسكب منه على رأسه ، وعاد دون ان
ينشفه . لسوف يجعل هذا الرأس يقاوم مهاكف الامر ، وسيضطر
اعصابه الى التماسك .

وراحت الشمس ، من وراء الغيم ، تتسلق قبة السماء ،
ثم انحدرت الى الغرب ، وزاد انحدارها .. وزاد عدد المرات التي
قام فيها الى الماء ، لكن المسافات بينها اخذت تتباعد ، وفي
آخر النهار استطاع ان يتنفس الصعداء .

في غرفته العارية ، تناول ما عنده من طعام ، وآوى الى
فراشه دون ان يفكر في شيء . مخيلته التي كانت تنشط ، عند
الرقاد ، لتفرض عليه صوراً من كل الانواع ، بدت واهية ،
عاجزة تماماً الليلة ، والفراش الحشن استحال الى سرير وثير ،
احتوى الاعضاء المكدودة بذراعين مخمليتين .. وما ان اطفأ
النور حتى انثالت الظلمة ، وهجم النوم ، ومهدت الحركة كلياً في
الغرفة التي خلت من طيوف اليقظة . ولم يشأ ابوروكز ان

يفرض السهر على فياض ، لأنه كعامل ، يعرف ماتعني تجربة اليوم
الاول من غناء .

وحين استيقظ في السحر ، سمع في بيت خشبي ذي طابقين
عزفا على الكمان ، كان صوت ابح خشن ، فيه بعض الشجو ،
يرافق الكمان في ترتيل كنسي . العزف ليس جيداً ، واللحن في
الاصل للارغن وليس للكمان ، ولكن ظمأه الروحي ، وسكينة
الفجر ، جعللا للحن وقعا سحرى في نفسه .

ومن عجب ان النافذة كانت مفتوحة ، والنور مضاء ،
فوقف على عتبة غرفته ينصت ، ويتطلع ليرى ما هناك . وبعد ان
انتهت المعزوفة ، اقترب من الشباك المطل على الوادي رجل في
نحو الستين من العمر ، ابيض الشعر ، غريب الهيئة ، يحمل كماناً ،
وقد احنى قوسه للسماء كما يفعل الفارس بسيفه عند التحية ،
وارتد الى الداخل ، ولم يلبث ان اطفأ الضوء . وساد الصمت
الا من بقايا النغم المنداح في الاثير ، والمتلاشي رويداً رويداً
في السحاب .

كان رأسه قد صحا تماماً ، والنوم العميق قد اعاد اليه
نشاطه ، وكانت الطبيعة تتجلى في ثوب من براءة الطفولة وعذوبة
الحفقة الاولى . بدت له جميلة ، مهيبه ، كريمة ، نحتوي في حنان
جميع الكائنات . فلما عاد الى فراشه امتشعر القدرة على
احتواء العالم الذي ضاق به امس ، وقال في نفسه : الحياة

لا الطبيعة هي التي تحتاج الى بعث .. لقد عتقت الحياة ، وهي تحتاج الى تجديد .

ثم استعرض صبوات الناس الى هذا التجديد ، من جمهورية افلاطون الى المدينة الفاضلة ومملكة السلام السماوي ، فوجد ان ذلك كله كان احلاماً طوباوية مضى زمنها ، وان الشيء المهم ان يكف الناس ، في سعيهم لتجسيد صبواتهم ، عن ادارة خدوم الايمن .

واذا فكر بالنغم الالتهالي لجاره العجوز ، وجدده صبوة من هذه الصبوات ، شكلاً من التعبير عنها ... نداء جميلاً الى السماء لتسعد الذين على الارض .. وربما كان الالهي ان يوجه في قالب آخر ، ولكن مجرد توجيهه ينم عن الشعور بالحاجة اليه ، والرغبة في التعبير عنه .

- ٣ -

عاد خليل الى البيت يجر اذيال الحبيبة والفشل . اخفق اضراب عمال الهاتف ، وانتقم الوزير من جنحة الاضراب فسرحتها . لم تبق سوى بضع كلمات تظهر حيناً بعد حين في الصحف ، وبعض عرائض تقدمها هذه النقابة او تلك طالبة اعادة المسرحين .

وكان خليل على يقين ان المسرحين لن يعودوا ، لأن

الوزير كان ينتظر فرصة كهذه ، ولو ان الظروف لم تقيض له هذا التسريع لأوجده ، او لأوجد الشواغر ، بأي شكل ، ثم ملأها مقابل وعود انتخابية ، او قايض عليها زملاءه فلبى طلباتهم ، مقابل المعاملة بالمثل . اما مصير المسرحين فقد تقرر : الشارع !

هذا المصير برغم سوءه ، لم يكن جديداً ولا مأسوياً بالنسبة لحليل .. واذا كانت والدته قد صاحت وهي تتلقى النبأ : « الله لا يرحمه .. احترق وحرقتنا .. فانه هو ، كان مستعداً لعدم المبالاة ، لولا وضعه العائلي الصعب والافواه الجائعة المنتظرة في البيت . وقد بدا امام جزع زملائه على قدر من الاستهانة بحسد عليه . وفيما كان هؤلاء يتلومون او يشتمون ، كان هو يفكر في نقاط الضعف ليصار الى اجتنابها في الاضراب المقبل . قال مؤكداً : « بعد فترة تبدأ المحاولة من جديد .. ليس في يد العمال سوى سلاح الاضراب ، وسيستعملونه حتى ينتصروا » .

كان حزيناً ولكن متماسكاً . يحني جذعه الأعلى قليلاً ، ويضم كتفيه تحت ستوته ، ويفكر باحسن شكل لمواجهة العاصفة . لو نجح الاضراب لما كان بحاجة الى كلام . اما وقد فشل ، فان صحة الموقف صعبة الاثبات ، وعليه ان يلوذ بالصمت .

البيت غارق في وجوم ، وترا كض صغاره وتعلقوا به . البنت الكبرى ظلت جالسة في الشمس ، وقد نكست رأسها حين

رأت خيبته . وكانت صفرة تشيع في وجنتيها الناحلتين . لعلمها من انعكاس الشمس الغاربة ، أو من اثر الجوع والبود ، وقد جرح منظرها قلبه ، لكنه لم يتوقف في الحديقة ليكلمها ، بل سار الى الداخل ، وانحط على الحوان .

وبسبب من عناده وثقته بنفسه وأفكاره ، تعود ألا يرضخ للاخفاق .. كان يعرف كيف يستشرف آفاقاً جديدة ، غير ان الجوع كان قد اتى ، لا على نضارة الاطفال ، بل على قدرتهم على الحركة ايضاً ، وكان هو جائعاً ، وليس لديه تبغ ، ولهذا بدا كل ما حوله كثيباً ، قاسياً اكثر مما يحتمل .

المبلغ المجهول صنع في وقته بهجة للعائلة .. وقد احس خليس ان هذا المبلغ الصغير الذي جاء في وقته ، اثن من اعطيات الوجود ، واعتبره رمزاً معنوياً كبير الاثر ، ولكنه ، والأسفاه ، نفد منذ ايام ، وبلغت الديون المتراكمة حداً امسك معه الجميع ، بمن فيهم الفران ، عن اعطاء العائلة مايؤكل منذ امس ، وقد ذهبت أمه لتستدين وهي تحني رقبتها ، وتلعنه وتلعن افكاره كلها .

وكان يأمل ان تعود بأي مبلغ ، وتلعنه . مقابـل ذلك ماشاءت . اللعنة لاتساوي شيئاً . حياتهم نفسها هي اللعنة الكبرى ، فماذا يخشى بعد ؟ ولكن الأم عادت صفر اليدين ، وعاد الأب كذلك ، وهبط الليل ، وانسحب الأولاد من الحديقة ، وتعلقوا باذيال أمهم يطلبون طعاماً .

خيم الصمت عميقاً وقد امسكوا جميعاً عن كلام يكلف جهداً
غير موجود . وامام الحضور المأسوي للعائلة الجائعة ، وربما القانطة
من الفرج القريب ، كان الوجود الذاتي لكل منهم قد اندغم في
الوجود العام ، فأحسوا انهم سقطوا في المعركة معاً ، وان عليهم
جميعاً ان يتعدوا ضد خصمهم : المجتمع ، وبدوا كأنهم شركاء
متضامنون امام المصيبة . وحتى ام خليل ، التي همت مراراً ان تفتح
فمها وتتفجر ، تراجعت وقد غمرها حنان الامومة حيال مرأى
وحيدها المطرق ويده على خده .

كان خليل منكسراً ، تعباً ، جائعاً ، يرى عدوه بشكل
أجلى . انه امامه ، غول كريبه وقادر ، وهو مؤمن ان هذا الغول
سيسقط يوماً ، ولكن متى يأتي ذلك اليوم ؟ متى ينتهي الظلم ؟ انه
لا يستطيع ان يتصرف بشكل غير لائق ، ومن واجبه ، بصفته
رباً للعائلة ، ان يفعل او يقول شيئاً ، الا ان الفعل والكلام غير
مجديين هذه الليلة ، هذه الليلة على الأقل ، فليصمت ، وليحاذر ان
يستثير الاعصاب والعواطف المكبوتة والمتوفرة من حوله .

طرق الباب بلطف ، طريقة زائر غريب . كان جوزيف هو
الذي جاء . لقد حضر فياض في غيابه ، فأخذ حقيبته ومضى ، دون
ان تستطيع هناء ابقائه ، وام يقل لها سوى انه في حال جيدة ،
وانه يشتغل .

وقالت زوج خليل ان فياض يشتغل عامل بناء ، وينام في

غرفة مثل القبر ، ولكنها لاتعرف ابن ؟ وام بشير التي اخبرتمـا
لاتعرف ايضاً .

صاحت ام خليل :

- يا ولداه !

فقال ابو خليل :

- عشنا وشفنا !

وتأوه جوزيف وتمتم :

- « بروفسور » وينقل احجار !؟

فاجابه ابو خليل :

- وماذا يهم ؟ انه يبني الهيكل !

فاستفسرت ام خليل بكثير من الاهتمام :

- أي هيكل هذا ؟ هل يبنون كنيسة ؟

قال ابو خليل :

- دور الكنائس لم يأت بعد .. الجماعة على طريق الجبلجة^(١)

اسر خليل في نفسه : « والذي صار لاهوتياً على حسابي »

بينما اجاب جوزيف في نوع من المباهاة :

- طوبى لمن كان على يميني .

فاحتد ابو خليل مستشاراً بهذه الطمأنينة المتعديّة :

(١) المكان الذي صلب فيه المسيح

- أي عين هذا استاذ ؟ المسيح نفسه بشر برسالته ثلاث سنوات ثم تقرر مصيره ، اما هذا (وأشار الى خليل) فانه يبشر من ثلاثين سنة ومصيره مجهول .. كل يوم نقول وصلنا ويمضي اليوم فنقول هذا الاسبوع ، وهذا الشهر وهذا العام .. العمر ، كما ترى ، انقضى وهو يتعذب ، فمتى يصير مايقول ؟ هو حر ، واحسبه على حق ، ولكن من يستمع للحق ! ؟

قالت ام خليل مقاطعة :

- ليس لهم رأس .. لانايب ولا وزير ..

فصاح بها :

- اسكني انت .. (والتفت الى جوزيف) تقول سيأتي اليوم الذي ينتصر فيه هذا الحق ، وانا معك ؛ ولكن كان عليه ؛ وهو يعرف ان الطريق طويل ؛ ان يسير وحده ؛ لا ان يتزوج ويجر هؤلاء الاطفال الجياع وراءه .

واحتج خليل في محاولة لتأكيد سلطته كرب عائلة ؛ بينما راحت امه تبكي وهي تردد :

- جياع ! أي والله جياع ؛ منذ امس لم يأكلوا شيئاً !

قالت زوج خليل مدافعة عن زوجها :

- ياويلتاه ! انفضحنا ! اكلا ؛ من قال انهم جياع ؟

وارتبك جوزيف شاعراً بضرورة التأييد المعنوي على الأقل ، ثم عدل عن الكلام وفكر ان يكتب يومية نارية هذا المساء . وفي

هذه اللحظة دخلت ام بشير حاملة سلة وضعتها عند الباب ، وصاحت
بزوج خليل :

- إلحقيني الى المطبخ .

- خير انشاء الله - سأل أبو خليل - عرس جديد ؟

- اعراس !

- التذت جاهز .. ضابط الايقاع بدون عمل ، والسعر ملائم

جداً .. اغتيمي الفرصة .

- الاستغلال مامن عادي .. في بعض الاحيان ارفع السعر

بنفسي .

- جئت في وقتك اذن .

- وجئت بالعربون ايضاً (ومدت يدها الى صدرها) هذه

خمسون ليرة على الحساب ؛ والفرح ؛ العقبى لاولادكم ؛ يوم الاحد

المقبل .

فقال خليل ، بعد ان تراخى التوتر قليلا :

- أحسنت .. وماهي اخبار فياض ؟ هل يعمل حقاً في البناء ؟

- اختفى من ورشة البناء ايضاً .

- ومن اخبرك ؟

- المعار الذي يعمل معه .

قالت أم خليل ناثرة :

- مجنون !

والتفت مغضبة الى ابنها و اضافت :

— خطيئة فياض في رقبتك ، أسمع ؟ في رقبتك انت !

فقال خليل هادئاً ، كمن يصدر حكماً واثقاً من صحته :

— خطيئته في رقبتنا جميعاً !

— ٤ —

طال انتظار دينيز ، ولم تأت ام بشير لزيارتها . حين يكون لديها عرس لا تفكر بسوى حفلة الزفاف ، ويكون الفرح فرضاً وشرطاً اساسياً ، وقد تتساهل في اجرتمها نفسها ولا تتساهل في اقامة الفرح ، وكان ابو خليل يشجعها قائلاً : « هذه عادة ابائنا واجدادنا » وقد قبض الخمسين ليرة كعربون ، وضمن لنفسه زجاجة عرق ، واستغنى عن حفلة الغداء برغم الالحاح .

وكانت دينيز قد سألت عن ام بشير في بيت ابي خليل ، فقالت ام خليل لكنتها : « زبونة جديدة ! » واكتفت الكنة بابتسامتها الحية ، مسرة في نفسها : « اذا تزوجت دينيز على يد ام بشير ، حصل « التخت » على اكبر مبلغ في حياته الموسيقية » ذلك ان دينيز ثرية وبيّمة ، وليس لامها سواها ، وكل الاملاك والاموال ستؤول اليها ، وزواجها سيكون حدثاً سعيداً بالنسبة لجميع الاطراف .

وكانت دينيز قد قالت للكنة : « اذا جاءت ام بشير
ارسلها الي » وهامي ايام تمر وام بشير لا تظهر ، حتى قالت ام
خليل : « اخاف ان يكون العرس قد فرط ! » فقال ابو خليل :
العربون صار في الجيب على كل حال !

* * *

غاصت دينيز في فراشها الوثير هذا الصباح وهي تتمطى
وتتعمد دون ان تجد همة او حاجة للنهوض . امها ذهبت من الصباح
كعادتها اكثر الايام ، فهي رابعة ثلاث في طاولة بوكر تستنزف
المال الموروث ، وتمتص التفكير الجنسي المعذب لارملة شابة .

وقد اعتادت دينيز الاتصال امها عما تفعل ، وتركت الام
لبنتها الحرية في انفاق وقتها كما تريد ، وكانت هذه تنفقه في النوم
والمطالعة والسينما ، وقد هيانها تنشئتها الهشة للاستسلام الى عالم
خاص ، خيالي ، من نسج القراءات الرومانتيكية ، ومن تأثير
الافلام وما فيها من فروسية ومغامرة وخروج عن المألوف .

كانت تضيق برتابة حياتها حين تفتح الافاعي في جسدها
ليلاً ، وفي هذا الوقت تأسف لأن فياض لم يأت اليها عنوة
كما فعل الراهب الشاب بسيدة البيت في رواية « الاحمر والاسود » .
ليأت منها يحدث ، وليقتحم عليها غرفتها ، وينفض غطاءها ..
لينقض عليها كنسر وليتركها بعد ذلك مدماة ... انها

لا تترك بالفضيلة ، ولكنها لا تريد نقيضها الاكسما في
« افلام القرصان » .

قالت في نفسها : « لوجاءت به ام بشير يوماً لسكافاتها بما
لا تحلم .. وتمطت ودرب نزوة جامحة يسري في مفاصلها .. وارسلت
كفها تمسك الحريز فوق الردف وهي مكبة على وجهها ، وضغطت
صدرها على الفراش ، واطبقت جفניה وتصورت كيف يكون
ذلك ، لوجاءها الفارس الذي يحمل سيفاً وفي عنقه صليب ،
الفارس الذي رسالته تحت وسادتها ، القادر والراغب في ثقب
« الاخلاق الفاضلة » التي تتطلب ان يتم كل شيء في الخفاء .

استعادت عباراته واحدة واحدة : « حسب الحب ان
يقتل الدودة التي تقرض في القلب ، ويهب العذاب الذي بعضه ملح
الحياة ، ويقرب المسافة بين العقل والجنون ، ويحيل ماهو طبيعي
كامد ، يومي ، الى ماهو غير طبيعي ، مشرق ، ملون » « تمنيت
في وحدتي لوتأتين يوماً الى » .. « ان دروب الحياة ، حتى السهلة
منها ، وعرة اذا قطعها الانسان منفرداً ، « عابر الطريق لا يحق
له ان يدخل بيوت الناس ويستسلم الى الراحة ، قصاراه ان يطلب
جرعة ماء او ينشد فيثاً تحت شجرة ، ثم يمضي ، « انا في مكان
لا أدعوك اليه .. لا تأتي . انا أسبح ضد التيار . »

وقالت في نفسها : « ابن هو اذن حتى لا أستطيع الذهاب
اليه ؟ ودربه ماهي ؟ يسبح ضد التيار ولا يطلب سوى جرعة ماء

او في شجرة ؟ ام بشير قالت انه كاتب ، فهل يطاردونه لأنه يكتب ؟ وماذا يكتب ؟ هل ينقض « الناموس » ؟ وهل انا ، في نظره ، مجدلية جديدة ؟ لقد مضى عهد المجدليات .. انني اريده هنا في سريري ، في حضني ، فلماذا لا يأتي !؟

- ٥ -

بعد ظهر السبت اختتم فياض اسبوعه الأول في المعمل .
عباً المسامير في أكياس الاسمنت ، وحملها الى كتف الوادي ، حيث سيارة النقل تنتظر . كان عليه ، مقابل المسامير التي يحملها في طلوعه الى السيارة ، ان يحمل في نزوله الى المعمل ربطات الأسلاك التي جاءت بها .

وكان أبو روكز ، الذي لبس ثيابه اللائقة كصاحب معمل ، يتحدث خلال ذلك مع السائق ، ويجد ، عند وصول فياض حاملاً المسامير أو انصرافه حاملاً الأسلاك ، من اللزوم توجيه سؤال أو نصيحة اليه ، كما يجد السائق من الضروري إرسال صيحة أو شتيمة ، أو النهوض لمعاونة فياض على وضع الأكياس في السيارة ، أو انزال الربطات منها ، فاعلا ذلك بعصبية لامبرر لها ، تحمل معنى الشطارة أو الاستخفاف ، أكثر مما تحمل الرغبة في المعاونة .

وقال وهو ينفض يديه بعد ان ابتعد فياض :

= من اين هذا الزبون يامعلمي ؟

وأضاف قبل ان تضع الفكرة منه :

- يا حرام على الشباب (وقتل شاربـه) يوم كنت في سنهـ

كنت آكل الدنيا .. اينك ابو رو كز ! شباب اليوم من فـيلون .

- من فـيلون ؟ ا كثر . ولكن اينك (استدر كـسرعه)

المعمل في أسفل الوادي ، والانسان يعجز عن الصعود فارغاً ،
والمسكين يصعد وينزل حاملاً .

- وإيش فيها يامعلمي ؟ شغل والا لا ؟ (قالها وعاد يقتل

شاربه ويضرب على كرشه الصغير) .

- شغل ؟ (تساءل ابو رو كز وقد شاعت في صوته نبرة

هزة) نعم شغل ياـبو سبيع ، ولكن الحرب بالنظارات سهلة ، حاسب
الصعود والنزول شربة ماء ؟ الإنصاف حلو !

- بس تأخرنا . لو كانت الطريق توصل الى المعمل !

- هذه مسألة أخرى ، قل هذا الكلام لحكومتك .. لو

كان بيت نائب او متنفذ ، كانت الطريق وصلت اليه من زمان .

لكن معمل .. من يهتم بالمعامل ياـبو سبيع ؟ .

أجاب السائق وقد أنهى حولة السيارة وإنصرف لإغلاق

بابها الخلفي :

- من يحط ينط يامعلمي . الدنيا (وأشار بيده إشارة

البلع) « شرالوب » وحلال على الشاطر .. عافية على بيضه !

ولما جلس وراء المقود وبجانبه ابو روكز استأنف حديثه
بجاسة أكبر .

— لا تسأل الواحد من أين جئت بالمال ، اسأله : عندك
مال ؟ اليوم لأحد يسأل عن مصدر المال بل عن وجوده .. عندك
حارة^(١) ؟ حلال على بيضك ، ما عندك ؟ لا تسوي بنسة ، الناس تسأل
عن الحارات لا عن مصدر مالها .

— كلامك صحيح يا ابو سبع .

— صحيح وبس (انتفخ وضرب على المقود أمامه) ما سكرنا ،
ولكن شقنا الذين سكروا ! ما عرفنا حارات في رأس بيروت
وشارع الحمرا والروشة ، ولكن شقنا اصحاب هذه الحارات ! من
أين جاءت أموالها ؟ « شرالوب » وحياتك « شرالوب » .. ولا
داعي للسؤال ، حلال على الشاطر ، عافية على بيضه ؛ عافية ..
(وأدار المقود بحركة مفاجئة أجفلت أبا روكز ؛ بينما أطل هو من
النافذة وبصق شاماً ابن الكيت والكيت ؛ ثم أدار المقود بحركات
لولبية متتابعة ؛ وإنساب بين السيارات الذاهبة والآية ، وهو لا يفتأ
يمد رأسه خارج سيارته ويشتم ؛ حتى خشي المغبة ابو روكز
وصاح به :)

— إيش صاير عليك يا ابو سبع ؟ على مهلك . !

(١) الحارة عند اللبنانيين هي البناية الكبيرة بعدة طوابق .

- على مهلي ؟ (وضحك) هذا ، بيك آب ، يامعلمي .

- « بيك آب ، وتسرع بهذا الشكل ؟ »

- وتسميها سرعة ؟ (قالها وخطف المقود الى اليمين ؛ ثم

كربه الى اليسار ليتجنب عربة يد على مقربة من الرصيف ؛ وأضاف :)

هذه سرعة ؟ كنت مرة في عرس أوادم بقرنايل ؛ وأنت عارف

الطريق ؛ ضيق وخطر ؛ والحواجات في سياراتنا ونحن نسير بالصف ..

طلعت روحي .. « دوبلت » على عشر سيارات وحياتك ! . نشرت

عرض السواقين الذين أمامي ؛ طلعت عليهم وسجبت .. حزرك ؟

بسرعة ١٢٠ كيلو وشرف أبو رو كز ؛ وصلت قرنايل والموكب

بعيد كيلو متر عنها .

- عفريت .. كل همك تدخل ضيعة العروس قبل موكب

العريس .

- باليت ! أصول العرس ان تدخل السيارات وراء بعضها ..

لذلك انتظرت الموكب على باب الضيعة .. نوفزت .. رحت أنشر

عرض السواقين من جديد .

- عال ؛ تنشر عرضهم إذا سبقوك ؛ وتنشر عرضهم إذا

تأخروا عنك ؛ وتريد طريق قرنايل ميدان طراد .. ليش هذا

الجنون ؟

- شطارة !

- هياي !

- أي نعم شطارة ؛ وعادة ؛ ولكن عن اذنك ؛ حاسبني
وحدي بهذا الشكل ؟ لا وحياتك ؛ كل سواقى لبنان مثلي .

- يا حرام على لبنان .. كان منتزه وصار كراج .. السيارة
بظهر السيارة ؛ والسواقون بجانبين ؛ يا حفيظ ..

- قل ياساتر .. عوادم السير لا تقطع ؛ ولكن السائق
اللبناني عديم الاخ ؛ ينسل بين السيارات مثل الأفعى بين الأشجار ،
صحيح وإلا لا ؟

- صحيح . (قالها ابو روكز بضجر ؛ ثم أرسل هذا
التحذير) إنتبه ! تمهل حتى تمر السيارة القادمة .

كان « البيك آب » قد دخل طريقاً فرعياً ؛ محفوراً لإصلاح
المجاري ؛ ولا يمكن المرور فيه إلا لسيارة واحدة ؛ وقد بدت في
الطريق الآخر منه ؛ سيارة تكسي أخذت تزمزح بحذرة . وقال أبو
سبع :

- الطريق لي يا أبو روكز .

- ولكن التاكسي وصل الى منتصفها ..

- وإيش علي منه ؟ مثلاً دخل يرجع (ومد رأسه من

نافذة السيارة وصاح بالسائق الآخر :) ولك إيش ؟ ضاربك

العمى ؟ .

فأخرج سائق التاكسي رأسه من نافذة سيارته وأجاب ؟ :

— انا (لفظها : اني) ضاربني العمى والا انت ؟

— لك العكروت !

قالها ابو سبع وهم بفتح الباب ، فامسك به ابو روكز .
رد السائق الآخر :

— من العكروت ولك ؟ (وهم بالنزول بدوره ، فامسك به الركاب) .

— انت العكروت ولك (اجاب ابو سبع ، والتفت الى
ابي روكز قائلاً :) اتركني اسطبه . (١)

قال ابو روكز وقد امسكه جيداً :

— جننت ؟ اتركه يمر .. العمى ، عندك اولاد .

— لا يهم ، لازم يتشطب حتى يتربى (واخرج رأسه من
النافذة مرة اخرى وارسل هذا الانذار) :

— ولك ترجع والا لا ؟

كانت سيارة التاكسي قد وصلت اليه ، فنزل منها السائق
وصاح :

— لا ، ماراح ارجع .. اذا كنت رجلاً شرف لعندي .

وفي اللحظة التي توقع فيها ابو روكز ان ينتثر ابو سبع منه

(١) اضربه بالسكين .

ويهم على خصمه ، وقد اغمض هو عينيه نصف اغماضة لكي لا يرى
الدم ، صاح ابو سبيع وقد فتح باب « اليك آب » :

— ولك انت ؟ زوزو !؟ يحرق دينك ! ظننتك غريب ! .
طيب اعط اشارة ... (واستمر في الكلام وهو يتراجع بسيارته
مفسحاً الطريق للتاكسي الذي قال سائقه ساخراً :

— اي انت تركت المجال للاشارة ؟ تنفتشت مثل الديك ! .
قطعت الطريق ورحلت تتعنتر !! آخذ شحطة ؟

قالها وهو يمر به ، ولما تجاوزه صاح :

— سلم على معلمك !

— تسلم زوزو .. رح .. موفق (وملتفتاً الى ابي روكز)

زوزو من جماعة فرعون !

— وانت ؟!

— من جماعة الحاج ..

وبعد ان خرج ابو سبيع من الزقاق ، سأله بدوره :

— وانت يامعلمي ! .. من جماعة من ؟

فاغمض ابو روكز عينيه وقال :

— من جماعة الله !

في هذا الوقت ، كان فياض ينقل ما تبقى من رباطات الاسلاك التي حملتها السيارة . خطر له ، وهو ينظر الى قاع الوادي ، ان يدحرجها فتذهب لتسقر حيث تشاء . تملكه روح العبث . وكان قميناً ، لولا عيون المارة ، ان يتوجه الى بيروت ويمد لها لسانه . وليس في ذلك ما ينتقص من قدر بيروت عنده ، فهو يسميها « رثة البلاد العربية » . ويعجب لها عجباً لا ينقضي . لكنه ، لسبب ما ، كان يحس انه ضائع فيها ، ولن يجد ابداً سبيلاً الى العيش .

وها هو قد وجد .

المصاعب ليست جدراناً من فولاذ ، وحتى لو كانت يمكن ثقبها بطريقة ما ، وقد ثقب جدار مصاعبه ، ولا بأس عليه اذا استشعر ، في ختام الاسبوع ، ان ما كان يتصوره قاسياً قد صار لنا .

اشعل وابور الكاز ، وصنع فنجاناً من القهوة . وكان اطيب فجان منذ زمن . ورفع على النار تنكة الماء لكي يغسل رأسه ويديه ، ثم فكر ان يغتسل كله ، وكان الحمام ، الذي اشار اليه سر كيس ، هو المرحاض ، وعليه اذا اراد الاغتسال ، ان يفعل ذلك هناك . وقد تذكر بقوله سر كيس « قهيدلنا » وضعك ،

فالاغتسال في المرحاض بهدلة من غير شك ، ولكنه خير من
الوساخة .

وبعد الحمام اعد كوباً من الشاي ، وجلس يرتشفه على مهل ،
مفكراً بالكتابة التي انقطع عنها منذ مدة . كذلك فكر بوجوب
استئناف صلاته ببعض الاصدقاء ، فهو في هذا الحجر اللعين ، اشبه
بالمقطوع عن العالم ، ولولا اخبار ابي روكز وجريدته التي يتركها
احياناً في المعمل لما عرف من اخبار العالم شيئاً .

فتح حقيبته ليخرج أوراقه فهبث عليه منها رائحة التذكارات
الجميلة . سقطت من كنزة صوفية زجاجة عطر صغيرة . ابنة عمه
حبكت له هذه الكنزة وارسلتها له من الوطن . ولم يفتحها لأنـه
لم يكن بحاجة الى أناقة . كان يعرف ان في حقيبته « كنزة » ولم
يتصور ان فيها زجاجة عطر ومن النوع الذي يفضل .. رؤية هذه
الزجاجة بعثت فيه تأثراً حنوناً فقال في نفسه : « اذن لم ينسوني الذين
هناك ؟ وماذا تقول أمي ؟ لقد ابلغتها انني في بيروت ، فهل منعوها
من المجيء إلي ؟ ظني انهم منعوها ، وانها تحت المراقبة .. أمي تحت
المراقبة !.. وفي الليلة التي فارقتني قالت : من يدري متى نلتقي ؟
وقلت ان نفترق يا أماه ، فنظرت إلي ولم تقل شيئاً . كانت تعلم ان
العاصفة مقبلة . وكطير النورس احس بها قلبها ، ولكنها لم تقل
شيئاً . أمي منذ زمن لا تقول شيئاً ، لعلها يشمت مني ، ولعلها يشمت
من واقعها ، وسمعتها مرة تتشكى : « حالتنا لا تطاق ! » وفي الحلي

تتصدى لمن يتكلم عنا بسوء. قالت لهم: لأجلكم يضحي ابني والآخرون، فقال واحد منهم: «لأجل نفسه!» وعندئذ بكّت، وقالت لي: «تصور! انهم لا يجدون ما يأكلون، ومع ذلك..» فقلت لها: لا تقسي عليهم، «انهم لا يعلمون ماذا يفعلون، فنفرت ورددت: «نعم، نعم، هذا صحيح..» واذ كانت تكتشف تحولاً في الناس تبتهج وتقول: «أتعرف فلاناً، أو ابن فلان، هذا منكم، وهذا منكم، وفلان وعائلته، فأمر لسرورها وأقول: اليوم هؤلاء وغداً غيرهم، وفي المستقبل الكل» فتسألني: «وحين يصير الكل معكم: يتحقق الشيء الذي تعملون له؟ تتزوج وتعيش مطمئناً وينتهي هذا العذاب؟ أرى لك أطفالاً كما لاخواتك؟» وأقول: ينهي عذاب الجميع، ولكن هذا لا علاقة له بالزواج والأطفال، الزواج ممكن في كل وقت، والأطفال كذلك «ولماذا لا تتزوج إذن؟» لأنني لم أحب بعد! «ومتى تحب؟»: والذي أحب عني وعنه. وتضرب على صدرها: «لا تذكرني بذلك، والدك لم يحب، أفعاله ليست حبا، دناءة.. تزوج يا بني.. دعني أرى لك أطفالاً..»

وكاد يحقق أميتها لو لم تتبدل الحال، لو بقي في الوطن. الآن أصبح كل شيء من الماضي. وحتى لو عاد فقد لا يتزوج تلك الفتاة. وابنة عمه التي اشتغلت كنزة الصوف، ودست فيها زجاجة العطر، هل كانت تفكر به أيضاً؟ حين كان معلماً تلقى منها رسالة.. تجاهل آنذاك ما وراءها. انه لم يفكر بها الا قليلا..

وها هي الكتزة وزجاجة العطر ، وها هو يكتشف بعض معاني رسالتها ، وتراها كانت تحبني ؟ ولماذا اكتشف ذلك متأخراً ؟ ولم من الأشياء يكتشفها الانسان متأخراً ؟ ،

لو عاد مرة لشد على يديها وشكرها بكلمات من القلب . سيكون قادراً على محبتها أكثر . أشياء كثيرة سيحبها أكثر . البيت ، والحديقة ، والقطعة العجوز ، والحلي والشوارع والناس . سيصغي الى حكايات والده ، ويشم رائحة السرير النظيف ، ويقبل عنق والدته المغضن ، ويذهب الى تلك المرأة .. ويطلب من أمه اصنافاً من أكلها اللذيذ ، ويذهب معها الى زيارة كل الأقرباء ، سيمكث الى جوارها أياماً طويلاً ... نعم أياماً طويلاً .

تصاعدت عواطفه وأشواقه حتى نسي السبب في فتحه الحقيبة . كل ما فيها كان يذكره ، على نحو ما ، بشيء من وطنه : القميص بيّاعه ، والبدلة بنجياطها ، والحذاء بصانعه ، والمناديل بالأيدي التي اشتغلها ، وكيس الحمام بوالدته ، وربطات العنق بأصدقائه ..

واستغرقه التذكر فلم ينتبه الا والليل قد هبط في الخارج ، وفي ذاته انشال امي رقيق ، وابكي يستعيد بهجته ، خرج الى الرابية ، يجلسه في الأمسيات . كان الوادي تحته رصاصي الحضرة ، ودروب كثيرة ، رئيسية وفرعية ، معلقة بين القاع وقمم الجبال ، تظهر جليلة على خريطة الطبيعة كأنها أسلاك من نور وهاج تمتد وتتعرج وتتقاطع

وتزحف صعوداً ونزولاً كما في اعلان بانورامي كبير مضاء بالنيون .
وفي نقطة عالية ، عالية جداً ، تسطع كوكبة من أنوار ، كأنها
تجمع منارات . . كان يعرف ان هذه «بكركي» ، ولا يدري لماذا خيل
اليه ، انها بارتفاعها هذا ، تشكل المنبر الارضي الأكثر ارتفاعاً في
العالم ، وان الواقف عليها لا يحتاج الى رفع الصوت ، ففي مقدوره
أن يطال السماء بذراعيه ، ويضع فمه على أذنهما ليفضي اليها بكل
أسرار الأرض كما قال جوزيف .

ومع هبوط الليل ، وامتداد جبال مصابيح السيارات ، بدا
قاع الوادي المؤلف من سن الفيل وما جاورها ، اوسع مما هو في
الحقيقة وأبهى ، وما أن تصاعدت منه ومن الأديرة المتناثرة على هضابه
وخواصره ، أصوات الأجراس ، في عشية الأحد ، حتى غمر الدنيا
خشوع وانهار .

رغب الليلة في زجاجة بيرة . لو قبض أجره لاشتراها وشربها
على كتف الوادي . . ليس له من يشرب نخبه ، فليكن نخب الحياة
التي يكافح متاعبها .

حاجة أخرى رغب فيها الليلة : أن يذهب الى ما وراء البرج
ليأكل « الخبز الناشف » ، لكنه قنع ، بعد أن عاد الى غرفته ، بالتفكير
الرغبي ، وراح يحلم ، في يقظته ، بسرير عريض ، وثير ، وجسد
ابيض ممتلئ ، وكلمات هامسة لا يسمعها سواه .

كان يرى الحلم ضرورة ويسمح لنفسه أن تحلم أحياناً ، بل يحثها على أن تفعل ، وأن تفعل ذلك على هواها ، وبسميه تعويضاً . ولقد تساءل ، وهو في حالة الموقنة ، عن قوة احتمال الذين في مثل حاله بصورة دائمة : « أي صبر !؟ أي غناء نفسي !؟ أي تكرات ذات !؟ » ، انه يفهم الحرمان مفروضاً ، أما ان يكون اختيارياً ، وطويلاً ، فهذا يحتاج الى سمور فيع ، الى رياضة روحية تجعل المناضلين والقديسين في مرتبة واحدة ، بل ان القديسين لا يجدون من العسر ما يجد المناضلون ، ولا يفتقدون حتى خصلة الشمس كما يفتقدها هؤلاء .

حسبه إذن أن يكون حوارياً .. ان يتقبل هذا الحرمان بالصبر لا بالرضى ، وبالارادة المدفوعة باليقين ، لا بالعفوية . وحين يكون في وسعه أن يدفع الحرمان ، ولو بشكل متقطع ، فلن يتوانى : وبانتظار ذلك لا بأس بالأحلام ، وحتى بالداعرة منها ، على ألا يكون فيها شطط ، ولا تحجب عنه طهر الوجه الذي أطل عليه يوماً من النافذة .

الوجه ذاك ، مازال ماثلاً في خاطره وسيبقى .. عجباً للعب ! كيف يستحيل صلاة داخلية على اسم الغائب ، وعجباً لها كيف احبته وهو في هذا الوضع ... « ولكن هل تعلم انني في هذا الوضع ؟ » ان ذلك يحتاج الى جواب واضح ، كما يحتاج الى جواب

واضع وحاسم السؤال الذي يطرحه نفسه عليه بالحاح : وهل الذين في مثل وضعه يحبون ؟ ،

في بيت أبي خليل أصدر حكمه الأول : علي ألا احب ..
وفي بيت جوزيف استأنف قلبه الحكيم ، وكاد يربح الدعوى لولا
انه ذهب ليعمل في البناء فوجد مائة مبررات كافية لرد الاستئناف ،
وهاهو ، بعد نجاحه في تجربة التحدي ، يستشعر في قلبه تمييزاً
جديداً ، غير ان التمييز اضحى بدون موضوع .. فقد ألغى ، في
رسالته اليها ، الدعوى كلها ، اصبحت دينيز ، كغيرها ، طيفاً
وذكرى !

سمع وقع خطوات في الخارج . كان ابو روكز قد عاد ،
حاملأ اليه اجرتة . وقد سأله فوراً :

- مارأيك بزيارة لضيعتنا بزممار ؟
- ممنون .. في المستقبل إن شاء الله .
- اذن نذهب غداً الأحد نقدر .
- غداً انا مشغول !

- وايش شغلك ؟ قالوا للحلوة من متى انت في القصر ، اجابت
من البارحة العصر .. وانت ماسخنت بعد في الحظي ، صار لك
معارف ومشغوليات .. ام هذا الحمار لعب بعقلك ؟
- معاذ الله .

- انتبه .. لا تقل على وجهي لحسة لبن .. حط رأسك في
الشغل ، و اسمع نصيحة اكبر منك ، القداس ضروري .
- ضروري ، ولكني مشغول .

- أجل شغلك ليوم ثاني .. المداومة على القداس تفتح
الرزق وترضي الله والناس .. كيف ستعمل إذن في السانتوس ؟
تقول لابن عمك ، إذا دعاك الى القداس ، أنا مشغول ؟ يا حبيبي ،
يقول عنك : كافر ! لا ، لا تتعلم الكسل والعادات السيئة ، جهز
حالك للقداس ، وبعده نطلع الى الضيعة فنحضر سيامة ابن ابو
شهادة شمانا .

« يا أبو رو كز ! يا أبو رو كز ! يا معلمي ! يا جاري الطيب !
أنا لا أستطيع الظهور في الأماكن العامة ، ولأن أذهب الى
« السانتوس » كما زعمت لك ، ولا يوجد ابن عم لي هناك ، أنا مختبئ
عندك ، واسمي فياض لا سليمان ، ومهنتي مدرس لا عامل بناء ،
وليس بإمكانني أن أذهب الى الكنيسة أو الضيعة ، ولا أن انزل
الى البرج .. فكيف غاب عنك كل هذا ؟ وكيف اخترعت أنا هذا
المقدار من الأكاذيب ؟ ما كنت أريد أن أكذب ، صدقني لم
أكذب ، ولا أحب الكذب ، ولكنك تسألني ، وتلع في السؤال ،
وتعذبني ، وتعقد وضعي ، فلماذا لا تدعني وشأني ؟ ،
كرر أبو رو كز سؤاله :

– اي ، مارأيك ؟

– لدي شغل .

– انت حر (اجابه بجفاء) لولا اجرتك ماجئت . .

الا تريد اجرتك ؟

– كيف لا ؟

– تعشيت ؟

– نعم . .

– ليه الاحد لايتعشون بسرعة . . يشربون كأساً

مع الطعام ، الاوادم يشربون كأساً مع الطعام . . فتعال نشرب قليلا
ونأكل من الموجود .

– قلت لك اكلت .

فبدا الضيق على ابي روكز وقال بحسم :

– ولك ابني .. الانف العالي حلو في بعض الاوقات لافي

كلها . . رجعت من السوق بسرعة . . اشتريت العرق والمساءة
وقعدت انتظرك ، وبعذك تتبغدد علي ؟

– العفو . .

– بلاها ! اتركني من الديبلوماسية . . خذ حسابك وتعال

بسرعة . . لك عندي بشارة . . بشارة كبيرة ياسليمان ، لا تقال الا
مع الكأس . . الحقني . .

على المائدة ، كانت حال ابي رو كز كحال رجل ينتظر
ان تدب الحمرة في المرأة التي معه كي يشرع بمد يده اليها .. انه يرغب ،
ويرقب ، وينتظر ، ويصبح هو ، لا المرأة ، عرضة للانفعالات قبل
ان يرى البادرة المرتجاة ، وقد تتأخر ، وقد لا تصدر ابدا ، وعندئذ
يبدو عليه الضيق ، ويضطر الى تذوق طبعته قبل ان تنضج .

ابو رو كز ينتظر ان يسأله فياض عن البشارة . . وهذا
لا يريد ان يقفز الحواجز كلها ، حتى لا تزداد مداخلات ابي رو كز
واسئلته ، ولهذا يتصرف بحذر ، حريصاً على ابقاء شعرة العلاقة
الرسمية . وحذره أفسد الجو ، فاضطر ابو رو كز الى الكلام بدون
ان يسأله . قال له بصورة مفاجئة :

- مارأيك في السفر الى كارا كاس ؟

- كارا كاس ؟

- نعم ، الى فنزويلا .. بلاد البترول والذهب .

- ومن لك فيها ؟ هل تعرف احداً هناك (قالها فياض بشيء

من تلهف ، فاندفع ابو رو كز موضعاً ومعاتباً :)

- ولك ياسليمان ! حاسب معلمك من صيعة صغيرة ؟ لك

حق .. » العود في ارضه نوع من الخطب ، ونحن في ارضنا خشب ..

لو تغربنا لاختلف الامر .. (وبعد وقفة) ابو رو كز ، ياسليمان ،

له معرفة بواحد درويش في كارا كاس . . وهذا الدرويش وزير
داخلية فتزويلا ، كأمك !

بدا على فياض ، عفويًا ، انه غير مصدق . . وحين دق
كأسه بكأس ابي رو كز ، تساؤل في ذات نفسه : «معقول !؟» وهذا
التساؤل بالضبط ، هو ما كان ابو رو كز ينشده ، وربما دون وعي ، من
وراء اصطناع المفاجأة . لو كان الأمر معقولاً لما كانت هناك خطورة ،
ولسكان هو ، ابو رو كز ، انساناً كسائر الناس ؛ يعرف شخصاً في
المهجر ، ولانعدمت القيمة التي يعطيها لنفسه من وراء هذه العلاقة .

مخترع ، وصاحب معمل ، وذو علاقة بوزير داخلية فتزويلا . .
انها اسباب تجعل المرء ، وخاصة اذا كان في حرب مع الصحة
والزمن ، يمارس لذة الحضور والتفوق ، ويجد متعة في ان يلقى من
يمارس شعوره هذا عليه . .

وفيا هو يسكب بعضاً من العرق ، ومضت في عينيهِ
النماعة شوق عابرة ، رفت على وجه « مرين » البدينة الجالسة قبالة ،
ولم تلبث ان انزلت من كتفها الضخمتين ، وصدرها البرجي ، الى
فخذيهما المنتفختين كركيزتي جسر ، وارتدت خائبة فانطفأت . .
لاشيء من هذه الناحية يتكافأ مع سرور الليلة . قد يعانق
كيس اللحم هذا ليلاً ، ولكنه سيفعل ذلك بقرف ، لان صاحبه
عاطلة عن حلاوة الروح والجسد .

« لا تفكير الآن في هذا . . ومادام سليمان موجوداً ،
تتعاكس على وجهه ردود المفاجأة ، فاستمتع يا ابا روكز بذلك ،
وابلغ عاملك ، ومستأجر وكرك الكهفي ، والشخص الاكثر
قابلية للفهم في مملكتك الجاهلة ، النبأ السعيد الوارد من كارا كاس .
- وصلت برقية من اختي اليوم ! .

ولما لم يجد تطوراً في دهشة فياض اردف :

- اختي ام وزير داخلية فنزويلا .

- هكذا ؟

- اي نعم . . ابنها من الحزب الابيض ، وله مكانة كبيرة ،
ونفوذ في التجارة والسياسة .

- وكيف صار ذلك ؟

- لا تسألني . . من جد وجد . . من اربعين سنة تزوجت
اختي وهاجرت . . هل قرأت « المجاني » ؟ وردت فيها هذه الحكمة :
« تغرب ففي الغربة سبع فوائد » ، واختي تغربت فحصلت
على الفوائد السبع . . اما نحن فكما ترى . . الخلاصة ، اختي هذه
التي لم ارها منذ اربعين سنة واصلة بعد غد ، فهل تعرف ماذا يعني
وصولها ؟

- الاخت حلوة !

- على رأسي ، ولكنني اتحدث الآن كصاحب اعمال ،

كأمك !

لاحظ فياض ان معلمه لا يشرب ، وهذه الـ « كأسك »
علامة تعجب في ختام جملة مهمة ، والتشديد على كلمة « صاحب
اعمال » يشكل تعويضاً حسناً لمريض القلب هذا .
انزلق « كيس اللحم » عن المقعد . وتدهرجت « مريم »
نحو غرفة النوم في حركة تفصح عن لامبالاة بالنار التي تلهب زوجها ..
وقد تكون ، في هذه اللحظة بالذات ، ماء غير مقدس يلقي عليها ،
وهذا ما جعل الزوج يسأل بمتعضاً :

- الى أين يا مريم ؟

- نعيانة !

- هم .. (وبعد ان ذهبت التفت الى فياض سائلاً :) هل

توي ان تتزوج ؟

- لا .

- لماذا ؟

- لم افكر بذلك بعد .. لن اتزوج الآن .

- لا تتزوج ابداً .. كذب الذي قال : « وراء كل عظيم

امرأة ! » المهم .. مصير المعمل متوقف على وصول اختي ، فاما كل

شيء واما لاشيء .

- ان شاء الله كل شيء .

- هذا متوقف عليك .

- علي انا ؟!

- نعم ، اذا اظهرت المعمل بالشكل اللائق ، ضمنا مشاركة
الرأسمال الفوزيللي !

- لم افهم المقصود ..

- هياي ! ولك ياسليمان ، اللبيب بالاشارة يفهم ، لاتجعلني
احطك في صف سر كيس ومرين .. كلمة المعمل واضحة .. حين
نقول المعمل ، نقول الآلة .. الآلة هي كل المعمل ، بكل ما فيه
حتى انت ، أنت الذي تشتغل عليها صرت جزءاً منها ، فاذا توقفت توقفت ،
صحيح والا لا ؟

- صحيح .

- اذن يجب الا تتوقف الآلة ، وخاصة عند زيارة اختي
للمعمل ، فهمت ؟ شحتم الماكينة ، زيتها ، شد البراغي ، افعل كل
شيء ، احصر انتباهك كله حتى نضمن موافقتها ... البرقية تفيد انها
تصل الاثنين ، وطبعاً ما راح تزور المعمل في اليوم التالي ، ولكن
زيارة المعمل مقررة في البرنامج ... وبينني وبينها مراسلات بهذا
الشأن .. اذا كنت لا تذهب معي غداً فاسترح ، ويوم الاثنين ،
شوفني شطارتك .. اما انا فمضطر للتغيب غداً ، سأحضر سيامة
ابن بو شحادة شماساً .. وربنا يقبل ، ويتم على خير ، ويبض
الزرزور وجهنا .

قالها وتنهد كمن يحمل همّاً من جراء ذلك .. وكان واضحاً
ان موضوع ابن بو شحادة يشغله منذ ايام ، لا لان ابو شحادة جاره

فقط ، بل لانه ابن ضيعته كذلك ، وحين يسام واحد من ابناءها
كاهناً او شماساً ، فالشرف ، في حساب الوجاهة ، يعود الى أهل
الضيعة جميعاً .

وكان ابو شادة قد جاء اليه يستشيرهُ عدة مرات . وفيما
يبدو ، لم يكن في الاحتفال ما يشغل ابو روكز سوى قضية
الزجل فبعد سيامة الشماس تقام مأدبة في الضيعة تحضرها وفود
القرى المجاورة مع قوالها^(١) لتهنئة الشماس والاشادة بأسرته وقريته
وضيافته ، وبكل المكارم ، الموجودة وغير الموجودة ، التي يرددها
القوالون ، بسبب من العادة أو الخمرة أو الأريحية الطارئة ، الى
القرية وأهلها ، وعلى هؤلاء ان يردوا التحية بأحسن منها ، ومن هنا
أهمية دور قوال الضيعة ، وقد اوصى ابو روكز جاره قدام فياض :
— لا تنس الزرزور^(٢)

قال ابو شحادة وهو يقتل شاربهُ ويعقفه الى أعلى :

— عندنا زرازير !

فصاح به مغضباً :

— بلا تجليط^(٣) . . . عندنا زرزور واحد وبلا جناح . .

(١) القوال : الزجال .

(٢) اعتاد اللبنانيون ان يلقبوا زجالهم باسماء الطيور فيقولون :

شحرور ، أو حسون ، أو زرزور الخ ..

(٣) التجليط : التضخيم والتبجح .

ولكن ايش في اليد؟ شيء احسن من لا شيء، اسقوه بمقدار حتى لا يسكر وينعقد لسانه، واياكم والحماس الزائد، ردّية^(١) بردية، وبدون قدح اذا صار تعريض، وبدون رصاص وقتلي، اتركوا الضيعة بسلام هذه المرة احتراماً للمناسبة.

— والجرس وجرن الكبة^(٢) يا معلمي؟ سأل ابو شحادة.

— هذه مضمونة يا ابو شحادة. (وبعد وقفة) ايش صار؟

خلت الضيعة من الرجال؟

كانت رجولة رجال الضيعة لا يتطرق اليها الشك في نظر ابو روكز، بخلاف قضية الزجل، وقد سأل فياض الآن من قبل الاطمئنان:

— برأيك الزر زور يبيض الوجه؟

قال فياض:

— بدون شك.

فهز ابو روكز رأسه وأجاب:

— والله أنا عندي شك، يدي على قلبي يا سليمان.

(١) الجواب في الزجل.

(٢) دق جرس الكنيسة ورفع جرن الكبة، ألعاب قوى في

قرى لبنان.

طلع النهار التالي ضاحكاً ملء شذقيه ، وكانت الشمس حارة الى درجة اضطر معها سر كيس الى زحزحة طاولته من الشمس الى الفناء . بدا مهنداً اليوم ، حليقاً ونظيفاً كما لم يره فياض طوال الاسبوع . وامام الطاولة التي وضع عليها زجاجة عرق وبعض صحاف المازة ، جلس على كرسي جلسة زهو مشروع ، مواجهاً نافذة الجيران ، وفرد منديه على ركبته ، وركز « الدربكة » عليها ، وانطلق يضرب ويتغنى بما حضره من ألحان . . . افتتح حفلة بأغنيات خفيفة لصباح ، وحين أتى دور أغنية « ع العصفورية » دفعه لحنها المازج الى مضاعفة قوة الضرب ، فأطل عليه ابو روكز من الشرفة وقال بلهجته الساخرة :

— حلو يا سر كيس ، حلو !

قال سر كيس :

— تفضل معلمي شار كنا .

— عشت . . . نترك حلو وصوتك أحلى .

— ماشي الحال .

— الحال ماشي معك ، ولكن مع الجيران يا سر كيس ؟

الناس تصلي وانت . . .

— وأنا أصلي يا معلمي !

— هكذا ! ؟ صلاتك مقبولة اذن •

— من فمك لأبواب السماء ..

— او لشباك الجيران .. موفق !

استغل سر كيس وقفته الاضطرابية هذه لتصفية كأسه
واملائها من جديد • كان عليه ، فعل الحياوي الحائب ، ان يغير
الصفير ، فانتقل بغناؤه الى الارمني ، ثم الى التركي ، ومع ذلك لم
يطل رأس افعاه من وكرها ، فقد رانها غائبة ، واعطى لنفسه
اجازة ونهض يدعو جاره فياض الى مشاركته في الوليمة الصغيرة ..
وكان فياض يود ، لولا تلفت الرائحين والغادين الى سر كيس
وغناؤه ، ان يشاركه الفرحة .. ولم يلح سر كيس عليه ، فهو يريد
مشاركاً فعلياً ، يغني معه ، ويصفق على ايقاعه ، وقد يكون
التصفيق ، الذي يغطي ضعف الايقاع ، هو المطلوب من الدعوة ،
وليس فياض بالشخص المرجو لهذه المشاركة ، لانه ، كما قال
سر كيس : « جرد لا يخرج من وكره » وعلى هذا كان الاعتماد على
النفس كل ما بقي ، فعاد الى دربكته ، وارتفع صوته بأغنية شائعة ،
مطلعها « طلي من الطاقة » وكان ، بسبب من لكنته الارمنية ،
يلفظها « طاكة » ويستعيز ، عند جهله أو نسيانه الكلمات ، بالنغم
يتمم به ليضمن استمرار الأغنية ، أو ليمهد الى انتقال سريع الى
أغنية اخرى على ايقاع واحد هو : دم .. تك .. دم تك ..

وحوالي الظهر اشتد الضرب وعنف ، فأطل فياض من الباب ليرى السبب ، واذا وجه يتسم في النافذة .. لقد خرجت أفعى سر كيس من وكرها اخيراً .. وكان هذا سعيداً ، وعلى استعداد للضرب حتى المساء ، مع المغامرة بمخالفة تعليمات ابي روكز الذي ذهب الآن الى القداس ومنه الى الضيعة ..

كانت الفتاة تبسم بجرأة ، وتتنظر باتجاه فياض ، وقد افصحت حركاتها عن هزة واضحة بـ « ضابط الايقاع » الذي كان مستعداً لأن يفخت الدف في سبيل كلمة ثناء .. وتذكر فياض حق الجيرة ، فانسحب الى الداخل لكي يفسح المجال للنظرة المستقيمة ، المباشرة ، بين سر كيس وجارته .

وطفقت ، من قاع الوادي ، تدوي أصوات النواقيس والاجراس ، وارتفعت من البيوت المجاورة ايقاعات اجرات الكبة ، وظهرت ، في الشوارع والنوافذ ، الاشكال الانيقة والجميلة للفتيات ومسيّدات الحي ، ولم يبق صامتاً ، هذا اليوم ، سوى الآلة في معمل المسامير ، وفياض الذي اصبح ، كما قال ابوروكز ، جزءاً منها .

كان عليه ان يرتضي الواقع ، ويقبّع في غرفته حتى المساء . ولتزجية الوقت ، طفق بذهب ويجيء ، ولا يدري كيف وقع نظره ، عبر الباب الموارب ، على « أفعى » جاره . كانت قد

انتقلت من الغرفة المواجهة لسركيس ، الى الغرفة المواجهة له . .
ولاحظ انها نفس الغرفة التي رأى فيها العجوز يحني قوس الكمان
محياً السماء في وقت السحر ، واستنتج من ذلك انها ابنته ،
والمرجح انها دخلت الغرفة لترتيبها ، برغم ان احداً لا يظهر في
نافذتها سوى العجوز الذي يبدو مجنوناً وعاقلاً في آن . كانت
سركيس منصرفاً الى ضربه وغنائه ، بانتظار الاطلالة الثانية من
« النجمة » التي هو كل جمهورها ، وابورو كز في الضيعة يشارك في
حفلة الشماس ، وفياض يدور في غرفته مسترقاً النظر الى هذا
الوجه الجديد في النافذة الجديدة . كان « الجوع » الآخر يعذبه ،
فلماذا لا ينجس غرائزه ، بالنظر من وراء بابه الموارب الذي
لا يشك مخلوق في انه يقف وراءه ؟

قرر ان يفعل ، وهو يتسم لفكرة خطرت له : ان
يكتب قصة عن « الحب من النوافذ » . . وحين انبطح على سريره ،
في الزاوية المعتمة ، كانت هي تقف وسط الغرفة ، وقد نزع
فستانها ، وبقيت في القميص الحريري الأسود ، المدور الفتحة ، على
طريقة صوفيا لورين في ابراز مرمر الساعدين والظهر .

أحس برعدة في كل جسمه ، وبنجبل من كل نفسه . انه
أمام تجربة مثيرة ومشينة . أغمض عينيه وفكر : « انهض أم
أبقى ؟ ! » ، استشعر العجز عن النهوض ، والعجز عن كبت غرائزه
التي استثارها المشهد فجئت وسيطرت . الرادع العقلي صار في خلفية

وجوده ، يأتيه تحذيره كالصدي ، بينما غدا صوت الجنس نفيراً في أذنيه . كل رجائه تعلق في ذهاب الفتاة ، وكل رجائه انعقد على بقاءها .. ضميره كان يضرع اليها ان تكف عن خلع المزيد من ملابسها ، وحسه كان يستجديها أن تفعل .. ان تنزع ثيابها ، وأنت تنزعها بأناة ، ببطء شديد ، وهي تتشاءب ، وتدور ، وتعلمي جسدها اليافع في المرأة ..

فاتنة كانت .. صرتها بدت له اجمل كأس ، وقياساً على الاطراف العليا : الزندين والكتفين والصدر ، قدر روعة مفاتها ، وتنازعه رغبة جامحة قاتلة في أن يرى بقية جسمها ، ولكنه ، في موضعه ذاك ، كان يرضى بأي شيء ، وحتى برؤية اليد التي ارتفعت الى الرأس تعبث بالشعر ... ثم اختفت اليد ، واختفى الشعر ، واختفت صاحبه ، وتوقف سر كيس عن الضرب والغناء ، اما لأنه مل .. أو لأنه عقد هدنة مؤقتة مع النافذة الفارغة !

- ٩ -

عاد ابورو كز بصورة مفاجئة ..

أطل ، قبل ان يدخل البيت ، على الباحة التحتية ، فوجد سر كيس قد طوى عدته واغلق بابه ، فهو اما نائم او في السيدنا .. وحتى لو كان موجوداً فلا خير فيه ، ولا يمكن ، بأية حال ، ان يتحدث بشيء ، او يقص عليه طرفاً مما جرى .. و«مرين» في الضيعة ،

لم تأت معه ولم تعلم برجوعه ، وهو ، مع وجود المزاج الطبيعي ،
يتعذر عليه النوم ، فكيف ودمه يفور واعصابه تهتز ؟

خلع طربوشه ، وركز عصاه في الزاوية ، وتناول مفتاح
المعمل وهبط ونبدأ ليدرس ، على الطبيعة ، الترتيب اللازم
قبل وصول اخته من فنزويلا .

في الباحة تتخنع متعمداً وعينه على باب فياض .. هو
واثق انه في غرفته . قد يكون نائماً ، وحرام ايقاظه ، وعلى ذلك
انصرف الى وضع برنامج استقبال الاخت المنتظرة ، وتحديد المطالب
كي لا تباغته بالسؤال عن آفاق تكبير المعمل ، والمال اللازم ،
فلا يجد القدرة على الجواب الواضح .

ومن الغرفة المقابلة كان فياض يتابع خطى معلمه ، ليعرف
اذهب ام لا يزال ينتظر .. بدأ يحب هذا العجوز المريض ،
فحياته كلها معلقة بهذه الآلة التي اخترعها .. انها الشيء الوحيد ذو
القيمة في حياته ، ويخيل اليه ، ان كلمة واحدة ، كلمة انكار
أورفض لهذا الاختراع ، كافية لتقضي عليه .. وما عسى ان يكون
رد الفعل في نفسه ، لو كانت شقيقته القادمة من كاراكاس هوجاء
فصارحته بالحقيقة عن معمله واختراعه ، وقالت له انها لايسويان
شيئاً ؟ وما الاثر الذي سيخلفه في تلك النفس المتعلمة بالرجاء
حموت الآلة عن ايقاعها الرتيب ، الايقاع الذي هو ، بالنسبة لأبي روكز ،

نوع من صلاة ، مثل عزف الكمان وضرب الايقاع بالنسبة لجاريه الآخرين ؟

فتح فياض بابه وخرج ليلقى معلمه جالساً في المعمل يدخن ، وقد استبد به غضب ظاهر .. ربما كان تعباً فعزف عن الصعود الى الضيعة ، واكتفى بحضور القداس في بيروت ، وربما اختلف مع زوجه أو لاحظ مالا يرضيه ، ولكن هيئته الكامدة تشير الى وقوع كارثة .. فماذا جرى ؟

شجعه ان في وجه ابي روكز تعبيراً يقول : « اسألني ! »
ولما سألته أجاب :

- واصل من الضيعة رأساً !

- انتهى الاحتفال ؟

- حفلة السيامة انتهت .. اما حفلة الضيعة فلا .. يا حرام !
ضيعتنا تبهذلت يا سليمان .. اما قلت لك يدي على قلبي ؟ الذي خمنته صار .. وهذا الكلب بوشجادة ، سود وجهنا .

- وماذا فعل بوشجادة ؟

قال ابو روكز ساخطاً :

- ماذا فعل ؟ وتساألني ؟ جعل نفسه قوأل الضيعة .. اقسم

انه لم يدع الزرزور .. من زمان يتحين هذه الفرصة .. عادد نفسه من القوالين ، الكلاب !

بعد ذلك قص ابو رو كز ماجرى :

« عقب القداس طلعنا الى الضيعة ، وهناك بدأت التهانى والانشيد ، وقام الشباب بدق الجرس ورفع الجرن . . اولاد الضيعة بيضوا الوجه من هذه الناحية . . زنود ماشاء الله ، وحتى لو فتح باب المصارعة وثني الزند كنت مطمئناً ، ولكن الزجل ! قلت في بالي الله يستريابو رو كز . وسألت عن الزرزور فلم يفدني احد بشيء . . وسألت بوشحادة فقال : « اطمئن ! » . . الكلب قال اطمئن ، وأنا اطمأنت ، وضعت رجلي في ماء بارد ، فلما صار وقت الطعام ، وجلس الضيوف الى الموائد وشربوا كأساً وثانياً وثالثاً ، جاء دور الزجل ، ونهض القوالون فاسمعونا قولاتهم . . شيء حلو . . اكرموا الضيعة . . زينو عنقها ، البسوها قلائد كما يقولون ، ووصل الدور الينا . . نظرت حولي فلم اجد الزرزور . . ثم يظهر له اثر ، وعلى زاوية الطاولة المستطيلة ، من الجهة الاخرى ، رأيت بوشحادة واقفاً . . مطرقاً في الأرض ، وقد « فنجر » ^(١) عينيه الحمراوين ، فحزرت ما يدور بباله ، بل عرفت حيلته كلها : اغفل دعوة الزرزور ليخلو له الجور . . رحلت اشير اليه ، انظر صوبه ، اتنحنج ، فلم يلتفت الي ، تعمد الا يلتفت الي ، وافرغ كأسه كما يفعل القوالون ، ومثلهم رفع اصبعه في الهواء ، وصفق الحضور ، وقلت : ياساتر ! انتظر الجميع . . وتنحنج بوشحادة وقال :

(١) فنجر : فتح عينيه على اتساعها حتى جحظتا ..

طاولات وطاولات ..

فصاح الناس : طيب بو شحادة ! حلو ! .. كانوا يشجعونه ،
يسايرونه باعتباره صاحب الدعوة ، وكانوا ، في سرهم ، يضحكون
عليه ، يضحكون على الضيعة .. جعل الضيعة مضحكة ، الكلب ! ..
سكت ابو روكز اثر خفقان مفاجيء في القلب تقاص له
الوجه ، فسأله فياض :

- اي .. وبعد ذلك ؟

.. بعد ذلك كانت الكارثة .. كرر المطلع :

طاولات وطاولات

وصفق الناس ثانية .. انتظروا .. ولكن قريحة بوشحادة
جفت فلم يستطع إكمال البيت .. اطرق من جديد ، وطال
اطرافه ، واعترتني رجفة .. الملعقة وقعت من يدي ، فلم اقو على
البقاء .. وجدت نفسي انفض وامشي .. ومن طرف الباحنة
سمعته يقول :

طاولات وطاولات ما احلى مد الطاومات !

ياحيبي ! ضحك الحاضرون عليه وعلى طاوماته .. خزاننا
خزاه الله .. انخزت الضيعة ياسليمان .. توارت من الحجل وتواريت
معه .. ركبت اول سيارة صادفتها وقلت للسائق :
- الى بيروت !

اضاع جوزيف الباقي من توازنه طوال الايام التي اعقبت
زيارته لبیت ابي خليل . بلغ اعجابه بخليل وتأثره لحال العائلة حداثاً
كبيراً ، وضاعف اختفاء فياض من ورشة البناء هذا التأثير ، فانفعل
وثار وسخط ، وقال في نفسه : « لا كتبن يومية تمجد الكفاح
بالكلمة والعمل ومجرد الشعور بالظلم ، وتكون ، فيما بعد ، نواة
لمقال انشره في الصحف » . وسار في الشارع وهو يقلب هذه المعاني ،
ويجهز الكلمات ، ويحترق بنار داخلية تطل في نظراته تحدياً يصيح
بالمارة : « ها انا ذا على نفس الطريق ، فاصلبوني ان استطعتم ..
ايها الناس ! نحن لاجلكم نتقبل اسفنجة الحل ، فانهمضوا وادفعوها
عنا ، انهمضوا ، كافحوا حتى الموت او النصر ، سيان الموت او
النصر ، المهم هو الكفاح ، فما بالكم خائفون متبلدون ؟ »

وكان المارة لا يابهون له .. يمضون لشؤونهم كأن شيئاً
جديداً لا يحدث ، ولا يتوقع ان يحدث ، وكأن « العوسجة
الملتبة » لا تحترق في المكان المقدس ، وجوزيف يفكر على هذا
النحو : « لماذا لا يفهم الناس ، دفعة واحدة ، حقهم ويدافعون
عنه » . وقال في نفسه : « هذا خليل ، من ثلاثين سنة وهو يناضل ،
وهذا فياض ، وهذا (وتردد ثم اضاف) انا .. وفي المدينة ، وفي

القرية كثير من امثالنا .. في كل شارع ، في كل حي ، ثم لاشيء ،
لا المظلومون يتحركون ولا الظلم يتزعزع ، فهل علينا ان نصبح
مئة سنة اخرى حتى نزيل الوقر من آذان الناس ؟ ،

تبدت له القوة الخفية المسيطرة ، كابوسا رهيبا تتحرك
المدينة تحت وطأته ، وتراعى له الناس وفي عنق كل منهم انشودة
طرفها في يد غير منظورة .. كل واحد في عنقه انشودة ، حتى هو
وخليل وفياض وام بشير ، وكل واحد يجاهد لقطع انشودته وتحرير
رقبته ، والانشودات تشتد ، وتضغط ، والناس يسرون في الاتجاه
الذي حدده قدر اعور . يسرون ببطء حتى لا تشد الانشودة ولا
تضغط . بعضهم يقاوم ، لا يبالي بشد الانشودة وضغطها . وبعضهم
يستسلم لها ، وصراع غير مرئي ، بين السواعد والانشودات ،
وساحة معركة فيها جثث مخنوقة ، وانشودات فارغة ، ورقاب
تحرزت ، واخرى لا تزال مغلوله ، وناس في الساحة ، وناس على
اطرافها ، بعضهم يبكي ، وبعضهم يثن ، وبعضهم يكشف عورته
او يضحك ، وآخرون يخفون انشوداتهم ، يدورون في اماكنهم ،
وغـيرهم يمزقونها باسنانهم ، وغربان في الجـو ، وديدان على
الارض ، وغبار كثيف يحجب صفحة السماء ، وجوزيف يعيش
اللوحة كرسام تضحج في رأسه الشخصوس والألوان ، ويسرع الى
مكتبه قبل ان تخذ نار الحماسة التي اوقدتها مأساة خليل
وفعلة فياض .

وفي البيت حضر اوراقه واقلامه واغلق الباب دونه وشرع
يكتب .. وبعد ساعات خرج بشعر منكوش ووجه مصفرو غادر
البيت مسرعاً .

* * *

في اليوم التالي ، بعد العمل ، عاود الكرة .. حبس
نفسه ساعات ، واحرق كمية من السيكرات ، وشرب كثيراً في
المساء ، وجمع حوله كدسة من الكتب ، وقلب صفحات من كل
كتاب ، ونام مقهوراً لأنه لم يتوصل الى افراغ أفكاره بالقالب
الأدبي الذي يريد .. « اللوحة الرسم لالكتابة » كذلك قال وهو
ينفض ، والقى بالقلم وصاح : Je préfère la Peinture و اضاف
مؤكداً قناعته Oui je préfère la Peinture ، وفي المساء ،
احتجاجاً على اخفاقه في كتابة اليومية النارية ، اشعل
النار في يومياته كلها ، وقال : « الى الجحيم ، لاجاعة ، بعد ، الى
الكلمات ، لدينا منها ما يكفي ، العمل هو الذي يجدي » . واعترف
وهو يتعذب : « فياض وجد طريقه .. تخلى عن كل شيء في سبيل
ان يكتب .. و خليل قاد اضراباً فاشلاً ، ولكنه سيقود اضرابات
ناجحة ، اما انا ! ؟ ، كان مستعداً ان يموت الآن ، في هذه اللحظة ، ولكن
في هذه اللحظة لا سواها ، ولأنه لا يستطيع ان يفعل ذلك ، فقد
استشعر تعاسة قاتلة ، وبدا ساهماً ، مغضباً ، ساخطاً على الحياة .

ورأته هناء على هذه الصورة فاجفلت ، ولكي تسري عنه
استجمعت شجاعتها وسأله :

- ماذا جرى لك يا جوزيف .. بماذا تفكر ؟

فحدق فيها مستثارا وقال :

- افكر بعبد الحليم !

فابتسمت وقالت :

- لأصدق !

وعندئذ وجد المهرر لكي ينفجر فصاح بها :

- يا بنت « هيك وهيك ! » .. هاتي الانجيل لاحلف !

- ١١ -

تفرغت ام بشير من واجبات العرس ، وعادت تظهر في
الحى بحثا عن صيد جديد .. وهدأت اعصاب جوزيف قليلا ،
وصار يكثر من التردد على بيت ابي خليل ليسأل عن فياض ، وقد
عجب من ان خليل لا يجد في الامر كارثة مثله . قال له : « كنت
اتوقع احد امرين : ان يظل فياض راكداً فينتن ، أو يواجه الواقع
فينقذ نفسه .. استاذ !؟ وما أهمية ذلك ؟ قيمة الانسان في ذاته لا
في لقبه » . فقال جوزيف : « ولكن فياض غير معتاد ! » .
ورد خليل بحسم : « سوف يعتاد ! »

- ٣٠٩ -

لم يقتنع جوزيف بهذا المنطق . حاصر ام بشير بأسئلته دون جدوى ، وكانت هذه لا تعلم اين فياض ، ومع ذلك تتظاهر بأنها تعلم ، وقد كفت عن اثاره أم خليل ، وقدمت دون مباهاة مساعدة متواضعة للعائلة ، وقد عثر خليل ، اكثر من مرة ، على قطع نقدية وعلب سيكارات في جيبه ، وادرك ان أم بشير تفعل ذلك خفية ، وقال والده انها تسلفهم على العرس المقبل ، فأجاب : « خالتي اكرم من ذلك . »

وذهبت أم بشير الى ورشة البناء ، وسألت المعمار والعمال ، وتوصلت الى معرفة ابن يسكن فياض ، وقررت ان تكتم السر ، لكنها في نفس اليوم أفشته لخليل ، فقال هذا : « اياك ان تخبري أحداً . . اذهبي اليه وتفقديه . . اذهبي مساء ، فأنت لا تثيرين شبهة أحد . »

قالت ام بشير : « لكنني لا أفهم . . لماذا هو وليس غيره ؟ لماذا يطاردونه بالذات ؟ ماذا فعل ؟ »

- لم يفعل شيئاً . . الصحافة زعمت ان نشاطاً خارجياً يجري في لبنان ، ولان النشاط لا بد له من قائد ، والقائد لا بد له من اسم ، فقد أوردت اسم فياض . . والشيطان وحده يعلم لماذا أوردت اسم فياض . . المسألة خطأ ، ولكن أين من يصحح الاخطاء ؟ ربما لانه كاتب ، والكاتب له شهرة ، والشهرة تخلق

ضجة .. انهم يريدون احداث ضجة .. هذا كل ما في الأمر ،
فهمت ؟

- وأنت .. ماذا تنوي ان تفعل ؟

- سأسعى لتأمين مكان له .. انا قلق عليه .

- وماذا لأجلك أنت ! ؟

- لا شيء .. سرحوني وانتهى الأمر !

- والعمل ؟

- ابحث عن عمل ..

- والعائلة ؟ . الا ترى اولادك يموتون من الجوع ؟

- أراهم ..

وران صمت ثقيل ، قبل ان يقول خليل بأسى :

- يا خالتي لا تكوني مثل امي .. لا اريد تذكري بالجوع
والاولاد .. أنا ابحت وأتالم ولكني لا اعثر على عمل .. وهذه ليست
المرّة الأولى ولا الأخيرة . الشكوى لا تفيد ، وأصلاً ، لماذا
الشكوى ؟ يموتون ؟ ما اظن ، وحتى لو ماتوا .. فكري أنت ..
لو خاف كل أب على اولاده ، وكل والد على أهله ... لو لم تكن
الاضرابات ، لو لم يتشرذموا .. لو لم يمت الناس ؟ فكري .. كان العامل ،
في الماضي ، يفنى ولا يحصل على تعويض .. كانوا يلاحقونه ، وكان بلا
قانون عمل ، بلا حماية .. وزوجك الذي مات ، ماذا دفع لك صاحب

الشغل بعد موته ؟ يكفي .. لا تذكريني بأولادي ، لن أبكي
لأجلهم مثل النساء ..

قالها منفعلاً ونهض . كان يبدو الضيق عليه من تكرار
الاستطوانة ، ولا يريد تقديم تبرير أو اعتذار لأحد. وامسكت
أم بشير عن الكلام هنية لتتخلص من وقع الكلمات . إنها ليست
ضد خليل ، وكانت تريد فقط أن يتكلم ، أن ينفس عن صدره ،
ولكنه عنيد كنديس ، وجباراً أكثر من اللازم . فياض ليس كذلك .
وجوزيف يأخذ ويعطي ، والارض الواطئة تشرب ماءها وماء
غيرها ، أما خليل فيخلق باب الحديث بسرعة ، الحوري نفسه
يتساهل ويقول : « هذا الزواج غير ممكن » وبعد كلمتين يعير، مكنأً ،
وخليل لا يتساهل ، لا يشكو ، لا يظهر عليه .. ولو جاءه ضيف في
هذه الساعة ، في هذه الساعة بالذات ، لأبتسم له ، وأقنعه أنه بخير ،
وان كل شيء على مايرام ! .

وقالت له وهي تهم بالانصراف :

- لو كنت لا اعرفك لقات انك بلا قلب ..

فتطلع اليها وقال :

- القلب في الصدر لا على الشفاه .. لا تغيري رأيك في ..

ابحني لنساء عن عرس .. متساهل بالامعار .

فتساءلت في نفسها :

- عرس ! ؟ و في مثل هذه الحال ؟

واضافت في شبه تأكيد :

- مئة عرس ايضاً .. أقسم انه يشترك في المظاهرات بنفس

السهولة التي يشترك فيها بالاعراس .. أدمن ابن اخني على العذاب !

- ١٢ -

معمل المسامير درأ عن فياض الشبهات ، فهو يزعم

لأبي روكز انه ينتظر اوراقه التي سيرسلها ابن عمه من البرازيل .

وحين يغيب للتمويه يدعي انه كان في البرج او رأس بيروت

أو الدورة ، ولم يكن ، في الحقيقة ، يغادر « كرم الزيتون » ..

والخطر الوحيد كان من جانب سر كيس ، فيما لو تطفل عليه

بالاسئلة والسهرات ، ومن حسن حظه ان هذا كان مشغولاً

بـ « أفعاه » .

وحين قُرع باب هذا المساء اجفل ... أخفى أوراقه ،

وشد أعصابه حتى لا يبدو عليه أي ارتباك . وفي اللحظة التي انشق

فيها الباب سمع هذه الصيحة :

... ارفع يديك !

وارتعش وتراجع ، ولكنه لم يلبث ان هتف فرحاً

ومدهوماً :

- انت !؟

كانت هذه ام بشير ، وقد اجابت ضاحكة :

- ومن كنت تظن ؟

- اي شخص الا انت .

- ولماذا ؟

- لانك لاتعرفين مكاني (ودارى امتعاضه وتابع :)

كنت أنوي الاتصال بك ، وها انت سبقت .. اهلاً ..

- ومن قال انني لاأعرف مكانك ؟ لقد حرصت على عدم

الحضور ، وعلى عدم اخبار أحد ، ومن اجلك تحملت الكثير ..

ابوخليل يعتبرني مسؤولة عن اختفائك ، وشريكة فيه ، وخليل

يلع علي لأبحث عنك ، وجوزيف كذلك . مجانين ! أم بشير طفلة !

لا .. اطمئن .. خبرني عنك . هنا تعيش !؟

- كما ترين .

- هنا تمام ! ؟

قالتها وخفقت براحتها على خديها ، واجالت بصرها في

الغرفة العارية ، وقالت :

- وتقتضي كل وقتك فيها ؟

- لا ، أقضيه في الطابق العلوي .. هذه غرفة الخادم !

قالها وضحك وهو يقدم اليها الكرسي الوحيد عنده ، ويجلس قبالتها على

طرف الحوان .

- وماذا تشتغل ؟

- في معمل المسامير .

— محاسب ؟

— عندنا لا توجد محاسبة .

— مراقب ؟

— ولا مراقبة .

— عامل اذن ؟

— نعم (وبسط لها كفيه الحشتين) عامل في قطع

المسامير ..

— والعمل صعب ؟

— مثل العمل في البناء .. الصبر والتعود .. وبعد ذلك

يهون الأمر .

— آه . استاذ ويقطع المسامير ؟

— استاذ ويظل بدون عمل حتى يموت من الجوع . ؟

— ولكنك كاتب ..

فحاول افهامها أن الكتاب يعملون أيضاً كي يعيشوا ،

لكنها لم تقتنع . « استاذ ويقطع مسامير ؟ عكروت يا زمن ! »

ام بشير لم تكن تتصور هذا ، أبداً لم تكن تتصوره . قررت فوراً

أن تخفي عنه وضع خليل . هي الضاحكة عبست لمراى الوكر

الذي يعيش فيه . وقد عجبت كيف يرضى بهذا الوضع ، ولاحظت ،

وهي تتفرس فيه ، شعرات بيضاء في فوديه ، وظلال اولى لغضون

تتشكل في جبينه فأمرّت : « لقد كبر ! . بسرعة كبر ! » وقالت في

نفسها : « آه للحياة ! أنها تبدو غير مفهومة أحياناً » . حين حملت العلم
في اضراب عمال الريجي كانت تظن ان ذلك الاضراب كل شيء ،
وان الدنيا بعده ستكون بخير .. ولما لم يأت الخير ، راحت
تساءل : « متى يأتي ؟ » ومنذ عشرين عاماً وهي تكرر السؤال ،
ومنذ عشرين عاماً لا تجد الجواب .. الاضراب ذاك ذكرى بعيدة ...
ولكنه بالنسبة اليها نيشان غير منظور ، وهي تحترم هذا
النيشان ، وتريد الوفاء له ، ولكن الى متى يتعذب الناس ولا يأتي
ذلك اليوم الذي يتحدثون عنه ؟ واذا كانت هي ، بحسب احساسها ،
تحمل نيشاناً ، فكم نيشان يحمل خليل وفياض وامثالهما ؟ وما هي ،
بالمقابل ، فائدة هذه النياشين اذا كانت عائلة خليل جائعة ،
وفياض ينام في بئر كهذه ؟

قدم اليها فياض كوب الشاي قائلاً :

— لا تحرق اصابعك .. ليس لدي صحن .

— اصابعي محروقة خلة .. الشغل احالها الى عيدات !

(وابتسمت لتخفف عنه واردفت) قل لي ، كيف تفعل اذا زارتك

آنسة ؟

— قبل التفكير بزيارة آنسة ، هل هناك آنسة ؟

— اوانس لو اردت (ونظرت في الغرفة وقالت) اما

الآن فالمسألة صعبة .

قال فياض ضاحكاً :

— إلا ان تكون الآنسة عمياء القلب .

— عمياء أو مفتحة .. انت لا تؤاخذني ، اغلقت الباب ..

زواجك صار من رابع المستحيالات .

— لأنني فقير ؟

— لأنك مجنون كما قالت أم خليل ..

— المجانين اولاد ناس ايضاً ، ويستحقون الشفقة .. فهزت

رأسها وقالت بأسى :

— وأي شفقة !

وخرجت من عنده وهي تتساءل : «هل ادمن فياض ، مثل

خليل ايضاً ؟ ، ولكنها سرعان ما قالت :

— خليل لا يشبه أحد .. فياض مازال طرياً بعد .

— ١٣ —

نسي ابو روكز محنة الزجل وسوء السمعة التي جلبها أبو

شحادة للضيعة في يوم سيامة ابنه شماسا . وصول اخته من فنزويلا

شغله عن الجميع ، فهو يلبس بدلته من الصباح ، ويأخذ « مرين »

معه ، او يذهب بمفرده ، ويقصد بيت اخيه حيث تنزل اخته ،

فيقضي النهار كله ، وقد يقضي السهرة ايضاً ، في حديث عن لبنان ،

وفنزويلا ، والعائلة ، والأيام ، والمعمل اذا سنحت الفرصة .

ورغم الشوق الذي لم يتل للآخت العائدة بعد اربعين عاماً،
فان انزعاجاً خفيفاً راح يستشعره من يوم الى يوم ، اذا ذكر ان
آخته في بيت آخيه وليس في بيته « ليكن آخي صاحب منشرة
وصاحب مال ، اما أنا فمخترع ! » وقال لفياض ذات صباح :
- تعبت من الذهاب والجيء ، وتعب آخي من اللت
والعجن .. يقضي يومه وهو يتحدث عن المنشرة ، كأنه يتحدث
عن جنرال موتورز .. أنا ساكت .. سأترك المعمل يتكلم !
لم يجب فياض .. ربما كانت المنشرة لآشيء ، بيد أن المعمل ،
مع الاحترام لأبي روكز ، لآشيء ايضاً . الخدعة التي يصنعها
لصاحبه هي كل اهميته ، ولعلها ان تكون اهمية كبيرة ، ولعل
بعض الناس ، فيما تبقى لهم من رحلة العمر ، يحتاجون الى خدعة
من هذا النوع ..

وقال ابو روكز لفياض في صباح آخر :

- اليوم يومك !

كانت عيناه الصغيرتان ، المتعبتان ، تنشطان وتومضان ،
وحماسة فتى تتلبس جسمه وروحاً معاً ، وقد زايلته نزعته الساخرة ،
فهو جاد ، يقظ ، يتحدث عن الاشياء بوثوق وقلق متازجين :
- لي صديق كان في « النورك » فسأله عن الاميركان
فقال : هؤلاء قوم عقولهم في عيونهم .. عندنا يقولون : عقولهم في
اقفيتهم .. المهم ، يحكمون على الاشياء من الظواهر .. وآخي

صارت من هذا النوع ، فاذا توقفت الماكينة مرة واحدة امامها ،
عجزت الملائكة عن اقناعها بقيمتها .. فهت ؟

— لن تتوقف انشاء الله .

— اذا لم تنتبه توقفت .. انت لم تتمرن عليها كفاية .

— اقول لن تتوقف .. كن واثقاً .

وحوالي الظهر وصلت أخته .. استقبلتها مرين ، بزغرودة
خنقها ابو روكز في حلقها .. « الزغاريد للريف لا للمدن ..
للمزارعين لا لرجال الصناعة ! » . وكانت أم شحادة تساعد مرين في
المطبخ ، وتطوع بو شحادة ايخدم على المائدة (بعد ان اعتذر لأبي
روكز وصالحه) وقد اشترط عليه ألا يفتح فمه ، فقال بو شحادة :

— ردّية واحدة بامعلمي .

— ولا نصف ردّية .

— عبارة ترحيب نثرية .

— لا نثرية ولا شعرية .. سد بوزك وبس !

فاعترضت « مرين » من المطبخ :

— لا تقس على بو شحادة .. عنده ردّية حلوة .

— من نوع الطارلات ؟

— لا .. من نوع الكراسي (قالت ام شحادة وهي ترق

الكبة) .

فأقفل ابورو كز الموضوع بحزم :

— لا طاولات ولا كرامي .. صناعة ، الكلام محصورة

في الصناعة !

وبعد الغداء ، وقبل ان تغادره شقيقته ، تلطفت فسألت
عن المعمل ، فدعاها الى الزيارة ، ووقف معها ، كتمهيد ، على
الشرفة ، لتلقي نظرة على منطقة المعمل ، وتسمع صوت الآلة ،
يدوي في رتابة نغمية حرص على شرحها ، اظهاراً لما فيها من دقة ،
استطاع ، برغم افتقاره الى الوسائل ، ان يضبطها ، فجاءت ولا تفرق
مليمتراً على مليون ! .

وفي باحة المعمل توقف مرة اخرى ليطلعها على « الاقسام
الخارجية » وأشار الى غرفتي مركيس وفياض فقال : « مساكن
العمال » ثم دعاها الى الدخول قبله الى المعمل ، حيث كان « القشاط ،
الكبير ، الطويل ، يملأ نصف الغرفة ، ويدور مع محور المحرك في
هدير وطرق متواصلين .

وأدرك فياض ، من انسداد النور الخارجي ، ان الضيفة
المنتظرة صارت في الباب . كان عليه . بحسب تعليمات ابورو كز ،
ولضمان دوران الآلة ، ألا يرفع بصره عنها ، وعندما حيتته الزائفة ،
اكتفى ، بحسب تعليمات ابورو كز أيضاً ، ان يحني رأسه لها ،
وسمعتها وهي تصيح بشكل مبالغت دون مقدمات :

— تقبر أختك يامسعود !.. تسلم يدك يا اخي .. تسلم ...

فتعلم ابورو كز وقد تأثر جداً :

— لولا مرض القلب ...

وعادت هي تقول بصوت عذب مغناج رغم الكهولة :

— برافو يامسعود ! برافو ! ولك ايش هذه النباهة

ياخي !؟ انت مخترع !؟ مخترع كبير ! سجلت الاختراع على اسمك !؟

او ما ابورو كز برأسه ان لا ، فابتدت دهشتها :

— و ليش !؟ الاتخاف ان يسرقوه ؟ هذا اختراع ،

لو كنت في اميركا اغتيت .. ماذا قالت الجرايد ؟

— لم اطلع الجرايد عليه بعد .

— به ، به ، كيف املت الاعلان ؟ الدعاية كل شيء ،

الاعلان نصف النجاح ، ثلاثة ارباعه .. عندنا ، في اميركا ،

الاعلانات تملأ الصحف ، تغطي برامج الراديو والتلفزيون ، توزع على

المصلين في الكنائس ..

— حملة الدعاية نحتاج الى مال (قالها مذكراً اخته

بواجبها الاساسي) .

— معك حق .. تقبر أختك ما انبهك .. برافو ! .. برافو

ياخي ، موفق ..

ولسبب ما ، لعله الرغبة في الدخول الى الحديث المالي ،
او الحشية من توقف الآلة ، تقدم ابورو كزواغلق المفتاح الكهربائي
متوجهاً بالكلام الى فياض :

— استرح قليلاً يا ابي (وملتفتاً الى اخته) اقترني من
فضلك .. انظري ، هذه هي القطعة الاساسية في الآلة .

قالها وغمز خفية ، ففهم فياض ، وبادر الىشارة صغيرة ،
هي عبارة عن ارزة لبنان ، صممها وسكبها ابورو كز استعداداً
للزيارة . وتقدم فياض ، بعد ان مسح يديه ، وعلقها على صدر
الزائرة ، وترك الشرح لمعلمه الذي قال :

— شعار المعمل !. نقدمه للضيوف والزوار .

أمسكت بالارزة ، ورفعتها الى اعلى ، واحت رأسها
قليلاً ، وقبلتها ، وبكت .. وعندئذ بلغ التأثير أشده بابي رو كز ،
فادار وجهه ليخفي دمة الشكر والسعادة على هذا التقدير ، واصبح
الجو عاطفياً اكثر مما يحتمل ، فتعانق الشقيقان ، وانتهت الزيارة
في جو حار جداً جداً ..

* * *

بعد أن ودعت الشقيقة ومضت عاد ابورو كز الى المعمل .
كان فياض يشتغل فلم يلتفت اليه .. فاقعد كرسياً ، منتظراً ان
يفاتحه فياض بتعليق ما على الزيارة ، ولما لم يجد منه اكثر اثاراً قال
له منرفزاً :

– ليش ساكت ؟!

– اشتغل .

– دين الشغل ، اوقف الماكينة وتعال .

امثل فياض لطلب المعلم ، فجاء وقرص قربه ، وقدم اليه سيكارة حرص على اشعالها بنفسه ، ثم سألته :

– كيف شفت ؟

– مبروك .. تقدير رفيع وفي محله (قالها وتذكر شقيقة معلمه المتينة البنيان ، العامرة الصدر ، المثقلة بالحلي والاصباغ ، واطاف) صاحبة ذوق ..

– يسلم فمك .. حذرت الذي في قلبي ، صاحب الذوق لا يموت .. شفت « مرين » نزلت مرة وسألت ماذا اخترعت او ماذا اشتغلت ؟

– المفهوم الصناعي ضعيف عندنا بعد .. وخاصة عند النساء ..

– في هذه معك حق .. ولكن الذوق مسألة ثانية .. شفت سر كيس (ولم يقل : الحمار !) هذا رجل ايضاً ولا يهتم .. وانقضت فترة صمت ، تلمظ ابورو كز خلالها فرحته وقال :

– لم افانحها في ذهابك الى فتزويلا او البرازيل .. ملعون والد الغربة .. اذا ضمنا التمويل الكافي صار المعمل بحاجة الى

عشرات العمال .. وانت ، لاتقل ابو وركز مجلط ، انت بمثابة
ولدي .. احببتك ، من الله احببتك ، وستكون المشرف على المعمل ،
.. مديره ، قل انشاء الله .

وقال فياض وهو يداري ابتسامة ود وشك :
— انشاء الله .

— ١٤ —

تعالى النقر الخفيف على الباب ، فادرك فياض ان ام بشير
هي الطارقة . وقد ~~بين~~ وهو يراها مقطبة على غير عاداتها ، حزر ان
خبراً سيئاً وراءها .

— طلبوك في بيت خليل .

لم يسألها: من ؟ عرف ان الملاحقة مستمرة .

— وماذا تتوي ان تفعل ؟

— لاشيء .. المهم الا يعرفني احد ، ولا يأتي لزيارتي احد

(وبعد تفكير) هل اخبرت احداً بمكاني ؟

— انا؟! معاذ الله .

نظر اليها مرتاباً ، فتعاشت وقع نظراته « فعلتها — قال في نفسه »

لم تقو على كتمان نبأ عشورها على مكانه ، فقالت للآخرين ، واوصتهم
بالكتمان ، وبدورهم قالوا لغيرهم واوصوهم كما اوصتهم . قال فياض

— كان يجب الا تأتي الي .. لماذا اخبرتهم بمكاني ؟

ازداد تقطيب ام بشير .. ابدأ لاتصدق ان الذين قالت

لهم يفعلونها ، وفياض نفسه لا يصدق ، ومع ذلك فكل شيء جائز ..
كما زل لسانها يمكن ان يزل لسانهم .. قالت في نفسها :

- ماذا فعلت ؟ أأكون السبب ؟ واخليل ؟ وابو خليل ؟
والمودات ؟ ونیشان الاضراب ؟ والدماء ؟

انها مستعدة للتفكير عن خطيئتها .. شهمة وبأسلة ، وذكري
الاضراب ذاك ، لا يمكن ان تنساها او تخونها ، ولئن وقع شيء
لتنقم بشكل رهيب من الواشي .. لكنها لاتصدق ان شيئاً يقع ..
- ماذا افعل ؟ سأله بنبرة اسف .

- لاشيء في الوقت الحاضر .

- هل اشيع انك سافرت ؟

- لا ، ابلغني خليل انني بخير ، ولكن لائقولي له اين
انا .. اذا عرف مكاني جاء لرؤيتي ، وهذا سيء في الوقت الحاضر ،
وخاصة بعد ان سأله عني ، وقد يكون تحت المراقبة ، ومن
الافضل ابعاده عن القضية ، فلاتدليه على مكاني .
- معاذ الله !

وابتسم ، فابتسمت ... واذا دركت مغزى ابتسامته
قالت : « اتكلم عن جد هذه المرة .. صدقني . »

وربت فياض على كتفها وقال :

- صدقت .. انا اثق بك تماما .. اذهبي بسلام وسلمي ..

ولما ذهبت دخل فراشه واطفا الضوء ، محاولا ان يستجمع
افكاره التي شتمها مباغتة الخبر .
قال لنفسه « لاداع للقلق ، فلأحاذر ان اثير شكوك
ابي روكز ، ولأمض في حياتي كما هي ، وليكن بعد ذلك
ماهو كائن . »

- ١٥ -

في صباح اليوم التالي كان الذي هو كائن ..
فيا فياض يعد كوبا من الشاي ، وقف ابوروكز في بابه ،
وفي فمه كلام .. تعلقت انظاره في الكتب والاوراق الموضوعة
على السرير ، تلك التي لم يضعها فياض تحت الفراش بعد ، وانتقلت
منها الى سائر اركان الغرفة ، ثم استقرت على وجهه في محاولة
لاستقراء العينين ، ولم تلبث النظرات ان ارتدت وسقطت
على العتبة .

ابوروكز يداري حيرته : يتكلم ام لا ؟ ..
وفياض مطرق ، يحاذر ان تلتقي العيون فينفذع السر ،
ويتظاهر باعداد الشاي وهو مشغول عنها بالكلمة التالية التي سينطق
بها ابوروكز . قال له :

- تفضل .. ادخل ..

- عشت .. سأعود الى الفراش .. لم انم البارحة .. دق

قلبي بشكل مخيف ، حسبت ان الضو لن يطلع علي .. وكنت مفكورا .

- خير ..

- سألني جماء : عنك .. عن اصلك وفصلك .

قال فياض في سره : «عرفوا مكاني !» ، وتظاهر باللامبالاة .
- ماذا يريدون ؟

- لم يقولوا .. سألوا عن المستاجر الجديد وكنيته .. قلت لهم : اسمه سليمان ، اما كنيته فلا اعرفها .. ولم يصدقوا : «هل يعقل انك لاتعرف اسم المستاجر عندك ! ؟ » حسمتها معهم : « لا أعرف .. » وفي الحقيقة لا أعرف ، وعدتهم بالمعلومات المطلوبة اليوم ، بعد ان قلت لهم انك غائب عن البيت امس .

انتهت اقامتك يا فياض .. اسرع في مغادرة المكان بقدر ما تستطيع . ابورو كز صديق ، اخ كبير ، لبناني حقيقي ، يرى حق الجار وحرمة الحيز والملع .. اشكره في قلبك وكفى .. لاتعطه المعلومات المطلوبة ، ولا تؤخره عندك ، فانت في سباق مع الزمن .. كل دقيقة لها قيمتها ، وكل كلمة لها معناها ، فتجنب الابطاء وكثرة الكلام .. ترشف الشاي .. تظاهر بأنك تنهياً للعمل ، وانك نسيت الموضوع الذي جاء لاجله ..

قال ابورو كز :

- ماهي كنيته ؟

- رقتول ..

- واين هويتك ؟

- في الحقيبة .

لم يصدق ابو روكز ، لكنه خجل أن يطلب الهوية . - قال :

- هل عندك اشياء ممنوعة ؟

- مثل اي شيء ؟

- كتب مثلاً !

- ابدا ..

- اذا كانت موجودة يمكن اخفاؤها عندي .. لا أعرف

بالضبط ما يريدون منك ، ولكن قد يعودون .. وفي كل الاحوال

انا هنا .. اعتمد علي ..

- شكراً ، ليس عندي ما اؤخذ عليه ، وليس لي علاقة

بأي شيء .

- اذن اعتبر المسألة منتهية .. لعله خطأ ... انا صاعد لانام .

- نوم الهناء ..

قالها فياض من جماع قلبه لانها الكلمة الاخيرة بينه وبين

ابي روكز .. لن ينساه ابداً .. لن ينسى معروفه وطيبته وغيخته ،

ولكنه ، في الآونة ، لا يملك للوفاء حتى كلمة الشكر او الوداع ..

ظروف !!

عينه ، من داخل الغرفة ، تابعت الرجل في انصرافه عن

المعمل ، ولما ايقن انه دخل بيته لينام ، وسمع باب الدار يغلق وراءه ، بادر الى كتبه واوراقه فوضعها في الحقيبة ، وبذل ثياب العمل ، وللم اشياء القليلة ، ثم استطلع ، من شق الباب ، الطريق الذاهبة الى الوادي ، فلم يجد احداً ، وعندئذ خرج حاملاً حقيبت ، واغلق الباب وراءه وذهب في مشية طبيعية .

انحدر الى قاع الوادي ، وسار باتجاه سن الفيل ، ومن هناك ركب اول تاكسي صادفه وقصد بيت جوزيف ، فنزل من السيارة قبله بمجاذتين ، وانعطف الى زقاق فرعي ، ومن هناك مشى هادئاً الى البيت الذي يعرفه ، والذي استقبلته هناك على عتبة صائحة :
— استاذ !

وامتأذنها قائلاً :

— يمكن ؟

فأفسحت له حتى دخل ، واذا ذاك سألها :

— هل من غريب عندكم ؟

— ابدأ . .

— وجوزيف ؟

— في الشغل . .

— سانتظره حتى يعود ، ولا اريد ان يعرف احد بوجودي ،

فهل تسمحين ؟

— وكيف لا ؟ انت لاتعرف معزتك عندنا . . تعتبر

نفسك غريباً ، وتصرف بجنون ، ولطف .. يارب !. كم زعل
جوزيف على ذهابك ، وكم تحملت بسببه ..
- هاقد عدت .

- وهل ستذهب مرة اخرى ؟

- من يدري !؟

- كيف لا تدري ؟

فنظر اليها شاكراً حرارة استقبالها ولم يقل شيئاً .. «الانسان
احياناً ، لا يدري .. الظروف هي التي تدري ، .

- ١٦ -

في سريره ، حيث يضرب القلب بعنف منذراً وهادماً ،
كان ابو رو كز لا يعلم شيئاً مما جرى .. افلح فياض باقناعه انه انسان
عادي ، معروف الاسم والكنية ، ولا بأس عليه من اي استفسار
أو تفتيش . ظن ابو رو كز ان هناك خطأ فقال في نفسه : « أمس
لم أستطع الرد ، اما اليوم فلن اغفر لهم وقاحتهم . لقد رفضوا
تصديقي بأني لا اعرف كنية المستاجر الجديد . قالولي : « كيف
تؤجر بيوتك اذن ؟ ، وهذا بيت ؟ هياي ، تريدون ان اكتب
عقداً لهذا الوكر ؟ ،

- الا تعرف من يسكن عندك ؟

- لا يسكن عندي إلا كل طيب ..

— حسناً .. غداً نرى ..

ولسوف يرون اليوم ..

سيقول لهم : « اسم المستاجر سليمان رفتول ، وتفضلوا
شاهدوه ، ومع السلامة .. » لن يأخذ ويعطي معهم .. صحته
لاتساعده ، وقضية العمل تشغل كل تفكيره ، فماذا بعد اعجاب
شقيقته بما رأت ؟ وهل يؤثر عليها شقيقه صاحب المنشرة ؟ والتمويل
المنتظر ، تفتح به اعتماداً أم تعطيه شيكات ؟ والمعمل ، بعد التمويل ،
ينقله الى منطقة اخرى ام يبقيه حيث هو ؟

« هذا القلب ! استرح يا ابارو كز استرح ! .. نعم .. دع
التفكير بالاختراع والصناعة .. انت متعب ، وقد تموت اليوم او
غداً ، ستموت وشيكاً ، فما الفائدة ؟ زمن الشباب ، يوم كنت
« تعصر الحديد » مضى ولن يعود .. أبداً لن يعود .

« بلى سيعود .. لا أريد الشباب ، ولكن الصحة .. لو
انصلح هذا القلب . لو هادن سنوات فقط .. الآن ، وقد بدأ الأمل
يورق .. كيف يورق الأمل وتذوي الصحة ؟ والمشروع ، كيف
التخلي عنه وفي ذلك تخلي عن الحياة ؟ » .

عرق بارد على الجبهة .. عرق بارد على الجبهة .. التسارع في
القلب هو السبب ، والنوم يهرب .. النوم الهنيء ذكرى بعيدة ..
ان يتمدد في الفراش ، ويستسلم للدفء والاحلام ، ذلك من الماضي ،
ولا ضرورة للحسرة .. يجب ان يظل مستنداً بنصف جذعه على

السريـر ، وان يرتضي النوم المقتطع ، ويوقف دماغه عن التفكير ..
لكن الدماغ لا يقف .. نداء يأتي من الاسفل .. من
غرفة المعمل ، فالكائن الذي اوجده ، وخلع على برودته حرارة
من حرارته ، لا يزال بحاجة اليه .. ولا يزال هو قادراً على مده
بالحرارة .. قطع الحديد تلك ليست حديداً .. تتحرك الآن ،
وتتسكـم ، وتشهد بحياتها على انه معطيها الحياة .

بدا ، وهو ينحدر على خاصرة الوادي ، انساناً مدنفاً ،
يتحرك بفعل جاذب غير منظور . كان في ثياب النوم ، وقد ارتدى
معطف البيت فوقها ، ونزل وفي نفسه امر . « سأقول لسليمان :
اترك غرفتك وتعال اسكن احدى غرف البيت ، .. سينزله من
نفسه منزلة الولد ، شريطة ان ينزل هو الآلة من نفسه منزلة
الابن .. فاذا جاءت سفينة الموت ، ترك على البر انسانا يعنى بمخلوقه
ويضمن له البقاء والنمو .

ومخلوقه هامد .. لا تصدر عنه اية حركة .. حسب ان
عطلا طراً عليه . تحرك ، نشط ليعالج العطل . ولكن
المعمل ساكن ، لا أثر لاحد فيه . تحول عنه الى غرفة فياض ،
وقرع الباب ، ولمـالم ياته جواب ، وكان المفتاح من الخارج ،
اداره وفتح الباب ، فهبت عليه من الداخل لفحة باردة ، وطالعه
خواء .

كان الخوان ، المستعمل سريرا ، كعهده به كل يوم ،
بفراشه وغطائه .. وكذلك كان بآبور الغاز وابق الشاي والفناجين .
فياض وحده غير موجود ، اما الحقيبة التي كانت تحت الخوان فلم
يلحظ آبورو كز اختفاءها .. ومع ان غيبة فياض ، بدون علمه ،
لم تخف عليه ، ولم تخف صلتها بالسؤال عنه ، فقد توهم انه ذهب
لمكان ما وسيعود .. لياخذ اغراضه على الاقل !

« خدعني ؟ » تساءل .. واستعرض كيف جاء وكيف
استأجر وعمل ، فلم يجد دليلا على الخداع . لم يكن يتكلم كثيرا ،
ولم يقل له سوى انه ينتظر اوراقه ليسانر الى البرازيل .. كان
طيبا ونزيها لا تظهر عليه شكاة ولا مودة .. ولولا بعض
التماعات الذكاء ، لكان بسيطا ساذجا ، فهل كان ذلك كله تصنعاً ؟

حدثته نفسه أن يدخل ويفتش الغرفة على يقع على السر ،
بيد أنه طرد الفكرة فوراً وأحس بالحجل .. الشيء الوحيد الذي
استغربه هو التكم الذي لا موجب له . « هل شك بي ؟ مخطيء
والله ، ما كنت لأسلمه ولو سلمت نفسي . واذا لجئوا في طلبه
كنت أرسله الى الضيعة ، وفي الضيعة لا يطال .. مت يا أبا
روكز ؟ باطل ! لسوف أعاقبه على هذا ، وأقول له ، بالقلم العريض ،
رأبي فيه .. اذا كان مجرمًا فلن أسامحه (وبعد قليل) لا .. هذا
غير ممكن ، مستحيل .. لا مجرم ولا محتال .. سيامي ! ، ونفخ

وشتم : « لعنة الله على السياسة !. ولد مثل الحبق ، كان له مستقبل
في الصناعة ، قتلته السياسة ! » .

توقف في الباحة دون سبب . راح يحك ذقنه بعصبية ،
ويتطلع في كل الاتجاهات : قلبه مريض ، ومعمله متوقف ، والشخص
الوحيد الذي فهمه راح ، فماذا لو ان شقيقته قدمت له غداً المال
اللازم ولم تجد لديه الاستعداد الكافي ؟ اللوحة التي رسمها خياله
للمستقبل كان فياض جزءاً منها ، وفقدان هذا الجزء فقدان للجانب
المهم ، فهل يعيد رسم لوحته ؟ من المحال ان ينجح ، المزاج
اللازم غير موجود ، الكلمة الطيبة ، التي لم يسمعها من احد ، سمعها
من فياض .. سمعها بصدق ، بدون مداخلة ، فشكت بالنسبة اليه .
انتعاشاً روحياً ملهماً بعث فيه الرغبة في الاختراع . قال في نفسه :
« سليمان لم يكن عنصر عمل فقط .. هذا يمكن توفيره في غيره » .
والكي يطرد شجونه ، كان لا بد له من مخلوق يقص عليه
القصة ، وينفض عليه همومه ، ولما لم يكن ثمة غير « مرين » فقد
احس بالاسف لانه لا يستطيع ان يقول لها شيئاً ، لانها لا تعرف
ان تشاركه في شيء . وفي حلق قال : « بكرة عندي لا زوجة ! » ،
ثم استدار وصعد الى غرفته ، وبدون كلمة دخل فراشه واراح
جذعه على مسند السرير ... واخذ قلبه يخفق بسرعة وقطرات من
العرق البارد تتشكل من جديد على جبينه الممتقع .

* * *

عند العصر خيل اليه انه يسمع طرقات الآلة في المعمل ..
غادر فراشه غير مبال بالمرض، وخرج الى الشرفة واطل : لاصوت !
« اين هو يا ترى ؟ » .

تذكر لقاءهما الاول « فصيح ! - قلت له ساخراً - وسألته
يوم استأجر الغرفة ، من اين تعلمت هذه الفصاحة ؟ فقال : والذي
علمني فك الحرف . لا ، ليس فك الحرف وحده .. ولد متوّر ..
ومن يدريك انه خريج جامعة ! .. وانت يا بوروبو كز ، كنت
تستخدمه كأجير ، ومرة اهنته ، به ، به ، به كيف عاملته هذه
المعاملة ؟ وكيف صبر هو عليها ؟ المثل يقول : ايش صبرك على المرء ؟
قال الذي امر منه ، والمسكين صبر لانه في ضيق ، لا بد انه في
ضيق .. اذا عاد الليلة سأعتذر اليه ، نعم سأعتذر اليه .. الولد
ابن عائلة ، مؤكد ابن عائلة ، يا حرام على اولاد العوائل ، الله لا يذل
عزيز .. ولك كيف نفد مني ؟ اربط الشيطان بشعرة وربطني من ذقني ..
تظاهر بأنه عامل .. تأمل ! حط به الزمن فاشتغل في معمل .. وماذا في
المعمل ؟ شرف ، ولا يشتغل فيه الا الشريف ، .

تدثر ، ليلا ، بعطفه السميك ، وجلس في المعمل يترصد
الباب ، قال في نفسه : « سيعود لينام ، او ليأخذ اغراضه ، وعندئذ
ادخل وراءه . واتحدث معه وافهم منه .. هذه المرة لن يفلت مني ،
تمثيله لن يفيد ، انا الذي سأمشل .. سأقول له كنت اعرف من

انت .. ابو رو كز هو ابو رو كز !. دعنا نتفاهم ولك عندي الحب
والكرامة .. ولكن بماذا اناديه ؟ سليمان ؟ لا ! به ، سليمان لم تعد
تليق ، خواجه ! وماذا فيها ؟ الخواجات احسن منه ؟ فشيروا ! ، .

عند اشتداد الظلام فتح باب الدار فجأة .. تحفز ابو رو كز
لمناداته .. لكنه قال في نفسه : « اتركه يدخل ، اعطه فرصة
لاشعال الضوء والاستراحة حتى لا يظن انك كنت تراقبه ، وبالمقابل
لا تغفل عنه .. ما هذا ؟ نقر على الباب ؟ ليس هو اذن ، .

خرج ابو رو كز من المعمل وسال :

— من ؟

اجفل الطارق واجابه صوت اثوي :

— انا .

— من انت ؟

— ام بشير ..

فاشعل ابو رو كز الضوء وقال بلمهجة الساخرة :

— تشرقنا !.. وماذا تريدن ؟

— المستاجر ..

— ما اسمه ؟

— وما دخلك أنت ؟

— به .. أنا صاحب البيت ..

— والنعم ..

— وحضرتك ؟

— خالته ..

قال أبو روكز في نفسه : « عال ! امسكنا طرف الحيط ،
وتقدم منها فحيها ، ثم اشعل ضوء الغرفة وقال لها :

— تفضلي يا ست .. لي معك حديث ..

تفرست فيه في العتمة .. ثم دخلت وهو وراءها ، ولما
أخبرها ان الذي تسأل عنه اختفى ، عذت على شفتها وسكتت ..
كان واضحاً انها تشك فيه ، ولكي يجعلها تتكلم ، قال لها : « لا تخافي
عليه ، سألوا عنه فأخبرته ، وعندئذ « شمع الحيط » ^(١) .. ومن
الصباح وأنا انتظر عودته ، لا بد ان يعود .. اقعدني .

قالت أم بشير :

— سأذهب ، غداً اعود فأراه .. قل له من فضلك ان يمر
علي ، ويأخذ ثيابه للغسيل .

قال أبو روكز وهو يوقفها عن الذهاب :

— اسمعي ! مسألة غسيل الثياب هذه لم تخرط عقلي .. والله
لا تذهبين حتى اعرف عنه شيئاً .. ابن اختك من صحيح ؟

صوب اليها نظرات محقق يرغب لفوره في كشف السر ،

(١) يعني هرب .

فأرعبها واغلق فمها بفتح .. رجل هو لا شك ، لكنه ، اذ يأتيها بهذا
الاسلوب ، يجهل من هي .. ايظنها وقعت في الفخ؟ أم بشير لا تكلم
إلا حين تريد .. اللطف وحده يجعلها تتكلم ، اللطف وحده ،
ولا شيء سواه يا ابو رو كز .

رازها جيداً ، فالفاها هادئة ولا مبالية ، وفي عينها شراسة
لم تكن منذ هنية .. « تجهل من انا ولا تريد ان تتكلم .. ربما
تخاف أو لا تريد » .

وبعد لحظة صمت أضاف : « ماذا يهمني ، تكلمت ام لا ؟ » .
كان الاجهاد قد نال منه ، فلوى عنقه ، في نوع من يأس ،
وقال لها وهو يفتح الباب :

- مع السلامة .. ظني اني لن أراه بعد اليوم ، فاذا زارك
سامي عليه ، قولي له : ابو رو كز افتقدك كثيراً ..

استودعته وخرجت .. كانت مستعدة بعد عبارته الاخيرة
أن تبقى وتزيد التعارف . قالت لنفسها : « أخطأت يا أم بشير .. ربما
كان ابو رو كز انساناً طيباً .. ومن يدري !؟ وربما كان له اولاد ،
ولعل في عائلته من يصلح للزواج ، وها انت ، بجهاقة ، قطعت صلة
نشأت ببعض الصدفة ، وليس هذا من اصول المهنة ، ولا في صالح
ارملة قد يضحك لها الحظ ! »

اطفاً ابو رو كز الضوء . وقفل الباب ، وصعد وبيداً على

كتف الوادي ، وقال في نفسه يذ كر ام بشير « نسينا ان نقول لها شيئاً عن المعمل ، فربما كانت تعرف من يقوم مقام « سليمان » .
وبعد ان زفر تعباً ، أصدر على نفسه هذا الحكم :
- عاطفي أنا .. بخلاف اصحاب المعامل !

- ١٧ -

شغل فياض نفس غرفته السابقة في بيت جوزيف . وقد وجد نفسه ، منذ دخلها صباحاً ، شبه غريب على الجو النظيف والجدران البيضاء المستقيمة ، وطاولة الكتابة ، وكرسی الخيزران ، والنافذة العريضة بستارة من نخل احمر .. كل شيء ، في الغرفة وخارجها ، كما تركه ، الا الراديو ، فهو في التصليح على الاربع ، ولهذا لم يسمع صوت عبد الحليم في البيت .

كان عليه ، هنا ، ان يظل في ثياب تتناسب ومظهر البيت ، وقد تضايق ، وافتقد جو الحرية الذي ألفه هناك ، حيث كان عاملاً عند ابي روكز ، وجاراً لسر كيس ، ورقعة طبيعية في ذلك الثوب العتيق كله .

وعلى ذكر ابي روكز تساءل : « ماذا يفعل الآن ؟
انقضى النهار ولم اعد . لا بد انه يش من رجوعي ، اما سر كيس فلن يسمع بهربي الا بعد ايام ، وسيجدني « بطلا » ، لاني ذهبت

وخلصت من البهدة ، وسينساني سريعاً .. وغيرهما لن يذكرني
احد .. كنت مقطوعاً هناك .. وربما سألت عني ام بشير ..
فيا المفاجأة التي تنتظر ام بشير !

استلقى على سريره وراح يحلق في السقف كما كان يفعل
في بيت ابي خليل : كيف كان عليه ان يتصرف ؟ ام خليل تقول عنه
مجنون ، فماذا يقول لها ؟ بل ماذا يقول المرء لمخاطبه اذا كان هذا
لا يفهم أفضل مشاعره ؟ الخروج على المألوف ، لو يفهم في وقته ، لما
عد خروجاً .. لقد اعتاد الناس السير في الطريق المفتوحة ،
وكل الذين شنوا ، اعتبروا في البدء مجانين ، ثم كانت طرق
كثيرة

« خليل ! يا خليل ! في حيننا ذاك كنت المجنون الأول . كانوا
يقولون : هذا الولد يناطح الصخر ! قال سنديكا قال ! وقبلك ، كما
روى والدي ، تصدت امرأة في جبل لبنان لجمال السفاح وقذفته
« بترموسة » تنور يابسة فأعدمت ، وقال والدي : « مجنونة .. ايش
فاهها ؟ » فانكمشت امي ذعراً وقالت « الله لا يلوع قلب ام »
وتجرات فتاة على تقصير فستانها ووضع الأحمر على شفيتها ، فلاكوا
سمعتها حتى بقيت عانسا ، وقالت نساء الحي : « الله لا يدخلنا في
التجارب ! » واحبت صبية شاباً ضد ارادة اهلها وذهبت معه ، فقال
الجيران : خاطئة ! وذبحها اخوها ، ومارست امرأة حريتها ورفعت
الحجاب ، فعلت الولاويل وكوفخت كالطاعوث ،

وشرب ابن عمي سيكارة امام والده ، فضربه بالعصا حتى أدماه ، لأنه
يدخن ، بل لأنه يدخن امامه ، ورقص والدي - وكان مثلاً - رقصة خفيفة
امام جمع من الكبار ، فبهدوه حتى كاد يموت ، لأن الرقص يجب ان
يكون فقط على «الوحدة ونص» ! .. بجانب .. كل هؤلاء بجانب ..
كانوا يسيرون في طرق غير مألوفة .. كانوا ضحايا للطرق التي صارت
مألوفة ، وصار الناس يسلكونها دون تماثيل على جانبها للذين
فتحوها ..

« انت بافياض لا تفتح طريقاً ، لكنك تسير في طريق
وعرة .. انت حجر ككل الحجارة التي رفضها البناؤون
وصارت رؤوس زوايا .. امض في طريقك امض .. بدون زاد ،
بدون مأوى ، بدون حب .. دع دينيز تحلم بالفارس كما في
الكتب ، لأنها لو رأتك في معمل المسامير لصاحت : « رباة ! انه
انسان عادي ! » دع والدتك في حنانها العاجز ، فانما والدك في ضلاله
اكثر جرأة على الحياة منها ، واذ تستشعر الألم تذكر انك واحد
من ملايين ، يتألمون مثلك ، ومثلك يسيرون في الطرق الوعرة
ليشقوا طرقاً جديدة . »

نمض وسار في غرفته مهتاجاً . قادر الآن ان يرتكب
خطيئة ضد «الناموس» وجريمة ضد «المجتمع» . النمل ، كما في الاسطورة ،
ثقب الجبل ، وفتح فيه طاقة . وانت قادر ان تثقب جبل الاخلاق
والعادات والأفكار . وكل ما يلزمك صبر النمل ودأبه .. اصبر ..

خليل قال لك اصبر .. وآه يا خليل على الصبر .. ارشدني من أي نبع اغترفه ، من أي عطار ابتعته ، من أي ..

نقر الباب ، فجلس فياض وقال : تفضل ! فدخلت هناك تسأله ما إذا كان بحاجة الى شيء ، فشكرها ، وعندها قالت :

— اسمع يا استاذ ! في المرة الماضية لم تكن صريحاً معي .. سألتك : مرتاح ؟ قلت : نعم ، وبعد ايام تركت البيت .. جو زيف ضحك علي .. قال لي : انت غيبة . لو كان مرتاحاً ماتوك البيت .. انت السبب ، فهل هذا صحيح ؟

— ابدأ .. ذهابي لاعلاقة له بك .

— انت لطيف يا استاذ ، لطيف جداً ، ولكنني ازعجتك في المرة الماضية ، فقل لي الآن ، ماهي الاشياء التي تزعجك لاتجنبها ؟

— لا يزعجني شيء ، صدقيني .

— يارب ! ازعجتك .. اعرف انني ازعجتك ، ولا اريد ان يتكرر الازعاج .

— اذا وقع ازعاج لفت نظرك اليه .

— ولماذا لا تلفت نظري اليه حتى لا يقع .

سكت .. وجد افضل شيء ان يسكت ، ولكي لا تفتن الى ضجره ، ابتسم لها بعدوبة ، وحاول تغيير الحديث ، لكنها عادت تقول :

- اسمع يا استاذ ! جوزيف لا يحتمل هذه الايام .

يتفلسف .. يقول انني غليظة .

- مخطيء ..

- ويقول انني بشعة ..

- مخطيء ايضاً .

- قلت له هذا ف ضرب الطاولة وقال : وغبية !

- استغفر الله .

- وما رأيك انت ؟

- انت تعرفين رأيي .

صر المفتاح في القفل ، فصاحت هناء : جاء جوزيف !

وهرعت اليه تريد ان تثبت وجودها : احزر من عندنا ؟ ولما لم يجيها
اضافت : الاستاذ ! فاندفع جوزيف الى غرفة فياض وعانقه .. قال
كلاماً متقطعاً لشدة فرحه ، وبدا مهتاجاً لا يدري ما يفعل .

وبعد ان اوصى هناء على فنجانين من القهوة ، ذهب الى

المكتبة وعاد يحمل جريدة وقال :

- هذه ، بين قصصك الـ Chef - d'oeuvre .. لاتسأل

عن مدى اعجابي . بحثت عنك طويلاً دون جدوى .. هل ابتلعتك

الأرض ؟ اسمع ، لكي تكتب لنا قصة مثلها ، ينبغي ان نتروك

لك البيت .. مارسل هناء والصغيرتين الى الضيعة ، واعد انا كل

مساء فأعد لك الطعام .. تستطيع ان تضع برنابجك بكل راحة

ولمدة طويلة .. اوقاتك كلها لك ماعدا هذه الليلة ، سأصنع لك
« كبة نيّة » لم تأكل مثلها في حياتك .. هنا ! . يا هنا !
حضري الجرن .

وقالت هنا وهي تقف على الباب حاملة القهوة :
- شف يا جوزيف .. الآن عاد الاستاذ ونستطيع ان
نسأله ..

فقاطعها :
- لانسأله ولا يسألنا .. بدأنا ؟ غرفته منطقة حرام ..
مفهوم ؟ الاستاذ بحاجة الى الراحة والهدوء .. به !
فقال فياض متوجهاً الى جوزيف :
- لاتعقد الأمور الى هذه الدرجة .. دع العائلة تأخذ
حريتها ، وقبل جرن الكبة ارجوك ان توصل لي هذه الورقة .
وبعد ان كتب ورقة صغيرة وغلفها ، حملها جوزيف بنفس
الخطورة التي يحمل بها مظروفاً فائق الأهمية .

* * *

في منتصف الليل جاء صديق فياض .. ذاك الذي اوصاه الى
هذا البيت اول مرة . كانت كلمته الاولى : هيا !
فتدخل جوزيف معترضاً :
- الى اين ؟

- يجب ان يغادر هذه المنطقة .

- بهذه السرعة ؟

- بقاءه غير مأمون .

- ونهض فياض دون ان يقول شيئاً .. لم يكن يقدر انه

سيخرج من بيت جوزيف في نفس اليوم الذي دخله ، ولكنه ، الى

هذا ، لم يكن يقدر انه سيتمكث طويلاً .. اما التنقل فقد اعتاده ،

واما معمل المسامير فقد صار ، كالمطعم ، كورشة البناء ، كنافذة

دينيز : ذكرى !

مجرد ذكرى !

- ١ -

بعد سنة من هذا التاريخ ، نشرت الصحف تفاصيل مثيرة
لمطبعة سرية عثر عليها في أحد الاقمية ومعها منشورات ثورية ورجل
ذو شعر طويل ولحية سوداء كثة من خارج لبنان . قالت الصحف
ان العملية تمت في الصباح الباكر : داهمت مفرزة من رجال
الجمارك القبو (بعض الصحف قالت : الوكر) الذي يقع تحت أحد
الابنية ويدخل اليه من باب على انخفاض عشر درجات ، ومن باب
خلفي يفضي الى حديقة تستعمل كمنشرة ، وصادرت . توسعت صحيفة في
التفاصيل فنشرت تحقيقاً يقول ان الباب الخلفي يفضي الى مقبرة تلي
المنشرة ، وان الوصول اليه كان يجري عن طريق نفق فوهته احدى
الحشخاشات^(١) . مجلة واسعة الانتشار ذكرت انها ارسلت بعثة
صحفية صورت القبو والمنشرة والمقبرة والنفق (الملىء بالجثث وعظام
الموتى) وحصلت على معلومات خطيرة من مصادرها الخاصة ، وهي

(١) الحشخاشة هي القبر ذو البناء الكبير الذي يتخذ للعائلات
الثرية .

اقوال العاملين في المنشرة وحارس المقبرة . احد العاملين في المنشرة أفاد انه كان يسمع في الليالي هديرأ مكبوتاً نباله زملاءه فضحكوا منه واتهموه بالجن . حارس المقبرة قال انه كان يرى اشباحاً بين القبور ، وانه لحق بشبح منها فاختفى في الارض ، وانه قص الخبر على الكاهن فعذّره^(٢) ونصحه بان يتلو « اؤمن بالله واحد ، من اولها حتى عبارة « نجنا من الشرير » سبع مرات كل ليلة لطرد الوسوس والشياطين . عجوز ذكرت انها سهرت ليلة ، ففتحت النافذة المطلة على المقبرة ورأت في ضوء القمر رجلاً (ترجع انه بشياب بيض) يجتاز المقبرة ، ثم اختفى ، فقصت الخبر على جاراتها ، وأشيع ان « مار الياس » ظهر لأُم مخايل وصار الناس يتبركون بها .

اسبوع والرواية ثابتة ، غير ان التفاصيل ظلت تتنوع وتتمدد حتى غطت على أنباء سبق الخيل وجريمة « الدكوبنة » وقتلى الخلافات الانتخابية في زغرّتا . وفي نهاية الأسبوع نشرت « صحيفة ذات نفوذ » ، وعنها أخذت بقية الصحف ، صورة الرجل الذي ضبط مع المطبعة والمنشورات ، بشعره الطويل ، ولحيته السوداء ، ويديه المقيدتين بالحديد ، وأعادت نشر صور القبور والمنشرة والمقبرة ، وزادت عليها صورة المطبعة والمنشورات ، وبعضها نشر عناوين المنشورات بالزنكوغراف ، مع تفاصيل جديدة ، غاية في الاثارة ، واكتفى ، لسلامة التحقيق ، بذكر اسم المعتقل (فياض ..)

(٢) عذره : وبخه عند العامة .

وهو من خـارج لبنان ، يقود النشاط ، ولا يقوى على النظر الى الشمس ، لطول ماعاش تحت الارض ! وله اظافر طويلة ، كالمخالب ، ونظرات راسبوتينية ، ساحرة ، مخيفة !.

* * *

جلس خليل على حجر كبير من احجار النحت وراح ينظر في الصورة ويبتسم : « هذا أنت إذن يا فياض ! » قبل سنين طويلة جداً صوروه هو أيضاً ولم ينشروا صورته في الصحف ، لم تكن في ذلك الوقت صحف كثيرة ، كانت تقتصر على الاعلانات والأخبار الرسمية ، وكان الفرنسيون يمنعون نشر اخبار الذين يطالبون « بالسنديكات » ويعلقون « البنديرات » الحمر في اول ايار . كانت له لحية سوداء ايضاً ، ولكنها ليست بهذا الطول ، وشعره لم يكن مسترسلاً على رقبته بهذا الشكل ، وقد تكون الصورة محفوظة في السجلات ، وربما اُتلفت ، فالصور اصبحت كثيرة ، لا تسعها السجلات . ويومها نسجت حوله اساطير . تحدثوا في الحى عن اعتقاله في المغارة ، مع « البنديرات » والكراسات ، وقالوا ان المغارة كانت طويلة ، تتصل بنفق فوهته في الطرف الثاني للجبل ، وان فيها افعى مؤلفة (١) ، هاجمته ليلاً ، فنبه الكلب الذي كان يعيش معه ، وقتلها بعد معركة دامت حتى الصباح . وتفننوا في وصف المغارة وما يجري فيها ، وتوصلوا الى ان خليل وجماعته يحملون تعوينات ،

(١) عمرها تجاوز الالف عام .

وان الرصاص لا يؤثر فيهم ، وان خلين كان ينزل نهاراً الى المدينة .
متكراً بشباب فلاح او نجري ، وان فتاة من بلاد « جوتا » تقرأ
وتكتب ، وأبوها موظف في الحكومة ، هي التي تحمل الكراريس اليهم ،
ولأن وجود انثى مع ذكور - وهذا ما دهش له الجميع - ، لا بد أن
يحدث احتكاك ، - حسب تعبير عجوز مجرب منهم - فان العشق قد
وقع لا محالة ، وما دام الأمر كذلك فان المعشوق هو خليل ، لأنهم
لا يعرفون سواه . وقال والد فياض يومها وهو يرطب شفته السمراء
بلسانه : « اذا كان خليل خيال هذه الفرس فسيغتني الى ولد ولده »
وقالت امرأة : « لا بد أن تكون شقراء جميلة ، اذا كان أبوها في
الحكومة » . وقالت امرأة اخرى في مجلس نساء : « ولا بد أن يكون
« كيلونها » قصير بطاط » فقالت أم بشير : « هذا اسهل بالنسبة لابن
اختي ، لأن سروال المرأة الطويل بتكة لا يطاق في الصيف ويسبب
مشاكل ، وروت لهم ان زوجها ألقاها يوماً في الظلام وعلى النصت
- لأن الغرفة كانت مثل جوف الرمانة - وأرادت فك التكة
فانعدت ، وشد الزوج بها حتى تقطع خصرها ولم تقطع ، وعندئذ
ضغطت على رأسه لينزل ويقرضها بأسنانه ، ونزل « الفالاح » - كما
كانت تسميه - وأخذ يقرض التكة ، ولأنها كانت « برياً » قوياً ،
أو لأن أسنانه كانت ضعيفة ، فقد عجز عن فكها أو قرضها ،
ولذلك سحبت رجلها بهدوء ، وبكل ما فيها من قوة ، لبطته لبطة
ألقت على الفراش المجاور ، وصاح مذكوراً : آخ ! واستيقظ النائمون

في الغرفة ، فزعم لهم انه كان يحلم ، بينما كانت هي تطمر رأسها في
الفراش وتضحك !

وعاد خليل يتسم : « هذا انت اذن يا فياض !؟ » وقال في
نفسه : « هذا هو أبني الحبيب الذي به سرورت ، الآن سيكتب بشكل
أفضل .. اجتاز التجربة .. » ثم تساءل : « كيف اكتشفوا القبور
والمطبعة ؟ وشاية ؟ خيانة ؟ وما هي علاقة رجال الجمارك ؟ » . طوى الجريدة
واعادها الى صاحبها معتزماً اخفاء النبأ عن اهله ، وقام يسأل عن
المهندس الذي وعد بتشغيله ولا زال يماطله منذ شهر . حصل على
تعويض التسريع وصرفه كله . سدد بعض ديونه واستكمل الباقين .
رجلاه تخلعتا من النزول والصعود على طريق البرج ، والاطفال
في البيت يلوبون كدود القز حين ينقطع عنه ورق التوت . لولا
والده لكانت الكارثة . والده اشتغل صيفاً في حمام البحر ، وشتاء
بواباً في بناية ، وكف عن ان يكون لاهوتياً على حسابه .
وام خليل مرضت حتى اشرفت على الموت ، فجاءها جوزيف
بالطبيب وام بشير بالنواء .. توقف النق والكلام على فياض
و « الجامع » والنار التي يحرق بها خليل نفسه . الحريق وقع وانتهى
الأمر .. الحريق في العيون والحركات والمطبخ الفارغ والثياب الممزقة
على جسوم الأطفال . وام بشير ذهبت الى دينيز وبكت . قالت
لها ، بصفتها جارة ، ان حالة بيت اختها اصبحت لا تطاق بعد
تسريع خليل من الهاتف الآلي . ولم تفهم دينيز لماذا سرح خليل ،

سمعت ما يقال عنه في الحى ، وأما شتمه يوماً ، وهي لا ترغب في مناقشة شؤون الآخرين ، ولكن ذكرى الوجه ذاك .. ذكرى « الانسان الذي يسبح ضد التيار » . الزيارة فجت رمادها بعد طول خبو . وكما في الكتب ، حين تقوم البطلة النبيلة بعمل يضعها في صف الشهداء او القديسات ، قامت دينيز بعمل أحست معه انها أقرب الى الحقيقة والحياة . اوجدت سبباً لزيارة العائلة ، ولأطفت الصغار بشكل جعل الكنة ترتبك وهي تنظر اليها خفية وبكثير من الاعتبار ، واصعدت الصغيرة معها الى غرفتها ، وفي رجوعها زودتها بالسكاكر والبسكويت ، وفي الزيارة الثانية دست شيئاً تحت ومادة أم خليل ، واغتتمت ارتباك الكنة الدائم لتلقي نظرة على الغرفة الداخلية ، وتتصور كيف كان فياض يقف خلفها وقع ذلك كله كان متبايناً على الاسرة . قدره خليل بصدق ، واعتبرت ام بشير ان مشاريعها للزواج كحبة القمح ، توقد في التربة ولا تموت ، وتذكر ابو خليل كتفها العاريين ولم يتذكر الوصايا العشر ، وزاد جوزيف من تردده على بيت أبي خليل ، وقلوب من المقابلة الأولى ، بين دينيز وفتاة الدير وامرأة المصعد ، وهز برأسه أسفاً حين انتهى الى هناء ، واورد للمرة الاولى بعض الكلمات الفرنسية في حديثه ، فرفعت ام خليل حاجبها عجباً ، ولاحت الابتسامة الحية على شفتي الكنة الصموت ، وتساءلت دينيز : من يكون اذن ؟ يتكلم الفرنسية ! وفي هذا البيت ؟

Comme dans les livres exactement .

وخليل يسير عائداً الى البيت . الظهر ولم يأت المهندس .
مهندسك ان يأتي يا خليل ، ومن العبت الانتظار على هذه
الحجارة وفي هذا الحر والغبار ، وكذلك سدى أنت تذهب
وتجبيء .. ولكن خليل يبحث عن عمل ، واذا كذب واحد
فلن يكذب الجميع ، هو يؤمن ان واحداً سيصدق ، ثقته بالناس
لم تقبر ، ولكنه يثق ولا فائدة من مناقشته . شهر مضت وهو
يمارس رياضة المشي . جسمه منخور كالخشب المنخوخة في سقف هرم ،
وهذا الجسم يحمل سقف العائلة كله . الأيام فعلت فعلها فيه ، وكذلك
السجون والملاحقات والبطالة ، ومع ذلك يعد خليل نفسه بأيام جميلة ،
ويحلم على طريقته « وهذا أنت اذن يا فياض ! » ويبسم .. « هذا
هو ابني الحبيب الذي به سررت ، الآن يمكن ان يعترف به .. »
« ولكن لا .. لاتستعجل - قال في نفسه » .

* * *

في البيت كانت أمه تعصب رأسها . استنتج وهو يراها
من الشارع جالسة الى خوانها ان مصيبة ما قد نزلت بالبيت . وقال
في نفسه « ولكن زوجتي غير حامل » . العصبية وضعت قبل الآن
في مناسبات كثيرة ، ابرزها عند ولادة بناته : الثالثة ،
والرابعة والخامسة . حين ولدت بنته البكر قالت ام خليل لكنتها
« عروس جابت عروس » ، وعندما جاءت البنت الثانية قالت لها :

« لاتزعلي .. التي جابت البنت تجيب الصبي ، ولكنها عند البنت
الثالثة عصبت رأسها .

وقالت الكنة ان ولادتها في البيت مؤم ، واصرت على
الولادة في المستشفى في البطن الرابعة ، واخرجت لذلك « ورقة
فقر حال » وصباح الولادة جاءت البشارة : صبي ! فزغردت
ام خليل وابعدت عصة الرأس التي كانت قد اعدتها سلفاً ، لكن
ام بشير التي جاءت من المستشفى بعد الظهر حملت خبراً مفاجئاً
لأختها « الكنة جابت بنتاً ! » وصاحت ام خليل : « هاتوا العصة ! »
ولم تنفع احتجاجات خليل وتوسلات الكنة امام ادارة المستشفى ، لأن
الممرضة قالت ان هناك خطأ ، وانها ولدت بنتاً لاصياً ، وقال خليل :
« بدلوه » وخرجت الام وطفلتها من المستشفى لتجد العصة السوداء على رأس
الحماة ، ورفضت هذه قبول الوليدة في البيت ، وحدثت مشادة
في ذلك اليوم ، انتصر فيها حزم خليل ، وادخلت الصغيرة بين
الشد والانتروهي تبكي ، وامها تبكي ، واخواتها الصغيرات
يبكين !

العصة - اياها ! - استمرت حتى مجيء الصبي بعد البنت
الخامسة ، وها هي اليوم ، على الرأس ، كالراية السوداء على بيت
ميت ، وام خليل تلطم خديها وتبكي ، وام بشير تضحك عليها ،
والكنة تراقب المشهد بصمت ، وابو خليل استعاد منطقه اللاهوتي
فهو يردد « اذكرونا يا فياض اذا جئنا في ملكوتك » فتسأل ام خليل :

« تقول يصلبونه ؟ » ويجيبها : « لا .. عادة الصلب بطلت .. الشنق أسهل ! » فتضرب على ركبتيها وتبكي ، وتقول من بين دموعها :
« الله يصبر قلبك يا نزهة ! » .

وصاحت بنخليل وهو يدخل البيت :

- سمعت ؟ .. شفت الجريدة .. احترقت وحرقته ..

يا ضياع شبابك يا فياض !

البارود في الصخر . اشعل الفتيل فقط ويحدث الانفجار .
الصمت ! .. هذا أجدى . لا تقل شيئاً . كالجسر تحمل ضغط
الاثقال . خشبة منخورة أنت ، ولكنك عمود البيت . العاصفة
تمر ، والشجرة الراسخة تبقى . دع العاصفة تمر ، والسماء تمطر ، ثم
يكون صحو كثير .

* * *

والسماء ، في بيت دينيز ، امطرت أسى أيضاً . هذا هو الفتى .
هي وهو . وجه ووجه . صورة في جريدة وصورة حية ،
ونظرات متقابلة ، وكلام ولا كلام في النظرات المتقابلة . ام بشير
حملت اليها الجريدة ، وأشارت الى الصورة قائلة : « تعرفينه ! ؟ » ، في
البدء لم تعرفه .. الشعر ، والاحية ، والقيود في اليدين ، والقميص
المفتوح ، المدعوك كأنه لم يعرف السكي .. لاشيء سوى العينين
علامة مميزة . هذا هو .. « أنا اسبح ضد التيار .. لا تستطيعين

ان تأتي الي . وكانت تحسبه مبالغاً . قبو ، ونفق ، ومقبرة ،
ومطبعة ، وكل التفاصيل التي نشرتها الصحف .. « وهذا انت اذن ؟
رباه ! لماذا ؟ لماذا ؟ »

* * *

والف لماذا تظل ترسم والجواب بسيط : لأن ذلك
كذلك . وهناك لاتفهم بدورها . لاتصدق ان فياض ، اللطيف
كنسمة ، الذي يخشى ان يزعب الارض اذا سار عليها ، يمكن ان يدخل
المقبرة ليلاً ، وينزل الحشخاشة ، ويعبر النفق المليء بالجثث والعظام ،
ويصل القبو ليطلع الكراريس والنشرات . وجوزيف المثار ،
المعجب ، المؤيد ، المستزيد ، يقطع الصالون جيئة وذهوبا ويقول :
لا تستغربي ، الاشياء كذلك دائماً . وللتأكيد ردد بالفرنسية
Les Choses sont toujours comme ça فسأله ببراءة : « وأنت ؟ مررت
بالمقابر مثله ؟ » فأجاب : « قد أمر بما هو أصعب . » « وهل تجرؤ على
النزول في الحشخاشة ؟ » التفت اليها بانعطاف مفاجيء ، ولأمر
ما شعر بالاهانة ، ووجد سبباً للانفجار فصاح بها : « يا بنت الافاعي !
نسيت انني من كسروان ؟ » وكسلحفاة واجهت خطراً ، بلعت
نفسها وسكتت ، بينا أكمل هو خطواته الى نهاية الصالون واستأنف
تقريبه : « تحسبيني مثل مغنيك ! ؟ » ودخلت السلحفاة
صدفتها تماماً ، فعاد اليها يقول : « لو قرأت قصة زويا ! » ونظرت

اليه متسائلة وقد ضاعف الذعر بلادتها الذهنية ، فأشاح عنها استخفافاً
وقال « انما انت جاهلة .. لاتعرفين شيئاً عن حياة المناضلين ! »
ودار حولها وقال : « المناضلون هم الـ (combatants) بامدام ، ماذا
علموك في المدرسة ؟ » وأجاب عنها « لا شيء ! » وتركها ومضى
الى البراد ، اخرج زجاجة العرق ، وصب كأساً وكرعه ، ثم
صب كأساً آخر ، ووضع مرفقيه على الطاولة والجريدة مبسوطة
امامه ، وبدأت ، في الارض غير المقدسة ، تحترق العوسجة البرية .
وفجأة ، كأنما هبط عليه الوحي ، او كأن عارضاً مسه ،
اهوى بقبضته على الطاولة بعنف ، فدوى الخشب ، وأزّت الزجاجة
والصحون ، واهتز الكأس ، وتناول الجريدة ومضى عبر الباب
الخارجي الذي اصطفق وراءه بعنف أيضاً .

* * *

على طول الطريق ، من بيته الى بيت خليل ، كانت نار
بيضاء لعوسجة متحركة تشتعل بتأثر .. أما هناء ، التي عادت فخرجت من
صدفتها دون ان تشعر بشيء غير عادي ، فانها لم تستطع ان تنسى فياض ،
ولا ان تتصور ان ذلك حقيقة . ودونَ تحفظ اخذتها الشفقة على
جوزيف ، وعجبت « لان ذلك كذلك ، ولأن الدنيا لاتصير
كما يريدون !

ودخل جوزيف بيت أبي خليل بوجه مكفهر يحمل طابع

المأساة ! وكالمعزي في ميت جلس دون ان يتكلم ، فالتفت اليه
ام خليل وسأله بصوت واجف :
- تقول يشنقونه ؟

وعندئذ خرج عن لباقة المعتادة وقال بغضب :
- يقطعون بيضه !

ولاحال ، اعتذر من النساء ، وافاض في الكلام عن الحادثة
وخليل ساكت ، ووالده يتدبر جملة لاهوتية ، والكنة مقعبة في
ركن الغرفة ، ترقع ثياب الصغار ، وشيء مبهظ ، رصاصي يتعدد
في الجو . قالت ام خليل :

- من كان يصدق ان فياض يطلع منه كل هذا ؟ كيف لم
يخف وهو يدخل الحشخاشة . ؟ كيف لم يحزن ؟ الله يصبر قلبك
يانزهة !

قال جوزيف :

- الاحياء لا يخيفون الاموات يا ام خليل .. وصاحب
المبدأ لا يخاف الاموات ولا الاحياء .. غوركى نام في المقبرة .
فقال ابو خليل :

- وخليل نام في المغارة .. كلنا ننام في مغارة .. والخفي
أعظم !

قال جوزيف :

- اذا لم يخف الانسان الموت اصبح كل شيء سهلاً عليه ..

جوريس قال : « اذا كنت لانتخاف القبر.. » فناحت ام خليل :
- لاتذكروا القبور (وملتفتة الى كتفها) قومي
اشعلي البخور ..

ووجد خليل ان الصمت لم يعد يجدي فقال :
- اتركوا هذا العلاك .. يضحكون عليكم وانتم
تصدقون .. اي مقبرة واي خشخاشة هذه ؟ يصنعون من الحبة قبة
لزرع الخوف وتبرير الارهاب .

- ولكن الصحف نشرت الصور . قال جوزيف .
- وماذا يعني ؟ تلفيق ! المطبعة في قبو ، والقبو له باب ،
وفياض كان يسكن هناك .. وحتى لو كان يعمل ، ولو كان يطبع
كما يقولون ، تظل القضية عادية .. حين لا يسمحون للناس بالكلام
علناً يتكلمون سراً ، وحين لا يسمحون لهم بالنشر في صحفهم
ومطابعهم ، يضطرون الى النشر في الصحف والمطابع السرية .. مئة
مرة كمشوا هذه المطابع ، واحدثوا هذا الضجيج ، ومع ذلك
بقيت المطابع ، وبقي الناس يطبعون ، لماذا هذه المناحة ؟
فقال ابو خليل ساخراً :

- قم حول الماء الى خمر لنعمل عرس قانا يا محترم !
- لا عرس ولا مناحة .. غداً تصير المحاكمة وتعرف الامور .
- وفياض ؟ سألت العجوز بنبرة رجاء .
- ينهي محكوميته ويطلع ..

فهزت يدها مضمومة في وجهه وصاحت :
- آه من قلبك القامي .. كأنك لاتعرفه .

وقال زوجها :

- ابنك لا يعرف نفسه .. افرطي لنا هذه المسألة .

- ٢ -

ذات صباح ، بعد ستة اشهر تقريباً ، خرج فياض من سجن
الرمل ، لم يكن شعره طويلاً ، ولا ذقنه ثابتة ، وفقط بياض خفيف
في الفودين ، وغضون على الجبين .

كانت امرأه تنتظر . نفس المرأة التي كانت تحمل له
الطعام الى السجن . هو لا يعرفها وهذا لايم . أقرب اليه من كل
من عرف . وابتسمت له بود وقالت : « تعال ! » ، وعلى جانب
كانت تقف سيارة ، وفي جوفها جلسا ، فوضعت راحتهما على يده
بجنان ، كأنما تريد ان تعبر باللمس عن الاعجاب .

لم تتكلم ، الكلمات أعجز ، والسائق لايتكلم ، الكلمات
اعجز ، وهو لايتكلم ، الكلمات أعجز ! في القبر كان ، في القبر نام ،
في القبر عاش ، ومصادفة ، دورية جمر ك ، تبحث عن تهريب ،
عثرت على القبر .. وفي صدره حطوا بنادقهم ، وفي يديه حطوا
سلاسلهم ، وفي جسمه زرعوا مشارطهم ، ولم يفتح فيه بشيء :
« لا اعرف ! » اليوم تموت ، وغداً تموت ، وبعد الف تموت ، والخوف
يموت ، ثم لاشيء .

والكف ، رخصة ، حلاوة ، تضغط : شكراً ! والقلب

مسرور يخفق : شكراً ! والعين تلمع : شكراً ، والطريق ، من وراء ،
يطول ، يطول .. وصحراء بيضاء ، ورجل حافي القدمين يسير ،
أثلام من وقع قدميه ، دماء على وقع قدميه ، ومنعرجات وخطوط ..
والدرب يطول .. وأمامه سبعة بحور .. والدرب يطول ،
والعزم يطول .

وقالت له المرأة : هنا ! ..

ودخلا ..

وعانقه الموجدون ..

شكراً ، شكراً ، شكراً .

* * *

في اوائل الشتاء غادر بيروت الى الجبل . عاش فترة مختبئاً .
كانوا يبحثون عنه ، منذ غادر السجن وهم يبحثون عنه ، وجرت
تحقيقات في كيفية المغادرة . وأوقف اشخاص ، لكنه ، هو ، كان
قد أفلت . وفي بيروت عاش وعمل . كان يخرج ليلاً . ويخرج أحياناً
نهاراً ، ثم اشتدت الملاحقة ، وضافت الحلقة ، فلبأ الى قرية نائية
في جبل لبنان ، وسكن غرفة في بيت كبير خال .

الثلج وقتئذ لم يكن قد تساقط ، وما هو ، في كانون الاول ،
يغمر ، لا تم الجبال وحدها ، بل حقول القرية وطرقاتها ايضاً ..
وحتى الاشجار بدت مدثرة بعباءات بيضاء تكاد تنحني من ثقلها .
هنا يعيش مقطوعاً تماماً .. يعيش بين كتبه واوراقه ،

ويقتات ذكرياته ، ويجاهد نفسه على تحمل الحرمان الكامل ويتمنى
لو يجد من يبادله الحديث .

كانت ، في البيت المجاور ، مدخنة ، وكانت دخانها ، في
الأماسي ، يتصاعد منبثاً بوجود حياة ، ثم انقطع الدخان مع اشتداد
البرد ، فأدرك ان سكان البيت نزلوا الى بيوت ، وان يعودوا إلا
عند اشتداد الحر . الشيوخ والاطفال وحدهم بقوا في القرية ، وهم
لا يخرجون من بيوتهم إلا لزيارة أو غرض ، وهو لا يخرج من غرفته
إلا نادراً ، ولا يشا كل القرويين .

جارتها العجوز هي التي تذهب وتجيء ، فتشتري له متطلباته
من السوق ، وتطهو طعامه ، ثم تغيب أكثر النهار . . وحتى او بقيت
في البيت فهي لا تتكلم . . جارتها من النوع الذي لا يتكلم ، كأنها
لم تعرف الحديث يوماً ، أو نسيت عاداته . . وإذا ما فاتحها بامر ،
أجابت باختصار ، وأدت ما طلب منها بهدوء ، وذهبت الى حيث
لا يدري ، أو ارتكنت غرفتها كأنها قطعة من أثاثها ، فلا يبقى
له سوى الصمت ، أو المطالعة أو اجتوار ذكرياته الملعونة .

في هذا الجو الهادي والكثير ، انهي قصته الطويلة . . ثم
فشل في أن يبدأ قصة جديدة . . وحين حاول أن يرسم خطوطاً أولية
للذين عرفهم في غربته ، وجد انه عاجز عن تصويرهم بصدق . . كان
ينقصه شيء ما لا يعرف ما هو .

كانت الحياة قد باعدت بينه وبينهم .. وقد التقى ، قبل
مجيئه الى هنا ، بخليل .. كان لقاء قصيراً حاراً .. ولم يشأ خليل أن
يقول شيئاً عن وضعه ، ولم يظهر تدمراً او شكاة ، وكل ما عرف
منه انه وجد عملاً ، وان العائلة بخير ، والجميع يتذكرونه ..
وينتظرون عودته ..

ورداً على ما قص عليه فياض ، قال خليل ، بنفس لهجته
الوادعة ، ولكن بالجدية الصارمة لأرائه العملية :
— أنت الذي اخترت هذا الطريق ، وما عليك إلا أن
تواصل السير .

فوافق فياض بتصميم ، وانتهى اللقاء .. لم ير جوزيف ولا أبا
روكز أو أم بشير .. ودينيز لم يسمع شيئاً عنها .. وفي تنقلاته ..
مر يوماً بعمل المسامير فوجده مغلقاً .. قدر ان الرأسمال الفنزويلي
كان سراباً .. كذلك مر ببعض ورشات البناء ، فتذكر زميله
العامل الذي يأكل « الحبز الناشف » وبعده يتفرج على « الفاكهة » في
ساحة البرج .

هذا كل ما عرفه من أمر اصحابه في « كرم الزيتون » ..
دنياه تلك ، كم بدت قاسية ، مقبلة في وقتها ؟ كم لاب بين الجدران ،
وحبس انفاسه عند وجود الزوار ، وقبع ساكناً هامداً ساعات
وساعات ؟ ثم كم تنقل بعد ذلك ؟ كم بدل غرفاً ورأى وجوهاً وقطع

طرقاً ؟ « إيه يا أم خليل ، أما يزال مجلسك كما كان ؟ وايه يا أبا خليل ، يا حارساً أميناً مؤتمناً ! وأنت يا خليل ، يا زيتونة مباركة بين الاشجار ، كم عصفت بك الرياح وكم صمدت للرياح ! وأنت يا أم بشير ، يا عاملة جريئة ضاحكة للحياة !. ويا جوزيف ! ويا هناء ! ويا اباروكز ، أيها المخترع ، الصانع الحياة من جماد ! وأنت يا دينيز ، يا قمرأ أشرق وغاب ، يا أحبائي ، يا شهودي عند نفسي ، سلاماً ! ،

* * *

حوالي رأس السنة عادت المدخنة في البيت المجاور الى العمل .

كان الثلج قد ارتفع امتاراً على القمم القريبة ، والبساط الابيض غدا سميكاً ، والبرد يلسع فلا يجروا الناس على مد رؤوسهم ، والجو الضبابي الكثيف يبعث شعوراً بالضجر وبال حاجة الى الهرب .

وكان الحرمان قد اشتد .. غدت غرائزه الجائعة ذئاباً في غابة ثلجية . وقد عجب كيف تحمل الحرمان طوال غربته ، وارتعش وهو يفكر كيف سيتجمله أيضاً . وقال في نفسه : « أي بشر هؤلاء الذين يقضون حياتهم في حرمان متصل ؟ الموت ، على أنه الحرمان الاكبر ، ليس رهيباً .. انه ذروته وباب الخلاص منه ، أما الرهيب فهو هذا الحرمان اليومي المتصل ، .

و ذات صباح ، فيا هو الى النافذة ، شاهد وجهها في البيت
المجاور .. كان وجهها لطيفاً لفتاة صبية .. وكانت تحملق فيه بامعان ،
وقد ارتسم التساؤل على حياها .. ولعل هيئته الغريبة ، باللعينة
النابتة ، والشعر الطويل ، قد أثارت دهشتها ، فقال في نفسه :
« يا للغرابة ! نافذة اخرى وطيف آخر ! »

وواصل الثلج تساقطه ، فازدانت الأشجار به ، ونهيات
لاستقبال الميلاد .. كانت مثله وحيدة ومهجورة ، ومن المشكوك
فيه أن يحفل بها أحد ، أو يعلق عليها هدية لحبيب . فقال
وهو يتأملها :

— مسكينة أشجار الحديقة ومسكين أنا .. كلانا يستقبل
العيد ولا يدري ما يصنع به .

ثم صاح دون أن يتكلم :

— أيتها الاشجار . يا أشجار الحديقة ، يا عزيزتي .. لن
يلبث هذا الثلج أن يذوب ، أسمعين ؟ متشرق الشمس ، ويزوب
الثلج ، وينبت العشب ، وترعى الخراف .. سيعودون اليك في
الصيف ، وسأعود أنا الى بلدي ذات صيف ، أتعرفين ؟ سأذكرك ،
واحب كل الأشجار لاجلك ، كي لا تبقى شجرة بدون حب ، ولا
قلب بدون دفء .

وقال في نفسه :

— لسوف أجن اذا بقيت وحيداً .. الى جهنم هذه الحال ..

لماذا لا تظهر جارتني ، طيفي ، في النافذة ! ؟

وراح يعد خطاه .. وكانت جارتته ، في جو القرية الفارغ ،

مستوحشة مثله ، ومثله تتعذب وتبحث ، وقد قالت في نفسها :

— هل هو معتوه جاري ؟

وأغلقت النافذة .. ثم راحت ، في غرفتها ، تعد خطاها ..

كانت تعد على نحو مغاير ، ولكنها كانت تعد على أية حال .. فلما

أدركها الملل فتحت النافذة كرة اخرى . واذ شاهدها قال في نفسه :

— أنا لا أطمع فيك يا عزيزتي .. لست في وضع يسمح لي

بالاتصال بك ، ولا آمل في حبك ولا مكان له في قلبي ، أنا أبحث

عن عزاء .. عن عاطفة .. عن نسمة دائمة .. أما أنت فشيء آخر ..

أنت بغير حاجة الى هذا ، ولذا فان اطلالك علي ، كرم يفوق

كل كرم !

وقالت هي ، من وراء نافذتها ، وفي ذات نفسها ايضاً :

— اني لا أرجو منك شيئاً .. حي هناك ، في مكان بعيد ..

وأنا انشى وحيدة كما ترى .. وفي الوحدة يستوحش القلب ، فاذا

نظرت اليك ، فبصفتك وجهاً بشرياً .. وجهاً هو أنت ولست

أنت .. أنا لن احبك في يوم من الأيام .. لن احبك أبداً ، ولكنني

احتاجك الآن .. احتاج أن انظر الى وجهك .. بل الى ايما وجه
من جنسك ، ولو كان معتوها .. فيا صاحبي ، أيها الواقف وراء
تلك النافذة ، شكرا !

وتساءل هو :

- ترى .. بماذا تفكر تلك الفتاة ؟

وتساءلت هي :

- ترى .. بماذا يفكر ذلك الفتى ؟

وقال أخيراً :

- سيان .. لتفكر بما تشاء .. ليكن قلبها حيث يكون ،
يكفي انها انسانية .

وقالت أخيراً :

- سيان .. ليفكر بما يشاء .. ليكن قلبه حيث يكون ..
يكفي انه انسان .

انسان وانسان .. والحياة ليست سيئة بعد .. في البدء
كان آدم وكانت حواء والأفعى .. وهنا آدم وحواء ولا أفعى ..
شبع آدم وشبع حواء .. لا بأس ، حتى هذا ، حين لا يكون في
المستطاع غيره ، يبدو مقبولا . الاطيف ، في الاحلام ، مقبولة
أيضاً ، ودينيز بعيدة .. كانت بعيدة دائماً ، وهذه الحقيقة لا تغير
من واقع حبه شيئاً ، بل لعلمها ان تزيده ، فالقمر لم يقترب من

الأرض ابداً ، ظل بعيداً وظل محبوباً ، فماذا لو وصل الناس غداً
إليه ؟ ينسونه ؟ .

— لو وصلت الى قمرى لنسيته ايضاً . . ننسى الشيء في
الشيء . . انسى دينيز في دينيز ، أيمكن هذا ؟ وفيم سعي المحبين الى
اللقاء إذن ؟ .

وقال في نفسه وهو يرسل آهة شوق :

— لعل الناس يسعون الى النسيان في سعيهم الى اللقاء . .
يتعبون من الأحلام . . أجسادهم تمل ألم العفاف كما مل جسدي ألم
عفافي ، فيهرعون الى الوصال ، الى الدواء المسكن ، اللذيذ ، الشافي .
قالها وأغمض عينيه ، وسمح لعواطفه أن تعذبه . . . تصورها
كما رآها في النافذة ذات مساء ، بدت أجمل الآن ، أجمل من كل
جمال ، وليس أجمل فقط ، بل أعز وألزم . هي وحدها الداء والدواء
والمرض والشفاء ، وهو قادر أن يتجاهل ذلك ، أن يضع حبه جانباً ،
وربما ، في المستقبل ، أن يبرأ منه ، ولكنه ، في الوقت الحاضر ،
مضطراً أن يعترف به . . . سيعترف به ويستريح ، سيقول لجارته : « أنا
أحب يا جارة ، وانت ، بالنسبة لي ، سلبية الصورة لا الصورة ذاتها ،
خدعة الدواء لا الدواء نفسه ، وقد أكون انا ايضاً خدعة دوائك
لا دوائك نفسه ، وهكذا فنحن ، ههنا ، ضروريان لبعضنا ،
ضروريان جداً لو تعلمين ، فداومي ، داومي على الظهور يا عزيزتي ،
يا دوائي ، يا مؤنسة وحشتي القاتلة ! »

وداومت الفتاة على اطلاقها كل يوم ، في الصباح وبعد الظهر .
كانا يقفان جامدين ، يخطف كل منها نظرة عابرة من الآخر . . ثم
استطالت النظرة فعدت تحديقاً ، ثم التقت العيون فقالت الفتاة
دون أن تتكلم :

– بخيل إلي ان هذا الفتى ليس معنوها .

وقال فياض دون ان يتكلم :

– بخيل إلي ان هذه الفتاة ليست قبيحة .

ولكي يفصح كل منها عما دار في خاطره ابتسما . . واهتزت
الاعصان في الحديقة بفعل نسمة عابرة ، فتساقط ثلج ، وخفق بجناحيه
عصفور ، وانتشر دفء ، وفتح كلاهما نافذته ، وتبادلا التحية على
استحياء ، كما يفعل جار ان مهذبان ، وعبثا بالثلج كما يفعل سائر الناس ،
ثم راحا يجمعانه من حوالى النوافذ واعصان الاشجار ، ويتراشقان
به . . يقذفانه في الهواء دون أن يصل الى أي منها .

وقال فياض :

– يا إلهي ! الثلج ليس بارداً . لم يعد بارداً ، انه يدخل من
النافذة . . الثلج يأتي من النافذة . . واني لاحب الثلج حين يأتي
من النافذة !

وقالت الفتاة :

– من كان يظن اني سأجد انساناً ههنا . . اكرهني والذي

على المجيء معها في العيد ، فقلت في نفسي : « وماذا في العيد هناك ؟
لسوف أموت عشر مرات ضجرأ في اليوم .. ، وما أنا لأأموت ..
نار صغيرة وسط ثلج كبير .. وماذا بهم ؟ يكفي انها نار ..
مشروع نار ، لا نار كاملة !

وهن النافذتين ، بشكل غير منظور ، كانت ايد أربعة
تمتد متعاكسة ، كل اثنتين تصطلي ناراً في الطرف الآخر ، وفي
الاعماق تزهو احاسيس كاد يقتلها الصقيع .

* * *

استمرت الحال كذلك اسبوعين .. وقد كانا استثناءين بين
الاصابع .. الزمن تقاصر فيها وخف ، كان زمناً لا يحس ، لا يرى ،
لا يمك .. كان ، باختصار ، زمناً حلواً ، حلق فيه فياض ذقنه ،
وارتدى افضل ثيابه ، وعلق في نافذته عرقاً اخضر ..

— ياديني زي ! . يا حبيبي ! يا قمرى البعيد ! يا اخوتي الذين
يؤمنون بكلماتي ؛ يا امي الصغيرة الطيبة ! يا مخلوقاتي ! . انا بحال
طيبة .

وقال نفسه :

— لاشتغلن شغلأ مشمرأ بعد العيد .

* * *

وبعد العيد توقفت المدخنة من جديد . . بعد رأس السنة
لم يعد يرى دخاناً ولا ضوءاً ولا وجهاً . . كل شيء عاد كما كان . .
عادت الوحدة ، والفراغ ، والرقابة والبرد . . وعاد هو الى ما كان
عليه ، يعد الخطى . ويكلم نفسه .

انطفأت النار عبر الحديقة . . انطفأ النور . . لا نار ولا نور
ولامسرح ولا جمهور . . كل شيء منه واليه . . « انا هو العالم .
والعالم انا » والدنيا ، من حوله ، صمت ، والثلج وحده يأتي من
النافذة .

وصاح مدهوشاً :

- كيف نسيت أن أغلق النافذة ! ؟

واذ تذكر انها كانت مفتوحة ، أمس وقبله وقبله ، ابتسم
كطفل يداري خطأه وقال :

- البرد ليس من الثلج !

واستدار عن النافذة وهو يؤكّد لنفسه :

- البرد ليس من الثلج !

وقال للمرة الثالثة :

- البرد ليس من الثلج !

وظل واقفاً وسط الغرفة وهو يردد بنوع من التحدي :

- البرد ليس من الثلج !

وراحت الغرفة ، بكل ما فيها ، تصرخ في وجهه :
- البرد يا فياض ليس من الثلج !.. البرد يا فياض
ليس من الثلج !.. البرد يا فياض ليس من الثلج !

* * *

البرد كان من الغربية ، والتجربة تمت في الغربية ، والآت
وداعاً للغربة !

* * *

بين الصخور ، على الجبل الفاصل بين حدودين ، راح شبح
يتسلل . نفس الطريق ، قبل عامين ، وانما بالعكس . سلاماً يا ارضي !
وانحنى فقبل التراب . سلاماً يا ارضي ! وانحنى فقبل التراب . .
ووقف فاستقبل دمشق بوجهه : يا مدينتنا التي لا أحلى ، يا أمي التي
هناك ، يا نافذتي التي خلفت ، يا احبائي الذين فارقت ، وبارفقتي
التي سألقى !

اغمض عينيه على هناءة الراحة بعد تعب . في مدينته سيعيش ،
وفي مدينته سيكتب ، وفيها سيكافح . . . وشعر بسعادة غامرة ،
بسعادة من يستقبل الدنيا بصدرة ، واعدائه بصدره ، واصدقائه
بصدرة أيضاً ، وهتف كأنه يقسم :

- أبداً لن اهرب بعد الآن ! أبداً لن اهرب بعد الآن .

- انتهت -